منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه

محمد بن صامل السلمي

منهج كتابة التاريخ الاسلامي
وتدريسه

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت ٣٤٢٧٢١ / ٢٥٦٢٢ / ٢٥٦٢٣٠

فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت . ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

فرع القاهرة : ٤١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٢٤٥١٨ / ٣٩٣٤٦٠١

منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه

محمد بن صامل السلمي

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيفَ كان عاقبة المكذبين ... ﴾

آل عمران آية رقم ١٣٧

وقال تعالى :

﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . ﴾

الأعراف آية رقم ١٠٠

وقال تعالى :

﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

العنكبوت آية رقم ٣٥

وقال تعالى :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وءاثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ .

غافر آية رقم ٨٢

هذا الكتاب جزء من رسالة تقدم بها الباحث للحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وناقشتها لجنة مؤلفة من :

د / حسام الدين السامرائي مشرفاً ورئيساً

د / أكرم ضياء العمري مناقشاً

د / محمد عبدالعال أحمد مناقشاً

وفي نهاية المناقشة منح صاحبها درجة الماجستير بتقدير ممتاز وذلك يوم الثلاثاء ١٢/٦/١٤٠٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله القائل في كتابه الكريم : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(١) ، والذي طلب منا في كثير من الآيات النظر والتفكر في أحوال الماضين والسير في الأرض للاعتبار بأحوالهم ومصائرهم مثل قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٢) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾(٣) ، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين الموحى إليه قول الله تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾(٤) وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .
(٢) سورة الرم آية ٩ .
(٣) سورة الحج آية ٤٥ - ٤٦ .
(٤) سورة هود آية ٤٩ .

أما بعد :

فالتاريخ دراسة في أحوال الإنسان وحركته على هذه الأرض والنظر في معاملاته المختلفة .

- معاملته مع الحق ومع رسل الله ، ومدى استقامته وانحرافه عن المنهج الذي جاءوا به .
- معاملته مع الناس من حوله أفرادا أو جماعات وفي مختلف الحالات .
- تفاعله مع الكون من حوله ، ومدى استفادته مما سخر الله له من المخلوقات وما أعطاه من المواهب والقدرات .

إن ثمرة هذا العلم تأتي من التفكر في أحوال المدنيات والدول وعوامل بنائها وأسباب سقوطها ، ومن النظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات ، ومن الاطلاع على تشابه مواقف الأقوام المختلفة من دعوة التوحيد ودعاتها ، وأن ذلك يكاد يكون نسخة مكررة على تطاول الأزمان وتباعد الأمكنة وتعدد الأجناس .

كما تأتي من التأسي بمواقف الأنبياء - عليهم السلام ، وجهادهم في تبليغ الرسالة ، وثباتهم على الحق ، وصبرهم على تحمل الأذى في سبيل الله .

والتاريخ الإسلامي هو تاريخ دين وعقيدة ، قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية ، لأن العقيدة هي التي أنشأت هذه الكيانات من الدول والمجتمعات ، بنظمها السياسية والإدارية والتعليمية والاقتصادية وغيرها(٥) .

ولأجل هذه الصفة في تاريخنا الإسلامي ، فإنه لابد من دراسته وفهمه ، وفق منهج علمي صحيح ، منبثق من التصور الإسلامي والعقيدة الصحيحة عن الله والكون والإنسان والحياة .

ومن هنا تظهر أهمية التعرف على المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ

---

(٥) هذا بصرف النظر عن الأخطاء والانحرافات التي تقع أثناء التطبيق .

وتدريسه ، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج وأهدافه ووسائل تحقيقه ، والالتزام بذلك حتى لا تنحرف الدراسات التاريخية عن خط العقيدة ومقتضياتها ؛ فتأتي بآراء وتفسيرات مضادة للتصور الإسلامي عن الكون والحياة وسير الأحداث .

ولقد انصب اهتمام المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى على تدوين أخبار الأحداث والوقائع ، وكان معظمهم يذكر أسانيده وأسماء رواته ، ليتأكد القارئ لتلك الأحداث بنفسه من صدق ذلك من عدمه - وهذه من محاسن منهجهم - غير أنهم لم يقوموا بالتفسير والتعليل - كما تفعل الدراسات التاريخية المعاصرة - حتى لا يفرضوا على القارئ رأيا معينا ، ولكي لا يتسلطوا على فكرة بتوجيه أو تعليل معين للحدث . ويفترض بعض الباحثين تعليلاً لذلك أنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى هذا المستوى من الدراسة .

كما أن القارئ في وقتهم كان عنده من الفهم لإسلامه وعقيدته وإدراك مقتضياتهما ما يجعله يدرك الحق من الباطل ، ويزن الأمور بميزان الكتاب والسنة ، إضافة إلى أن الفرد المسلم كان يشعر بعزته وعلو ثقافته ومبادئه ، ويؤمن بأن هذه المبادئ لا يدانيها شئ من مبادئ الجاهليات وتصوراتها ، ويظهر هذا واضحا في أسلوب المؤرخين المسلمين وطريقة عرضهم لتواريخ الأمم الكافرة . ولذلك لم يحتاجوا إلى التأليف والكتابة في بيان المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ ، لأن المنهج غاية في الوضوح في ذهن الكاتب والقارئ على السواء .

أما في العصور الحديثة فقد كثرت الانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي ، واتبعت في كتابته وتدريسه مناهج وأفكار ومبادئ غريبة عليه. وهذه الانحرافات راجعة إلى الانحراف في التصور عند من تولوا كتابته ، مع الجهل بحقيقة الدين الإسلامي وشموليته ، إضافة إلى قصورهم في فهم دلالة المصطلحات الإسلامية مثل الدين والعبادة والألوهية ، إن الفصل بين الدراسات الشرعية والدراسات التاريخية في مناهج التعليم قد أدى إلى أن تقوم الدراسات التاريخية المعاصرة - في البلاد الإسلامية - على هَدْي المدرسة الاستشراقية إذ تلقفت مناهجها وأساليبها في عرض المادة التاريخية وتفسيرها .

فنشأ عن ذلك – مع الأسف الشديد – جيل من خريجي الجامعات وأساتذة التاريخ لا يشعرون بأية صلة تربط هذا التاريخ بدراسة الشريعة وأحكام الإسلام بل ربما استنكر بعضهم ذلك .

مع أخذهم لأحكام الإسلام على أنها أجزاء وتفاريق لا رابط بينها ، وأن في مقدور الإنسان أن يكون مسلما في جانب الاعتقاد المستكن في القلب دون السلوك العملي ، أو أن يقوم بالشعائر التعبدية دون الالتزام بالإسلام في منهج العلم والتلقي ، وهذا تطبيق للمبادىء العلمانية التي تفصل بين الدين والحياة ومنهج العلم ، وقد صاحب ذلك أيضاً الشعور بالتبعية وروح الانهزامية أمام الحضارة الأوربية ، مع عدم الاعتزاز بالإسلام وتحقيق مفهوم الولاء والبراء ، إضافة إلى الامتناع عن متابعة مناهج العلماء المسلمين في التوثيق العلمي .

ومن أجل ذلك فقد أصبح من الواجب على القادرين من العلماء المسلمين المساهمة في تصحيح الأفكار والمفاهيم ، والعودة إلى المنابع الصافية لهذا الدين . ومن الواضح أن إبراز المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدوين قواعده وبيان ركائزه ومنطلقاته من أهم وسائل التصحيح المنشود ، خاصة وأنه قد كثرت في هذا العصر المناهج المطروحة لتفسير التاريخ ، كما كثرت المذاهب الفكرية التي أرادت أن تجعل من تفسير التاريخ سنداً ومبرراً لوجودها واستمرارها . ومن المعلوم أن لكل من المذهب المادي ، والمذهب الاشتراكي ، والمذهب القومي ، والمذهب الرأسمالي الغربي ، والمذهب العلماني ، والمدرسة الاجتماعية الفرنسية ، والمدرسة الأمريكية التاريخية ، والمدرسة الانكليزية ، والمدرسة الألمانية ، منهجه في دراسة التاريخ وفي تفسيره .

ومن أيام الدراسة وأنا أقرأ عن دعوات صادرة عن كثير من الكتاب والمفكرين يدعون فيها إلى « إعادة كتابة التاريخ الإسلامي » ثم ما لبث الأمر أن طرح من قبل هيئات علمية ورسمية .

وأول من علمت أنه دعا إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، الشيخ محب الدين الخطيب ، ثم الأستاذ سيد قطب في كتابه : في التاريخ فكرة ومنهاج[٦].

وقد طرح الموضوع على مجلس اتحاد الجامعات العربية عام ١٩٧٤ م ، وقرر تشكيل لجنة تحضيرية لدراسة « إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام » وإنشاء معهد للتاريخ العربي ودائرة معارف تاريخية عربية[٧] .

ثم عقدت في جامعة الكويت « حلقة عمل لمشروع إعادة كتابة تاريخ العرب والإسلام »[٨] .

كما أن الموضوع قد طرح على المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة عام ١٤٠١ هـ وعام ١٤٠٢ هـ[٩] ثم على هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية . لكن يبدو أنه لم يتخذ قرار عملي بهذا الخصوص .

وقد ناقش هذه الدعوة عدد من الباحثين بين مؤيد ومنتقد[١٠] ، ولا شك أن المقصود بالإعادة عند من دعو لهذا العمل لأول مرة هو تنقية كتب التراث من الأخطاء والروايات المكذوبة ، ومن ثم إعادةي الصياغة وفق المنظور

---

(٦) ذكر في آخر هذا الكتاب ص ٦١ في الهامش أنه قد تألفت جماعة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وهي تتألف من الشيخ صادق عرجون ومحمد يوسف موسى وعبدالحميد يونس ومحمد النجار وسيد قطب . ولا أعلم أن هذه اللجنة أصدرت شيئاً بهذا الخصوص سوى الكتابين اللذين أصدرهما الشيخ المرحوم محمد صادق عرجون ، خالد بن الوليد ، عثمان بن عفان .

(٧) تتألف هذه اللجنة من الدكتور عبدالعزيز كامل ، وأحمد بدوي ، ومحمد مرسي أحمد ، وعبدالعزيز النوري ، ومحمد الطالب ، وحسين مؤنس وشاكر مصطفى (انظر جريدة الجمهورية القاهرية ١٨ /١٢/ ١٩٧٤ م .

(٨) مجلة المجتمع الكويتية عدد ٢٣٢ محرم ١٣٩٥ هـ .

(٩) قرر المجلس التأسيسي في دورته الثالثة والعشرين المنعقدة عام ١٤٠١ هـ تشكيل لجنة في نطاق الأمانة العامة مكونة من خمسة أعضاء ؛ لتقوم بوضع خطة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي وأن تطرح الخطة في مسابقة عامة ، كما اتخذ توصية أخرى من الدورة الرابعة والعشرين .

(١٠) من الذين عارضوا هذه الدعوة الأستاذ أحمد محمد جمال في محاضرة له مطبوعة بعنوان « تاريخنا لم يقرأ بعد ، وأيضا الشيخ عثمان صافي الذي يرى أن طرح الموضوع بهذا العنوان : « إعادة كتابة التاريخ » ينطوي صراحة على تخطئة السلف في كل ما كتبوه ويرى أن إعادة كتابة التاريخ ضرب من الخيال ، انظر مجلة المجتمع الكويتية محرم ١٣٩٥ هـ عدد ٢٣٢ .

الإسلامي[١١] للاستفادة من دراسة التاريخ في مجال التربية والأسوة الحسنة . ولكن يبدو أن هذه الدعوة قد استغلت من بعض الجهات وأريد لها أن تنحرف ، حيث تلقفها بعض الكتاب المنحرفين فكريا ، كالماركسيين ، والقوميين الاشتراكيين ، والعلمانيين ، والمنزلقين في مدارج المستشرقين ، والمنصّرين الذين أرادوا الاستفادة منها في تفسير التاريخ الإسلامي — وفق أفكارهم ودعواتهم المنحرفة[١٢] .

ولقد استهوتني هذه الدعوة فأخذت أبحث عن أسبابها ، وسألت نفسي هل تاريخنا الإسلامي حقا بحاجة إلى « إعادة كتابته » ؟ فعكفت على قراءة الكتب التاريخية القديمة منها والحديثة ، وعندها شعرت بضخامة الانحراف والخطأ الذي وقع فيه كثير من المؤرخين قدامى ومعاصرين ، فالقدامى جمعوا الأخبار صحيحها وسقيمها ، ودونوها في كتبهم وساقوها بأسانيدهم ، وفيهم وفي رواتهم أصحاب ميول وأهواء ، كما أن منهم ثقات وعدول ، ولكنهم في تلك المرحلة من التدوين والجمع للمادة التاريخية — كما قال يحيى ابن معين — إذا كتبت فقمش وإذا حدثت ففتش »[١٣] .

أما الكتاب المعاصرون فقد قاموا بصياغة التاريخ الإسلامي وعرض المادة التاريخية وتفسيرها وفق منظورات ومناهج غير إسلامية ، مع قلة التحقيق العلمي المعتمد على المقاييس الشرعية . إضافة إلى تركيز الكثيرين منهم على إبراز تاريخ الصدر الأول بصورة مشوهة .

---

(١١) انظر سيد قطب ، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٥٥ .

(١٢) قامت مجلة المعرفة التي تصدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسوريا بطرح أسئلة على مجموعة من الباحثين بعنوان إعادة كتابة تاريخنا القومي ، ثم طبعت إجاباتهم وأصدرته في كتاب بعنوان كيف نكتب تاريخنا القومي ؟ في عام ١٩٦٦ م ضمن سلسلة كتب قومية التي تصدر عن وزارة الثقافة السورية . وفي حلقة العمل التي عقدت بجامعة الكويت عام ١٩٧٤ م حضر الدكتور عبدالعزيز الفدا مدير جامعة الرياض آنذاك وقد أجرت معه مجلة المجتمع الكويتية مقابلة في عددها ٢٣٢ حول الموضوع ، وقد أبدى كثيراً من التحفظات على طرح الموضوع بتلك الصورة وقال : إن المشروع ينقصه العلماء المتخصصين في الشريعة .

(١٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ١١ /٨٥ .

فأخذت أبحث عن سبب هذه الانحرافات ، فوجدته يكمن في سوء القصد ، وإرادة التحريف والتشويه عند البعض .

أما البعض الآخر فيكمن انحرافهم في انعدام الالتزام بالأصول المنهجية في الفكر والتصور ، والأصول المنهجية في النقد والتحقيق . وللخروج من هذا الوضع السيء الذي أحاط بكتابة التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً فإنه لابد من القيام بعملين مهمين :

الأول : تحقيق الروايات التاريخية ، وفق الموازين العلمية الدقيقة التي اتبعها العلماء المسلمون في تحقيق الأحاديث النبوية ، مع بعض الاستثناءات - اليسيرة - التي سنشير لها فيما بعد .

والثاني : هو صياغة التاريخ الإسلامي وتعليمه وفق التصور الإسلامي الصحيح ، ووضع أسس ومناهج صحيحة لتدريسه ، منطلقة من العقيدة الصحيحة عقيدة أهل السنة والجماعة ، والفهم السديد والمنهج العلمي الموثق ، وهذا العمل يحتاج إلى رجال مؤمنين بهذه المعاني ، عالمين بأساليب البحث العلمي ، ومزودين بالثقافة التاريخية ، والحس النقدي وفق الموازين الشرعية ، مع الخبرة العملية والمعايشة الطويلة لمصادر هذا التاريخ .

فمن أجل المساهمة في تحقيق هذا المطلب ، وبغية تصحيح التصور الخاطىء عن تاريخنا الإسلامي ، ومواقف رجاله . خاصة جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين وتابعيهم من سلف الأمة ، أهل القرون المفضلة ومن اقتدى بهداهم إلى يوم الدين .

وإقرارا للحق الواجب على القادرين بيانه ، اخترت البحث في هذا الموضوع ، وجعلت عنوانه « منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه » وقد ركزت فيه على بيان الشروط الموضوعية ، والقواعد المنهجية والتصورات العقدية التي تحكم دراسة التاريخ الإسلامي ، وما يشترط فيمن يتولى كتابة التاريخ الإسلامي ، مع بيان المنهج العلمي في النقد والتحقيق .

وقد جاءت خطة الموضوع في مقدمة وبابين وخاتمة . تعرضت في المقدمة إلى أهمية الموضوع وسبب اختياري له .

أما البابُ الأولُ : فقد جعلته مدخلاً لدراسة التاريخ الإسلامي وفيه فصلان :

الفصل الأول : في مفهوم العلمِ ومنهج تلقّيه . وبيّنتُ فيه مفهوم العلم وارتباطَه بمفهومِ العبادة والغاية الأساسية لحياة المسلم ، وأنه لابد من تلقي العلم بمنهج علمي صحيح ، ليؤدي العلمُ ثمرتَه ، كما أوضحت التلازم بين العلم والعمل ، وذكرتُ شيئاً من فهمِ السلف للعلم ، وأثره على حياتهم ، وذكرتُ الضوابطَ اللازمُ مراعاتها فيمن يؤخذ عنه العلم .

أما الفصل الثاني : فهو عن مفهوم التاريخ وثمرة دِراسته .

والباب الثاني : خصصته للحديث عن منهجِ كتابةِ التاريخ الإسلامي وفيه خمسةُ فصول :

الفصل الأول : عن المنهجِ وأهميتِهِ وارتباطِهِ بالعقيدةِ والتصوراتِ التي يؤمنُ بها الشخص ، لأن المنهج أثر من آثار التصور ، وناتجٌ عنه وإن اختلافَ الناسِ في الدراساتِ التي تُعنى بشئون الإنسان وعدم وصولهم إلى نتائج واحدة كما هو الحال في العلوم التطبيقية والرياضية دليلٌ واضحٌ على أنه لابد من التلقي في مناهجِ العلوم الإنسانية عن الله سبحانه وتعالى والرجوع إلى وحيِهِ المنزل على رسلِهِ . وأن اعتبار الوحي الرباني مصدراً وحيداً لضبط العلم والمعرفة أهمُ قضية يجب أن تعيشها البشرية ، إنه لابد أن يكون هناك ميزانٌ واحدٌ لضبط المعرفة حتى تنحسم مادةُ الخلاف . ولا أعدل ولا أكمل من شرع الله وميزانه ، قال تعالى : ﴿ لقد أرسلْنا رُسَلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتابَ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسط ﴾ (١) فالكتابُ الذي جاء به الرسلُ هو الذي يتلقى منه الحقُ والعدل ، ويقام على منهجِهِ القسطُ في الأرض . ومن المعلوم أن التزام الصدقِ وطلبَ الحقِ أمرٌ نفسيٌ خلقي ؛ يقوم على الخشيةِ والخوف من الله ، وابتغاءِ مرضاتِهِ ، وعلى التربيةِ على ذلك ، وليس أمراً فكرياً منهجياً ، ومن ثم يكون معرفةُ الحق والالتزامُ به مرهوناً بالإيمانِ بالله المقتضي للشهادةِ بالقسطِ والعدل . ومِنْ هُنا تَظْهَرُ أهميّةُ علومِ الشريعةِ لعلمِ التاريخ .

والفصل الثاني : تحدثتُ فيه عن مصادرِ منهجِ كتابةِ التاريخِ الإسلامي .

---

(١) الحديد/٢٥ .

والفصل الثالث : أفردته للحديث عن خصائص منهج التاريخ الإسلامي وهي :

١ - التميُّز في التصور والمفاهيم .
٢ - التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق .
٣ - التميُّز في منهج التفسير التاريخي .

ففي الخاصيةِ الأولى تحدثتُ عن نوعين من المفاهيم هما :

= **مفاهيمٌ أساسيةٌ في التصورِ والاعتقاد** : أوضحتُ فيها مجملَ التصورِ الإسلامي عن الإنسانِ والكونِ والحياة ، حيث إن هذه العناصر هي إطارُ الحركةِ التاريخية ومجالُها ، وهي مَفْرَقُ الطريقِ ، وأُسُّ الخلافِ في النظرةِ بين المسلمِ وغير المسلم .

= **ومفاهيمٌ منهجيةٌ في البحثِ العلمي وإثباتِ الحقائق** : وتحدثتُ فيها عن مفهومِ البحثِ العلمي ودورِ العلماء المسلمين في ذلك ، وأيضاً مفهوم البحثِ العلمي عند الأوربيين . ثم تحَدثتُ عن بعضِ المفاهيم المرتبطةِ بذلك مثل الموضوعية والتجرُّدِ والحِياد .

أما الخاصيةُ الثانية : فقد أوضحتُ فيها منهجَ النقد عند علماءِ الحديث . ومنهجَ النقدِ التاريخي عند الأوربيين . وعَقْدتُ مقارنةً بين المنهجين . خرجتُ منها بجملة من النقاطِ من أهمها : أن المنهج الأوربي في البحثِ التاريخي غيرُ صالحٍ للتطبيقِ في التاريخِ الإسلامي ، نظراً للاختلافِ العقدي وفي أصل النظرة للإنسانِ ووظيفته ودورِهِ في الحياة .

أما الخاصيةُ الثالثة : وهي التميزُ في منهج التفسير للحوادث ، فقد ذكرتُ فيها خصائص المنهج الإسلامي في التفسير التاريخي ، وسماته من الواقعيةِ والتوازنِ ، والشمولِ ، والصدقِ ، وصحة التصورِ عن الله والكونِ والإنسان .

كما أشرتُ إلى بعضِ المناهجِ الحديثةِ في التفسيرِ التاريخي مثل التفسير المادي ، والتفسيرِ الحضاري ، والتفسيرِ المثالي ، والتفسيرِ القومي ، والتفسير بِالغريزةِ الجنسية ، ونقدتُ ذلك كلَّه نَقْداً منهجياً .

أما الفصل الرابع : فقد تحدثتُ فيه عن **غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي** ، **وعن وسائل تحقيقه** ، وأنّها تقومُ على ثلاث دعائم هي ١) **التصورُ الصحيحُ المستمدُ من الشريعة** ، ٢) **الرجالُ الأمناءُ المخلصون** ، ٣) **المنهجُ العلميُ السديد** .

أما الفصلُ الخامس : فقد اختص بعرض « **قواعِدِ منهجِ كتابةِ التاريخِ الإسلامي** » التي صُنّفت إلى ثلاثة أقسام :

القسمُ الأول : قواعدٌ في التصورِ والاعتقاد ، وقد ذكرتُ فيه سبعَ قواعد هي :

١ - الإيمانُ بوحِدةِ الأمّةِ الإسلامية ووحِدةِ تاريخها .

٢ - معرفةُ الحكم الشرعي في مخلّفاتِ الأممِ الجاهلية ؛ وقد حاولتُ في هذه القاعدةِ أن أستخرجَ من القرآن الكريم المنهج الصحيحَ في دراسةِ الآثار .

٣ - الفهمُ الصحيحُ للقضاءِ والقدر .

٤ - الإيمانُ بالغيب وأثرُ هذا الإيمان في توجيه الحوادث التاريخيةِ وتفسيرها .

٥ - معرفةُ حقِّ الصحابةِ رضي الله عنهم - وتميُّزُ أهْلِ القرونِ الثلاثة الأولى ، وقد أطلتُ في هذه القاعدة لأهميتها وتعرّضتُ فيها بالدراسةِ لثلاثةِ موضوعاتٍ هي :

أ - تميُّزُ أهلِ القرونِ الثلاثةِ الأولى من الهجرة وأفضليتهُم .

ب - الحقُ الخاصُ لأصحابِ رسول الله ﷺ وعدالتُهم .

جـ - موقفُ المسلم مِن الأخبارِ التاريخية التي فيها قدحٌ لبعضِ الصحابة .

٦ - التفريقُ بين أخطاءِ البشرِ وأحكام الإسلام ، وبيان مصدر التلقي للمفاهيم والنظم الإسلامية .

٧ - الإيمانُ بالسننِ الربانيةِ ، وأهميةُ ذلك في التفسير التاريخي .

والقسم الثاني : « **قواعدُ في المصادرِ** » وذكرت فيه خمس قواعد هي :

١ - اعتمادُ المصادر الشرعيةِ وتقديمُها على كل مصدر .

٢ – عدمُ التسليمِ لكل ما وردَ في الكتب السماوية السابقة للقرآن لأنها مبدلة ومنسوخة .
٣ – معرفةُ شروطِ المؤرخ المقبول .
٤ – معرفةُ حدودِ الأخذِ من كتب أصحاب الأهواءِ من المبتدعةِ والزنادقة .
٥ – معرفةُ ضوابطِ الأخذِ من كتب غير المسلمين .

والقسمُ الثالثُ : « **قواعدُ في الأسلوب والعرض** » وفيه ستُّ قواعد هي :
١ – جَعْلُ العقيدةِ المحورُ الأساسيَّ في العرض .
٢ – التركيزُ في الكتابةِ على الأهدافِ والغاياتِ .
٣ – أن يكون العرضُ موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر .
٤ – إبرازُ دور الأنبياء وأثرهم في تاريخ البشرية .
٥ – تحرّي استعمال المصطلحات الإسلامية .
٦ – الابتعادُ عن أُسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء .

أما الخاتمة فقد بحثت فيها موضوعين هما :
١ – تعليقة موجزة عن عوامل الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي ، وأهم الطوائف المساهمة في ذلك .
٢ – نتائج البحث ، هذا وقد ألحقت بالبحث نصوصاً تمثل بعض الانحرافات التي أشرت إليها في الخاتمة .

ولقد عانيت من قلة المصادر[١٤] في بحث هذا الموضوع ، لأنه من الأبحاث الجديدة التي لم تبحث عند العلماء السابقين ، وإنما شعر الباحثون

---

(١٤) هناك بعض الدراسات ولكنها لم تطرق موضوع المنهج بشكل متكامل ، وإنما هي أبحاث أولية ودراسات مقتضبة وسريعة ، وفيها مقترحات وأفكار جيدة . مثل :
– عبدالرحمن الحجي . نظرات في دراسة التاريخ .
– عبدالحميد صديقي ، تفسير التاريخ .
– عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ .
– أكرم ضياء العمري ، إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام .
كما توجد بعض الدراسات التطبيقية مثل :

المحدثون بالحاجة إليه مدونة مسائله، ومجموعة قواعده في بحث متكامل بعد أن رأوا الانحرافات الخطيرة في كتابة التاريخ الإسلامي نتيجة تقليدها للمناهج الأوربية في بحث التاريخ وكتابته وتفسيره.

إن ما وجدته يتمثل في اقتراحات وملاحظات يسيرة وضعها بعض الباحثين في مقدمات كتبهم وقد أفدت من بعضها.

ولكني ولله الحمد رجعت إلى القرآن الكريم والسنة المشرفة لأنهما المرجع الأصيل لهذا المنهج، وحاولت التعرف من خلال نصوصهما على هذا المنهج وضوابطه وغاياته ووسائله. ووجدت والحمد لله بغيتي.

وبعد: فإني أشكر الله سبحانه وتعالى وأحمده، وأثني عليه الثناء كله، على ما أولاني من نعمه الكثيرة المتجددة، ومنها إتمام هذا البحث، وإني أسأله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم وأن لا يحرمني ثوابه.

وما كان في هذا البحث من صواب فهو من توفيق الله وحده، وأحمد الله على ذلك، وما كان فيه من خطأ فهو من نفسي، واستغفر الله من ذلك.

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مكة المكرمة

٢٦ ربيع الأول ١٤٠٤ هـ

المؤلف

= - أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

- محمد صادق عرجون، عثمان بن عفان، وخالد بن الوليد.

- الدكتور جمال عبدالهادي، الجزيرة مند أقدم العصور، تاريخ مصر والعراق، تاريخ الرومان، تاريخ اليونان.

الباب الأول
مدخل لدراسة التاريخ الإسلامي

الفصل الأول : مفهوم العلم ومنهج التلقي

الفصل الثاني : مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

الباب الأول
مدخل لدراسة التاريخ الإسلامي

من المفاهيم ذات الصلة المباشرة بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي

- مفهوم العلم ومنهج تلقيه ..
- مفهوم التاريخ وثمرة دراسته ..

وذلك أن المنهج الإسلامي في الدراسة والبحث يرتبط بالمقاصد والغايات .. « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى »[١] .. الحديث

فهو منهج جدي عملي ، بعيد كل البعد عن الترف العقلي ، أو التلقي الذهني المجرد عن الواقع .

فكل عمل أو حركة لا يستفاد منها في واقع الحياة الإسلامية أو ليست وسيلة إلى ما فيه فائدة لحياة المسلم في دنياه أو آخرته ، فإن بحثها يعتبر ترفا ، بل لعلّه من العمل الضائع ، الذي لا يثاب عليه صاحبه .. والإنسان معروض للمساءلة « عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ماذا عمل به »[٢] .

والمسلم يربأ بنفسه عن تبديد طاقاته ، وضياع أوقاته ومواهبه فيما لا يعود عليه بالخير . ولا ريب أن من منهج الإسلام العمل على استثمار الطاقات وتجميعها ، وتنمية المواهب ، واستخدامها فيما يعود بالنفع على الإنسان في ذاته أو على مجتمعه .

ولذا سنبحث كل مفهوم من هذين المفهومين في فصل مستقل نمهد بهما ونجعلهما مدخلاً بين يدي البحث في منهج كتابة التاريخ الإسلامي .

---

(١) رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب أول حديث في كتاب الوحي ١ /٢ .

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . انظر جامع الترمذي ٤ /٦١٢ . وجامع الأصول ١٠ /٤٣٦ و٤٣٧ .

الفصـــل الأول
مفهـوم العلـم ومنهـج تلقيـه

مفهوم العلم ومحتواه :

العلم ضد الجهل ، وقد وقع خلاف طويل في وضع « حد »[١] له كما يقول الزبيدي[٢] . حتى قال جماعة إنه لا يحد ، لظهوره وكونه من الضروريات . وقيل لصعوبته وعسره .

والعلم من وجه ضربان . نظري وعملي . فالنظري : هو الذي إذا علم فقد كمل ، نحو العلم بموجودات العالم .

والعملي : هو الذي لا يتم حتى يعمل به[٣] كالعلم بالعبادات وكافة الأوامر الشرعية .

والعلم من وجه آخر ، شرعي وغير شرعي . وإذا ورد مطلقا في الكتاب أو السنة فإنما يراد به العلم الشرعي ، مثل قوله تعالى ﴿ يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٤] وقوله تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[٥] ومثل قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم »[٦] وقوله فيما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – قال : سمعت

---

(١) أي تعريف .

(٢) الزبيدي هو محمد بن محمد بن مرتضى ، لغوي محدث كثير التصانيف من أجودها : تاج العروس شرح القاموس ، توفى سنة ١٢٠٥ هـ . انظر الأعلام للزركلي ٨ /٧٠ .

(٣) الزبيدي ، تاج العروس ٨ /٤٠٥ .

(٤) سورة المجادلة آية : ١١ .

(٥) سورة الزمر آية : ٩ .

(٦) حديث حسن رواه ابن ماجه رقم ٢٢٤ ، وانظر شرح السنة للبغوي ١ /٢٩٠ .

رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة »(٧) .

فلفظ العلم في هذه الآيات والأحاديث يراد به العلم الشرعي(٨) ، أو ما يكون خادما وموصلا للعلم الشرعي كعلم العربية . والعلم قد يكون نافعا ، وقد يكون ضارا . كما قد يكون حقا ، وقد يكون باطلا .. فالذي يرد في القرآن الكريم أو السنة النبوية أو في كلام السلف في سياق المدح والحث على طلبه هو العلم الشرعي ، والعلم النافع ، والعلم الحق . أما غير ذلك فقد يكون ضارا ، أو غير نافع لأصحابه عند الله تعالى . قال تعالى ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ﴾(٩) .. الآية . وقال تعالى ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾(١٠) ، وقال تعالى : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾(١١) .. الآية . فقد أثبت الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة أن عندهم علما ولكنه لم ينفعهم . ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول « اللهم إني أسألك علما نافعا ، ورزقا طيبا ، وعملا متقبلا »(١٢) وكان يقول في دعائه « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »(١٣) .

فالعلم الذي يطلب من العبد تعلمه سواء على سبيل الوجوب أم الاستحباب هو العلم النافع ، الذي يوصل إلى الحق ، ويبعد عن الضلال والباطل .

---

(٧) جزء من حديث رواه مسلم رقم ٣٦٩٩ ص ٤ /٢٠٧٤ .

(٨) يراجع في هذا . ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ، باب معرفة أصول العلم وحقيقته وما الذي يقع عليه اسم الفقه والعلم مطلقا .

(٩) سورة النجم آية : ٢٩ و٣٠ .

(١٠) سورة الروم آية : ٧ .

(١١) سورة غافر آية : ٨٣ .

(١٢) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ص ٢١٥ ويشهد له الحديث الذي بعده .

(١٣) رواه مسلم . انظر الصحيح ٤ /٢٠٨٨ .

وأشرف العلم ما كان دالا على الله سبحانه وتعالى ، وموصلا إلى معرفته وتوحيده يقول الإمام ابن القيم[١٤] « إن العبد لو عرف كلَّ شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئا ، ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ، ولذاتها ، وشهواتها ، ولم يظفر بمحبة الله والشوق إليه والأنس به فكأنه لم يظفر بلذة ، ولا نعيم ، ولا قرة عين »[١٥] .

والعلم النافع هو الذي يتوسل به إلى عبادة الله – سبحانه وتعالى ، حسب مفهوم العبادة الشامل كما وضحه قوله تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[١٦] .

فالعبادة حسب المفهوم القرآني منهج حياة كامل شامل[١٧] . فهي تشمل إلى جانب شعائر التعبد من الصلاة والصيام والذبح لله ، الحياة كلها بل والممات. وقد جعلها الله– سبحانه وتعالى – الغاية من خلقه للجن والإنس ، فقال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[١٨] وقال تعالى ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ﴾[١٩] .

فالعلم إذا لم يكن مؤديا إلى هذه الغاية في وسائله وأهدافه ونتائجه لا يعتبر علما نافعا . بل إذا اجتمع في العلم خير وشر ولم يمكن حصول الخير إلا بوجود الشر فإنه يُغلَّب جانب الحظر والمنع ، عملا بالقاعدة الشرعية الأصولية ﴿ درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ﴾[٢٠] .

---

(١٤) هو شمس الدين محمد بن أبي بكر ، إمام معروف له مصنفات نافعة منها إعلام الموقعين وزاد المعاد وإغاثة اللهفان . توفى بدمشق سنة ٧٥١ هـ .

(١٥) ابن القيم ، إغاثة اللهفان ١ /٦٨ .

(١٦) سورة الأنعام آية ١٦٣ .

(١٧) عرف شيخ الإسلام ابن تيميه العبادة بقوله « هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، انظر رسالة العبودية له ص ٣٨ .

(١٨) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(١٩) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢٠) لبعض الفقهاء تفصيل في هذه القضية وهو أنه إذا اجتمع الخير والشر وكان الشر غالبا فهنا يقدم المنع ، أما إذا كان الخير غالبا فإنه يتساهل في الأمر ، عملا بقاعدة الموازنة بين المصالح والمفاسد » انظر العز بن عبدالسلام ، **قواعد الأحكام** ١ /٨٣ ، والآمدي ، **الأحكام في أصول الأحكام ٣ /٢٧٤** .

وإذا كان العلم في ذاته غير ضار لكنه يكون وسيلة إلى محظور وممنوع شرعا فإنه يترك لكونه يؤول إلى محرم شرعا ، والوسائل تأخذ حكم الغايات . وقاعدة سد الذرائع من قواعد الشريعة الواجبة الإعمال في مثل هذه المواطن .

فإذا تقرر أن الغاية الأساسية لحياة المسلم هي تحقيق العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى – وذلك بإقامة منهجه في الأرض ، وتحكيم شريعته كما هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله[٢١] محمد رسول الله ، فإن كل علم يؤدي إلى هذه الغاية ويتعلم بهذا الهدف هو علم مطلوب وواجب على الأمة تعلمه ، وجوب كفاية ، وقد يكون منه ما هو واجب عيني كمعرفة التوحيد وأحكام العبادة . والأمة تأثم بعمومها إذا لم يتوفر العدد الكافي من أبنائها لسد حاجاتها من المتخصصين في أي فرع من فروع العلم اللازم لها .

وينبغي الانتباه إلى أن فساد المنهج الذي يتلقى به العلم يؤدي إلى فساد الثمرة المرجوة من العلم . فلابد من استقامة المنهج العلمي لكي نحصل على ثمرة العلم وفائدته . وهذا أمر واضح في كثير من الدراسات التاريخية المعاصرة ، بسبب تشويه المنهج العلمي فيها ، أو بسبب سوء القصد في القائمين عليها ، أو بسبب الجهل بالشريعة .

لذا يجب على طالب العلم اتباع المنهج العلمي السديد ، الذي يؤدي إلى الثمرة المطلوبة من العلم ، وهذا يحصل بإخلاص النية والقصد لله – سبحانه وتعالى – وابتغاء مرضاته ، وبتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ ، قال الفضيل بن عياض[٢٢] في معنى قوله تعالى ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[٢٣] أخلصه وأصوبه ، فإن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم

---

(٢١) للاستزادة في مفهوم العبادة ، انظر ابن تيميه ، **العبودية** ص ٣٨ – ٥٠ ، وسيد قطب ، **معالم في الطريق** ، فصل لا إله إلا الله منهج حياة ص ٨٣ – ٩٦ .

(٢٢) هو فضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي من سادات التابعين ورعا زاهدا عابدا جاور بمكة حتى توفى سنة ١٨٧ خرَّج حديثه البخاري ومسلم وغيرهما . « انظر ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٨ /٢٩٤ .

(٢٣) سورة تبارك آية : ٢ .

يقبل . وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة »[٢٤] وعلى هذا دل قوله تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[٢٥] وقوله ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٢٦] .

وذلك أن طلب العلم النافع عبادة من العبادات ، وقربة من القرب التي يتقرب بها العبد من ربه .

وهناك تلازم بين العلم والعمل . فالعلم لازم لصحة العمل ، والعمل لازم للحصول على ثمرة العلم . قال تعالى ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾[٢٧] .

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله على هذه الآية في صحيحه بقوله « باب العلم قبل القول والعمل »[٢٨] فالعلاقة بين العلم والعمل في القرآن الكريم وثيقة جدا ، كما أن لفظة العلم في القرآن والسنة ليست قاصرة على مجرد العلم بمعنى المعرفة . بل تشمل العلم والعمل معا . كما قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماءُ ﴾[٢٩] وليس المقصود بالعلماء هنا أولئك الذين يعلمون لمجرد المعرفة ولا يعملون ، بل الذين عملوا بما علموا . وما الخشية التي حصلت لهم إلا ثمرة العمل بالعلم .

يقول الدكتور محمد أمين المصري « إن شأن العلم أن يستلزم الإيمان ، والإيمان يستلزم العمل ، فإن لم يكن هنالك عمل كان العلم ناقصا ، وكان

---

(٢٤) ابن تيمية ، شرح حديث إنما الأعمال بالنيات ص ١٢ . ضمن مجموعة الرسائل الكمالية ، المجلد الثاني حديث .

(٢٥) سورة لقمان آية ٢٢ .

(٢٦) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٢٧) سورة محمد آية : ١٩ .

(٢٨) الجامع الصحيح : كتاب العلم باب رقم (١٠) انظر ١ /١٥٩ من فتح الباري .

(٢٩) سورة فاطر آية ٢٨ .

الإيمان مختلاً ، فلقد ذم الله – سبحانه وتعالى – الذين لا يعملون بعلمهم فقال ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً.. ﴾(٣٠) فالآية تعطي صورة حية ناطقة لمن لا يعمل بعلمه ، وتشير إلى أن من العلم ما يخالط القلب ، ويمازج أجزاء النفس ، ومنه نوع يدخل إلى النفس لكنه لا يؤثر فيها ، ولا يتأثر بها ، بل يبقى كسقط المتاع في زاوية من زوايا النفس . وهذا أكبر من الجهل لأن صاحبه يخدع الناظر إليه ، ويخدع نفسه فهو في ثوب العلماء ، ونفسه تنطوي على جهالة عمياء » (٣١) .

وقد ذم رسول الله ﷺ الذي يطلب العلم لغير العمل به كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ « من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف(٣٢) الجنة يوم القيامة »(٣٣) فكل سعي المسلم يجب أن يبتغي به وجه الله حتى لا يكون يوم القيامة هباء منثورا كعمل الكفار الذين لا يؤمنون بالله .

ولقد جاءت النصوص الكثيرة المنقولة عن الصحابة – رضي الله عنهم – وغيرهم من علماء السلف في الربط بين العلم والعمل ، وأن العلم يقتضي العمل ،(٣٤) وذلك منهج من مناهج حياتهم .

ولهذا كان فهم السلف « للعلم » فهما يتميز بالشمول ، ويقترن بحاجات الأمة ومصالحها ، ولم يكن أخذهم للعلم للتزين والتجمل به ، أو الأخذ الترفي المفصول عن الواقع ، أو التلقي الذهني البارد المجرد عن العمل

---

(٣٠) سورة الجمعة آية ٥ .

(٣١) محمد أمين المصري ، المجتمع الإسلامي ص ٧٨ .

(٣٢) عرف الجنة : أي ريحها .

(٣٣) رواه الخطيب البغدادي في كتاب « اقتضاء العلم العمل » ص ٦٥ وصححه الألباني وقال أخرجه أحمد في المسند ، والحاكم في المستدرك وصححه .

(٣٤) كتب الخطيب البغدادي كتابا لطيفا بعنوان « اقتضاء العلم العمل » جمع فيه الآثار المروية عن الصحابة والسلف الصالح في هذا المعنى .

كما كتب الحافظ ابن رجب الحنبلي رسالة جيدة بعنوان فضل علم السلف على الخلف ذكر فيها كثيرا من الآثار حول هذا الموضوع .

والحركة ، بل كان متسقا مع آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٣٥) وقوله ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾(٣٦) وقوله ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾(٣٧) وقوله تعالى ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾(٣٨) .

فالله يدعونا في هذه الآيات وغيرها إلى السير في الأرض وعمارتها ، وإلى النظر فيها نظر تدبر وتفكر ، يؤثر في النفس وتنعكس آثاره في السلوك . ولم تفصل الآيات بين العلم والعمل ، ولا بين الدنيا والآخرة ، وإنما كل ذلك ينبغي أن يعتني به ويعمل له ، شريطة أن يكون وفق منهج الله وشريعته ، لأن هذا هو مقتضى شرط الاستخلاف الذي أعطى لأبينا آدم – عليه السلام – ولذريته من بعده . وهو عبادة الله وحده لا شريك له وتلقي الهدى منه .

والعلم لا خير فيه إن لم ينبني عليه سلوك مستقيم ، ويورث في النفس عملاً صالحاً. يقول عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – « إن الناس أحسنوا القول كلهم فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه ، ومن خالف قوله فإنما يوبخ نفسه »(٣٩) ، وقال أبو إسحاق الشاطبي(٤٠) بعد أن ساق قول ابن مسعود الآنف وغيره من أقوال السلف : « والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن

---

(٣٥) سورة تبارك آية : ١٥ .
(٣٦) سورة العنكبوت آية : ٢٠ .
(٣٧) سورة يونس آية : ١٠١ .
(٣٨) سورة هود آية ٦١ .

(٣٩) الشاطبي ، الموافقات ١ /٦٥ .
(٤٠) هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي القرناطي ، الشهير بالشاطبي ، عالم أصولي ، حافظ من أهل غرناطة ، له مصنفات أشهرها الاعتصام ، والموافقات ، كانت وفاته سنة ٧٩٠ هـ « انظر الأعلام للزركلي ١ /٧٥ .

تحصى . وكل ذلك يحقق أن العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصودا بنفسه من حيث النظر الشرعي ، وإنما هو وسيلة إلى العمل وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به »[٤١] ، وقال الحسن البصري[٤٢] في معنى قوله تعالى ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾[٤٣] علمتم فعلمتم ولم تعملوا فوالله ما ذلكم بعلم »[٤٤] .

وقال سفيان الثوري[٤٥] « العلم يهتف بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل »[٤٦] ، وقال الفضيل بن عياض « لايزال العالم جاهلا بما علم حتى يعمل به ، فإذا عمل به كان عالما »[٤٧] وبهذا يتضح بطلان المنهج الجاهلي القائم على قاعدة « العلم للعلم » و « الأدب للأدب » و « الفن للفن » ونحوها . والتي تعني تجريد العلم عن العقيدة والتصور ، وتفصله عن العمل والثمرة ، وترسم للبحث العلمي دائرة مستقلة لا دخل للعقيدة والدين أو الغايات النبيلة فيها . مع أن هذه العبارة خاطئة من الناحية الواقعية إذ لا يمكن للإنسان أن يعمل شيئا إلا وهو مدفوع بغرض معين خارج عن مجرد العمل .

وفي ظل هذا المنهج لا حرج على الإنسان أن يتعلم ، أو يبحث في أي شيء ، ولو كان حراما ضارا ، أو عقيما لا خير فيه ولا غاية سامية له .

وقد نشأ هذا المنهج في ظروف تاريخية خاصة بأوربا الشاردة ، من طغيان الكنيسة ورجالها الذين كانوا يفرضون على الناس اعتقاد ما يملونه عليهم

---

(٤١) الشاطبي ، الموافقات ١ /٥ ، ٦ .

(٤٢) هو الحسن بن أبي الحسن البصري ، نشأ بالمدينة ، وحفظ القرآن وسمع عثمان يخطب مرارا ، ولازم الجهاد والعلم والعمل ، وكان من الشجعان الموصوفين . ومن العباد المشهورين توفى سنة ١١٠ عن ثمان وثمانين سنة الذهبي تذكرة الحفاظ ١ /٧١ .

(٤٣) سورة الأنعام آية : ٩١ .

(٤٤) الشاطبي الموافقات ١ /٧٥ .

(٤٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق إمام حافظ ثقة فقيه ولد سنة ٩٧ هـ وتوفي سنة ١٦١ هـ « انظر تذكرة الحفاظ ١ /٢٠٣ .

(٤٦) الشاطبي ، الموافقات ١ /٧٥ .

(٤٧) الخطيب البغدادي ، اقتضاء العلم العمل ص ٣٧ .

من الخرافات والتأويلات المحرفة ، ويعاقبون كل من وصل إلى نظرية مخالفة أشد العقاب ، وإن كانت حقا في ذاتها ، أو مما جعل الله تعالى شأنه موكولا إلى الجهد البشري والتجربة البشرية .

ضوابط منهج العلم

في المبحث السابق حاولنا تحديد مفهوم العلم في الشريعة الإسلامية ، والتعرف على بعض الشرائط الواجب ملاحظتها ليكون العلم نافعا ومفيدا . وفي ظل هذا المفهوم للعلم نحاول تحديد الضوابط التي يتقيد بها المنهج العلمي .

والمصدر الأول للمعرفة في التصور الإسلامي هو الوحي الذي يبلغه الله لرسول من رسله . فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران اللذان يرجع إليهما في ضبط الموازين والقيم ومعرفة الحق من الباطل والحكم على معطيات العلوم ونتائجها . نقلية كانت أم عقلية . فهما مصدر الحق في هذا الوجود . قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(٤٨) وقال تعالى ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾(٤٩) ، وقال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾(٥٠) .

فالوحي الرباني هو المصدر المأمون ، الذي يتميز بالثبات والشمول ، ويقدم التفسير الشامل للحياة والكون والإنسان وحقيقة الألوهية والعبودية ، لأنه كلام رب العالمين العليم الخبير ، المطلع على كل شيء ، والمبرأ مما يعتري البشر من القصور والظلم والجهل وسوء الفهم والارتباط بالمصلحة وبالبيئة التي نشأ فيها ، والتربية التي تلقاها والمفاهيم والتصورات المتوارثة .

فهو الله سبحانه الخالق لكل الخلق وهو أعلم بهم وبما يصلحهم . وقد وضح هذا المنهج في كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ .

---

(٤٨) سورة فصلت آية : ٤١ – ٤٢ .

(٤٩) سورة الإسراء : آية ٩ .   (٥٠) سورة النحل آية : ٨٩ .

فما دام الوحي بهذه الصفة من التكامل والشمول والعدالة . فإنه لابد للمسلم أن يتخذه منهجا وميزانا ، يزن به القيم والأحداث ، ويضبط به التصورات والمفاهيم ، ويتخذه حكما في هذه القضايا يرجع لحكمه ويتلقى منه .

فلقد وضع الإسلام ضوابط لمنهج العلم وتلقيه ، كما وضع ضوابط لأدوات العلم والمعرفة . فالعقل والسمع والبصر أدوات زود الله بها الإنسان ليحصل عن طريقها على المعرفة . فهي أدوات لا مصادر مستقلة للمعرفة . واعتبار أن الوحي الرباني هو المصدر الذي يرجع له لضبط المعرفة ، هو أهم قضية عاشتها الإنسانية . وبسبب الاختلاف فيها وقعت البشرية في حيرة واضطراب ، واختلاف شديد .

ولو اتفقت البشرية على ميزان موحد لضبط العلم والمعرفة لما وقع بينها هذا التباين الشديد في الاتجاهات والمناهج والمذاهب التي لا توجد بين أغلبها قواسم مشتركة أو نقاط التقاء .

وإلا فوقوع الاختلاف من طبائع البشر تبعا لاختلاف المفاهيم والقدرات حتى داخل المذهب الواحد .

والبشرية إذا لم يكن لها منهج موحد ترجع له عند الاختلاف ، وتزن مفاهيمها ونتائج أبحاثها بميزانه ، فإنها ستختلف ويشتد اختلافها . فمثلا في المجال التاريخي نجد أن الروايات والمصادر تتفق على حدث تاريخي معين رغم اختلاف أديان أو مذاهب الرواة . لكنها لا تتفق في تفسير هذا الحدث وفلسفته . لأنه في رواية الخبر التاريخي وتدوينه ينقل الراوي ما شاهد أو ما سمع وتتفق الروايات إذا كان الرواة صادقين ، أما في فلسفة هذا الخبر وتحليله فإن كل شخص يأتي بتفسير بناء على مفاهيمه وعقيدته وبيئته التي تربى فيها . فإذا لم يكن هناك مصدر موحد يرجع له في ضبط المفاهيم والأحكام والتفسيرات فستبقى البشرية في اختلاف شديد .

وأشد أنواع الاختلاف اختلاف المناهج والتصورات والقيم ، وإن الاهتداء بهدى الكتاب والسنة في منهج الكتابة التاريخية يعود على البحث والباحث بكثير من الفوائد .

- فإنه يورث للباحث جدية في العمل ، وصفاء في الفكر ، واهتماما بالكليات والأصول ، ويبعده عن الإغراق في الجزئيات والفروع التي تستغرق جهدا كبيرا ووقتا طويلا في مناقشات قد لا تكون ذات قيمة .

- كما أنه يوجِّه الطاقات والقوى إلى جذور القضايا ، وأمهات المسائل وبشكل حاسم . ويتضح ذلك فيما قصه القرآن الكريم من تاريخ الرسل والأمم السابقة – كما أن من ثمرات ذلك النظر في سنن الله في الأنفس والآفاق ، والتأمل في أحوال الأمم عبر التاريخ ، وما وصلت إليه من الرخاء والتقدم ، وما انتهت إليه مصائرها ، وأسباب ذلك التقدم وعوامل هذا الانهيار ، قال تعالى ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(٥١) وقال تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمّر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾(٥٢) وقال ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(٥٣) .

- ومن ثمرات ذلك أن يكون سعي الإنسان في طلب الأحسن والأقوم ، والأخذ به هو هدفه ورائده ، كما قال تعالى ﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾(٥٤) .

- ومن نتائج ذلك اهتمام الباحث بالقضايا الكبرى للأمة ، وأن يعمل جهده فيما يؤدي إلى رقيها وتقدمها ، وبذلك تكون أبحاثه ودراساته مما يمس واقع الأمة واحتياجاتها الفعلية ، وهذا أمر حيوي ولا غنى للباحث عن مثل هذه الدراسات ، وإلا كانت أبحاثه من باب الترف العلمي المجرد الذي يستهدف إشباع غريزة حب الاستطلاع وحب الظهور .

- كما أن الاستمداد من المصدر الرباني يؤدي بالإنسان إلى الابتعاد عن الظنون

---

(٥١) سورة الأنعام آية : ١١ .
(٥٢) سورة محمد آية : ١٠ .
(٥٣) سورة آل عمران آية : ١٣٧
(٥٤) سورة الزمر آية : ١٨ .

والأوهام ، وتخليص الفكر من كل المبادئ والمعتقدات التي قامت على الظن أو التقليد ، وعلى الأفكار والتصورات الجاهلية .

- أضف إلى هذا ما يوفره الاعتماد على الكتاب والسنة من الابتعاد عن مصطلحات المتكلمين ومذاهبهم المختلفة ، وكافة المصطلحات الأجنبية ذات المفاهيم المرتبطة بالوضع التاريخي المحلي الغريب عن تاريخنا . وذات المعاني غير المنضبطة والتي تحجب الرؤية الصحيحة عن القارئ .

فمصطلحات مثل الديمقراطية ، الاشتراكية ، الإنسانية ، المساواة ، الحرية الوطنية لها دلالات ومفاهيم مرتبطة بقيم وتصورات المجتمع الذي نشأت فيه(٥٥) . ونقْلها إلى ثقافتنا الإسلامية وتاريخنا يعطي أحكاماً مضللة . والمؤرخ ينبغي له أن يسمي الأشياء تسمياتها الحقيقية وأن يحكم عليها حسب الميزان الشرعي .

وكما أن المنهج الإسلامي قد وضع ضوابط لمنهج تلقي العلم ولوسائل التلقي ، فإنه أيضا وضع ضوابط محددة في من نتلقى منه العلم .

ممن يؤخذ العلم :

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن محمد بن سيرين(٥٦) قال « إن هذا

---

(٥٥) فمثلا مصطلح « الديمقراطية » من المصطلحات الأوربية ، التي شاعت على ألسنة كثير من الكتاب والمؤلفين ، ويستعملونها في زعمهم على ما تدل عليه لفظة الشورى ، بينما لو نظرنا لتاريخ هذا المصطلح الذي حملوه واستعملوه بدلا من الشورى لتبين لنا بعد ما بينهما .
يقول الكاتب الانجليزي « برتراند رسل » الديمقراطية كانت تعني حكم الأغلبية ، مع نصيب قليل غير محدد المعالم من الحرية الشخصية ، ثم أصبحت تعني أهداف الحزب السياسي ، الذي يمثل مصالح الفقراء على أساس أن الفقراء في كل مكان هم الأغلبية . وفي المرحلة التالية أصبحت تمثل أهداف زعماء الحزب . وها هي الآن في أوربا الشرقية وجزء كبير من آسيا يصبح معناها الحكم المستبد لمن كانوا يوما ما نصراء للفقراء وأصبحوا اليوم ينصرون نصرتهم هذه للفقراء على إيقاع الخراب بالأغنياء ، إلا إذا كان الأغنياء من الديمقراطية بالمعنى الجديد » العقل والمادة ص ٢٤١ - ٢٤٢ .
(٥٦) هو الإمام الرباني محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك ولد في خلافة عثمان بن عفان وسمع جمعا من الصحابة ، كان فقيها إماما غزير العلم ثقة ثبتا علامة في التعبير – أي تعبير الرؤيا ، رأساً في الورع ، كانت وفاته بعد وفاة الحسن البصري بوقت يسير في سنة ١١٠ هـ » الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ /٧٧ » .

العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم »(٥٧) فنظرة المسلم إلى العلم على أنه عبادة من العبادات توجب عليه الاحتياطَ والتثبت في تلقي العلم ، وأن لا يأخذ إلا عن الثقات في دينهم وعقيدتهم ، خاصة فيما يختص بحقائق العقيدة ، أو التصور العام للوجود ، أو بالخلق والسلوك ، أو القيم والموازين ، أو النظم الإسلامية أو ما يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني أو بحركة تاريخية . فلا يجوز للمسلم أن يتلقى العلم في هذه الأمور إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه .

أما غير المسلم فلا يؤخذ عنه العلم في هذه الأمور ، بل لقد حذرنا الله أشد التحذير عن الأخذ والتلقي من الكفار بكافة طوائفهم ومللهم ، وبين لنا مصدر الهدى الذي نتلقى منه ، فقال تعالى ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾(٥٨) .

وقال تعالى ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾(٥٩) .

وقال تعالى : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(٦٠) .

وقال تعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾(٦١) .

وقال تعالى : ﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾(٦٢) .

---

(٥٧) صحيح مسلم بشرح النووي ١ /٨٤ .
(٥٨) سورة البقرة آية : ١٢٠ .
(٥٩) سورة البقرة آية : ١٠٩ .
(٦٠) سورة البقرة آية : ١٠٥ .
(٦١) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٦٢) سورة آل عمران آية ٦٩ .

فهذه الآيات إخبار من الله تعالى عن موقف الكفار من الأمة الإسلامية ، وتحذير لنا من الركون إليهم أو حتى إحسان الظن بمواقفهم تجاهنا ، بل إنها تستجيش فينا مشاعر الحمية للحق ، وتوقظ قلوبنا وتدعوها للحذر الشديد أثناء التعامل معهم ، وعدم الطمأنينة لهم ، وهذا هو مقتضى الولاء والبراء الذي قال عنه رسول الله ﷺ « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »(٦٣) .

وموقف الكفار هذا من المسلمين لم يكن في فترة تاريخية من الزمن ثم تنتهي ، بل هو موقف ثابت دائم ماداموا على الكفر ومادمنا على الإسلام . كما هو دلالة الآيات السابقة ، ودلالة الوقائع التاريخية عبر الزمن المتطاول منذ أن كان هناك كفر وإيمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. لأن من طبيعة الفسق أنه لا يقبل بوجود الحق ، ولا يستطيع المعايشة معه كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن ءامنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾(٦٤) فطالما أن هذا هو موقفهم ، وهذه هي توجهاتهم نحو الأمة المسلمة ، فإن كل مسلم عاقل يحترم عقله ودينه لا يقبل التلقي منهم في أصول عقيدته ، ولا مقومات تصوره ، ولا منهج تاريخه ، ولا نظام حكمه أو سياسته أو مجتمعه وعاداته وتقاليده .(٦٥)

يقول وليم جيفور بالكراف « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه »(٦٦) ويقول المبشر تكلى ما ترجمة نصه « يجب أن نشجع

---

(٦٣) رواه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص ٤٩ وقال الألباني حديث حسن أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك .

(٦٤) سورة المائدة آية ٥٩ .

(٦٥) بل لقد بحث العلماء حكم السفر إلى بلد المشركين ، والإقامة بينهم ، فضلا عن التلقي والأخذ عنهم ، ولهم قيود على ذلك موضحة في مظانها « انظر على سبيل المثال ، رسالة الشيخ سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب « حكم موالاة أهل الإشراك ، وحكم السفر إلى بلاد الشرك ص ٣٧٧ - ٣٩٣ منشورة ضمن مجموعة التوحيد . وانظر أيضاً كتاب « الولاء والبراء في الإسلام » تأليف محمد سعيد القحطاني فإنه مهم في هذا الموضوع .

(٦٦) أ - ل شاتليه - الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٤ ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي .

إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي . و إن كثيرين من المسلمين تزعزع اعتقادهم حين تعلموا اللغة الإنجليزية(٦٧) ، وإن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس - يعني القرآن - أمرا صعبا »(٦٨) فهذه نماذج من شهاداتهم ، وخططهم التي يعدونها لإخراج المسلمين عن دينهم ، فهل يحق لنا بعد هذا أن نأخذ عنهم ونثق فيهم ؟؟!!!

ثم هم جهلاء ، لا علم عندهم في هذه الأمور التي ذكرناها ، وذلك بشهادة الله رب العالمين ، وتقريره ذلك في كتابه العزيز ، قال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى . إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾(٦٩) فيقرر - سبحانه وتعالى - في هذه الآية(٧٠) أن الذين لا يستجيبون للحق هم عمي ، وأنهم لا يتفكرون ولا يعقلون ، وأن الذين يستجيبون له هم أولوا الألباب ، الذين اطمأنت قلوبهم بذكر الله .

وإن الإنسان ليجد مصداق ذلك في كل من يلقاه من الناس معرضا عن هذا الحق . وإذا كان الذين لا يؤمنون بهذا الحق عميا كما قرر الباري - جل جلاله - فإنه لا ينبغي للمسلم أن يتلقى العلم ويأخذه عن مَنْ هذه صفته ، وبخاصة إذا كان ذلك العلم متعلقا بالنظام الذي يحكم حياة الإنسان ، أو القيم والموازين التي تقوم عليها الحياة . أو بالسلوك والتقاليد والآداب التي تسود المجتمع المسلم . وهذا هو موقف المسلم من نتاج الفكر غير الإسلامي بجملته فيما عدا العلوم المادية البحتة وتطبيقاتها العملية . وإنه لا ينبغي لمسلم يعرف هدى الله ، ويعرف الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ، أن يقعد مقعد التلميذ الذي يتلقى من إنسان لم يستجب لهذا الهدى ولم يعلم أنه الحق . وأن هذا الدين جِدٌّ لا

---

(٦٧) تعلم اللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات بقصد معرفتها لا يوصل إلى هذه النتيجة ، إلا إذا كان تعليمها موجها لهذا القصد ، وهذا هو الحاصل في أغلب معاهد تعليم اللغات والكتب الخاصة بتعليمها حتى في مدارس المسلمين مع الأسف .

(٦٨) محمد أمين المصري ، المجتمع الإسلامي ص ٨٦ .

(٦٩) سورة الرعد آية : ١٩ .

(٧٠) راجع تفسيرها في تفسير القرآن الكريم لابن كثير ٤ /٣٧١ - ٣٧٢ ، وانظر الظلال ٤ /٢٠٧٤ .

يحتمل الهزل ، وحزم لا يحتمل التميع ، وحق في كل نص فيه وفي كل كلمة[٧١] .

وهذه الضوابط لمنهج العلم وكيفية تلقيه ، وفي من يتلقى منه العلم ، توجب علينا الإشارة إلى بعض أهداف تعلم العلم ، والوسائل المؤدية إلى ذلك .

أهداف تلقي العلم :

في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .. الحديث »[٧٢] .

لما كان مدار الأعمال على المقاصد والغايات ، فإن النية تصحح العمل أو تفسده ، ولذا وجب أن يرتبط تلقي المسلم للعلم بهدف محدد وغاية واضحة ، وأن يحاول تحقيق شرطي العمل الصالح فيما يتعلمه ، وهما الإخلاص ، والصواب[٧٣] .

فالإخلاص أن يبتغي الإنسان بعمله وجه الله وحده ، ولذا جاء في الحديث القدسي « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[٧٤] .

أما الصواب فهو متابعة الرسول ﷺ ، ولزوم سنته ، ودليله الحديث الصحيح الذي روته عائشة – رضى الله عنه – قالت : قال رسول الله ﷺ « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ »[٧٥] .

---

(٧١) انظر سيد قطب ، في ظلال القرآن ٤ /٢٠٧٤ « بتصرف » .

(٧٢) حديث صحيح سبق تخريجه .

(٧٣) هذان الشرطان مأخوذان من قوله تعالى « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » كما أوضح ذلك الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية من سورة الكهف ، انظر تفسير ٥ /٢٠٠ .

(٧٤) رواه مسلم رقم ٢٩٨٥ ص ٤ /٢٢٨٩ . (٧٥) رواه مسلم رقم ١٧١٨ ص ٣/١٣٤٤ .

ولقد مرّ معنا في مبحث مفهوم العلم طائفة من أقوال علماء السلف الصالح حول فهمهم لمعنى العلم ، وأنه يقتضي العمل ، وأن العالم لا يكون ربانيا حتى يعمل بما علم .

قال تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله . ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون »(٧٦) .

ذلك أن تلقي العلم للعمل به يثير في نفس المتعلم الحماس والاستعداد ، فستنفر كامل طاقات نفسه ومواهبها ، وبذلك يكون فهمه للأمور واستيعابه أكثر ، فضلا عن استظهاره للنصوص وحفظها للاستشهاد بها عند كل مسألة ، وهذا الأثر لمنهج التلقي واضح في حياة السلف ومؤلفاتهم ، حتى كثر فيهم الحفاظ ، وصار ذلك من الألقاب الشائعة بينهم ، وكان إتقانهم في الحفظ واستظهارهم للمسائل عجيبا ، ولعلَّ هذا مكمن السر في إبداعهم ، وتأصيلهم للمسائل ، وشمول بحوثهم ، وتعدد تخصصاتهم وموسوعيتها رغم قلة الوسائل العلمية المتوفرة لهم(٧٧) .

ومن المعلوم أن كل فرع من العلوم يختص بأهداف محددة يسعى لتحقيقها . ومع ذلك فإن بالإمكان أن نلخص الأهداف العامة التي يتوخاها المسلم في تلقيه « للعلم » على عموم المصطلح وشموله ، ويتمثل ذلك في معرفة أحكام الشريعة أوامرها ونواهيها ، حلالها وحرامها ، والعمل بذلك ابتغاء رضوان الله والدار الآخرة .

كما يتمثل ذلك في إعداد الإنسان المؤمن الذي يعرف وظيفته ودوره في هذه الحياة وذلك بتنمية مواهبه ، واستعداداته ، وتوجيهها التوجيه السليم المتفق

---

(٧٦) سورة آل عمران آية : ٧٩ .

(٧٧) لقد توفر لنا في العصور الحديثة وسائل علمية متقدمة لم تكن متوفرة لهم ، مثل الطباعة ، وأجهزة التصوير والتسجيل ، وحفظ المعلومات ، وسهولة المواصلات ، والاتصالات ورغم هذا لم نصل منزلتهم في العلم والحفظ ، ولعلَّ هذا التقدم ذاته هو السبب في ذلك حيث اعتمدنا على هذه الوسائل وتركنا منهج الحفظ .

مع الفطرة(٧٨) ، ولتحقيق كامل إنسانيته بالعبودية لله وحده واتباع منهجه .

ومن أهداف العلم . التفكر والتدبر في الكون وما حواه من سماوات وأرضين وكواكب ونجوم وعوالم متعددة .. والنظر في السنن الربانية ، وقوانين التآلف والانسجام في هذا الكون . لمعرفة عظمة خالقه ومبدعه وعظيم منته على خلقه ، وللاستفادة من ذلك في واقع الحياة واستمرار الخلافة في الأرض . كما أن من أهداف العلم الاطلاع على معالم تاريخ الأمة الإسلامية عبر الأزمان المتطاولة ، والمتمثل في تاريخ الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – وأتباعهم من لدن آدم إلى محمد ﷺ مع معرفة مواقف الجاهليات تجاههم . فإن في معرفة ذلك عبرة وعظة كما قال تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب . ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(٧٩) .

وسائل تلقي العلم :

قال الله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٨٠) ، وقال تعالى : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾(٨١) ، وقال تعالى ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾(٨٢) .

فمن نعمة الله – سبحانه وتعالى – أن زود الإنسان بهذه الوسائل والقدرات اللازمة لتلقي العلم والمعرفة .

---

(٧٨) قال ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » البخاري ٣/ ٢١٩ .

(٧٩) سورة يوسف آية : ١١١ .

(٨٠) سورة النحل آية : ٧٨ .

(٨١) سورة تبارك آية : ٢٣ .

(٨٢) سورة الإسراء آية : ٣٦ .

ثم تفضل عليه مرة أخرى فعلمه ما لم يكن يعلم ، وأرسل له الرسل ، وأنزل معهم الكتب قال تعالى : ﴿ وعلم ءادم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾(٨٣) .

وهكذا فالتعليم هبة من الله ، فهو الخالق لهذا الكون . ولهذا الإنسان ، وهو الواهب له هذه القدرات والوسائل ، وهو الذي علَّمه عن طريق رسله ما يصلح حياته ويقوِّم فطرته ، ويمكنه من تحقيق عبوديته لله ، ويبعده عن ضلالات البشرية وانحرافاتها المتمثلة في الأفكار والفلسفات والنظم الجاهلية التي قطعت صلتها بالله وكتبه ورسله .

وهذه الوسائل من السمع والبصر والفؤاد (العقل) مشتركة بين البشرية كلها مسلمها وكافرها ، لكن المسلم يتميز عن غيره بالمصادر الربانية ، التي تصحح له فكره واتجاهاته ، ويزن على هداها نتائج تجاربه وأبحاثه واستقراءاته وقياساته ، كما يتميز عن غيره بأهدافه في تلقي العلم ، إذ يسعى إلى مرضاة الله ، وتحقيق العبودية له ، وتطبيق المنهج الرباني في واقع الحياة .

ولأجل ذلك فإن المسلم أقدر من غيره على استخدام وسائل المعرفة ، الاستخدام المثمر الصحيح الذي يوصل إلى نتائج علمية مستقيمة ، لأنه — مع توفيق الله له بسبب استقامته على أمر الله — يعرف كيفية استخدام وسائل المعرفة الاستخدام الصحيح ، وفق الوظائف التي خلقت لها ، ويحافظ عليها ويصونها ، ولا يستعمل ما يؤدي إلى تعطيلها كلها أو بعضها . ولهذا جاء في الأثر « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »(٨٤) .

---

(٨٣) سورة البقرة آية : ٣١ — ٣٢ .

(٨٤) رواه الترمذي مرفوعا ، من حديث أبي سعيد الخدري ، عند تفسير قوله تعالى « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » ، وقال حديث غريب ، انظر تحفة الأحوذي ٨ /٥٥٥ ، وفي سنده عطية العوفي وهو ضعيف ، انظر جامع الأصول ٢ /٢٠٦ وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير ١ /٨٧ . ومفهوم الآية يشهد لمعناه .

أما غير المسلم فإنه يتسبب بأعماله في تعطيل بعض هذه الوسائل ، فلا تؤدي وظيفتها كما ينبغي ، يقول الله تعالى :﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾(٨٥) . وفي تفسيرها – قال رسول الله ﷺ « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت فذلك قول الله كلا بل ران على قلوبهم .. » الآية(٨٦) .

وقال تعالى عن اعتراف الكفار يوم القيامة بأنهم لم يستخدموا هذه الوسائل الاستخدام الصحيح ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾(٨٧) أي لو كنا نسمع سمع من يعى ، ونعقل عقل من يميز ، ولذلك قال في الآية التي بعدها ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾(٨٨) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس . لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم ءاذان لا يسمعون بها. أولٰئك كالأنعام بل هم أضل أولٰئك هم الغافلون ﴾(٨٩) فهؤلاء لما عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها التي خلقت لها شبههم الله بالأنعام العجماوات ، بل جعلهم أضلّ وأحطّ درجة ومنزلة ، ذلك أنهم عطلوا وسائل المعرفة عن وظيفتها الصحيحة ، وهي معرفة الخالق وإفراده بالعبادة ولزوم شريعته . والمعاصي – فضلا عن الكفر – تحجب الرؤية الصحيحة حتى تنتكس المفاهيم والتصورات ، فترى المعروف منكرا والمنكر معروفا ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا ،(٩٠) فأيُّ قلب

---

(٨٥) سورة المطففين آية : ١٤ .

(٨٦) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، انظر تحفة الأحوذي شرح الترمذي ٩ /٢٥٤ ، ورواه أحمد في المسند ٢ /٢٩٧ ، وانظر في تفسير الآية ابن كثير ٨ /٣٧٢ – ٣٧٣ .

(٨٧) سورة الملك آية : ١٠ .

(٨٨) سورة الملك آية : ١١ .

(٨٩) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

(٩٠) أي مرة بعد مرة وهو بضم العين .

أشربها[٩١] نكت فيه نكتة[٩٢] سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها[٩٣] نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة مادامت السموٰات والأرض ، والآخرُ أسودُ مرباداً[٩٤] كالكوز مجخياً[٩٥] ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه »[٩٦] .

ولقد ضبط العلماء المسلمون طرق الحصول على العلم ، سواء كان التلقي عن طريق السمع والرواية وهو النقل بدرجاته المعروفة كالأخبار المتواترة والمستفيضة أو الآحاد سواء كان نقلتها ثقات أم ضعفاء ، ولعلماء الحديث في هذا الشأن جهد بارع بلغ الغاية في التدقيق والتحقيق ، وقد ضبطوا طرق التحمل[٩٧] ونقل العلم من جيل إلى جيل .

أو كان التلقي عن طريق الاستنباط والنظر ، مثل السير في الأرض بقصد التدبر والتفكر والاطلاع على عجائب قدرة الله ، ومثل إجراء التجارب للكشف عن القوانين العلمية ، أو كان عن طريق الاستقراء والتتبع في محاولة للوصول إلى قواعد علمية مقننة ، فكل هذه الطرق تؤدي للحصول على العلم والمعرفة ، وينبغي ترشيد استخدام الوسائل التي زود بها الإنسان والحفاظ عليها ، باتباع المنهج الرباني الذي يصلحها ، لتحقق على هداه أقصى ما يمكن أن تحققه .

---

(٩١) أي دخلت فيه وأحبها .

(٩٢) أي نقط نقطة .

(٩٣) أي ردها .

(٩٤) كناية عن شدة السواد .

(٩٥) أي مائلا ومنكوسا .

(٩٦) انظر صحيح مسلم ١ /١٢٨ - ١٢٩ .

(٩٧) عن طرق التحمل والأداء ، انظر ابن كثير ، اختصار علوم الحديث بشرح الشيخ أحمد محمد شاكر ص ١٠٩ - ١٣٢ ، وزين الدين العراقي ، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح ص ١٦٦ - ٢٠٢ .

الفصل الثاني
مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

مصطلح التاريخ ودلالته :

التاريخ لغة هو الإعلام بالوقت . قال الجوهري :[1] « التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثله يقال أرخت وورخت »[2] .

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال : « بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا . وقيس تقول أرخته تأريخا »[3] .

وهذا القول من الأصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصيلة ، وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم ،[4] وقيل : إن أصلها « ماه روز » ، « وماه » بالفارسية تعني القمر « وروز » تعني اليوم .

وبعضهم قال : إن أصل كلمة تاريخ سرياني[5] ومعناه الشهر .

---

(١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي ، إمام العربية ، كان من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلما ، له مصنفات أشهرها كتاب الصحاح في اللغة ، اعترته في آخر حياته وسوسة فصعد إلى سطح جامع نيسابور وعمل لنفسه جناحين وحاول الطيران فسقط ميتا . وقد كانت وفاته سنة ٣٩٨ هـ . انظر ياقوت معجم الأدباء ٦ /١٥١ .

(٢) الجوهري ، الصحاح مادة أرخ ١ /٤١٨ .

(٣) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ ص ٦ .

(٤) السخاوي المصدر السابق .

(٥) راجع عبدالحميد العبادي ، علم التاريخ عند العرب ص ٣٤ .

أما تعريف التاريخ في الاصطلاح فقد اختلفت عبارات العلماء المسلمين في تحديد تعريف له ، ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ .

ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم يدونوا تعريفاً كاملاً ومحدداً لعلم التاريخ ، وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه ، ومن المعلوم أن العلم قد يُعَرَّف ببعض أنواعه أو أمثلته أو بذكر غايته .

قال خليفة بن خياط : « هذا كتاب التاريخ ، وبالتاريخ عرف الناس أمر حجهم وصومهم ، وانقضاء عدد نسائهم ومحل ديونهم »(٦) وقال قريبا من هذا الطبري في مقدمة تاريخه(٧) . أما أول من حاول أن يضع تعريفا محددا لعلم التاريخ – فيما اطلعت عليه – فهو عبدالرحمن ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، حيث يقول في مقدمته : « إن التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ، وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدي لنا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة ، وعريق وجدير بأن يعد في علومها وخليق »(٨) .

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها ، وحاول اكتشاف السنن التي تنتظمها ، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها .

أما المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد عرف التاريخ ببيان موضوعه

---

(٦) تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٩ .
(٧) تاريخ الطبري ١ /٤ – ٥ .
(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٣ ، ٤ ، ط دار إحياء التراث العربي بيروت .

فقال : « الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي »[٩] .

كما عرفه محمد بن سليمان الكافيجي[١٠] المتوفى سنة ٨٧٩ هـ بقوله « هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته »[١١] .

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي التاريخ بقوله « هو التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال ، من مولد الرواة والأئمة ، ووفاة وصحة وعقل وبدن ورحلة وحج وحفظ وضبط وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا ، مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم ، واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملحمة وتجديد فرض وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد . وربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء ، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها »[١٢] .

قال : « والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم »[١٣] .

وقال « أما موضوعه فالإنسان والزمان »[١٤] .

فتعريف السخاوي لا يبعد كثيرا عن تعريف الكافيجي ، إضافة إلى أنه ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث .. وذلك بالنص على « علم أحوال الرجال » وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم .

---

(٩) انظر فرانز روزنثال . علم التاريخ عند المسلمين ص ٢٦ .

(١٠) هو محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي ، اشتهر بمصر ولازمه السيوطي أربعة عشر عاما ، وعرف بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافية في النحو ، له تصانيف كثيرة أغلبها رسائل منها المختصر في علم التاريخ ، كانت ولادته سنة ٧٨٨ هـ ، ووفاته سنة ٨٧٩ هـ انظر الأعلام للزركلي ٦ / ١٥٠ .

(١١) المختصر في علم التاريخ ص ٣٢٧ .

(١٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧ .

(١٣) نفس المصدر السابق .

(١٤) نفس المصدر .

وفي العصر الحديث عرفه سيد قطب بغايته فقال « التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة ، امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان »(١٥) .

ولقد ركز هذا التعريف على اللب والغاية من دراسة التاريخ ، وتدوين أخباره ، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة بلا شك وهي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها . وهذا التعريف قريب من تعريف ابن خلدون ، لكن يبدو أن تعريف ابن خلدون أشمل ، حيث نص على وجوب النظر في الأخبار وتحقيقها ، كما أكد على النظر في العلل والأسباب ، إلا أنه ينحو منحى فلسفيا . في حين أن سيد قطب كان أوضح في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي .

فالحاصل أن التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت ومن حيث التفسير والتعليل . ويشمل جانبين هما ١) نقل الحدث بالرواية أو المشاهدة . ٢) تعليله .

أهداف دراسة التاريخ وثمراته :

التاريخ فرع من فروع العلم ، وقد صنفه العلماء الذين كتبوا في مراتب العلوم ضمن العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية ،(١٦) يقول ابن عبدالبر النمري :(١٧) « ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤدين للدين عن نبيهم ﷺ ، ويعني بسيرهم وفضائلهم ، ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم

---

(١٥) سيد قطب ، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٣٧ .

(١٦) انظر ، الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٤ ، ٥ حيث جعل علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة .

(١٧) هو الإمام يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي أبو عمر ، ولد سنة ٣٦٨ هـ ، وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان ، له كتب كثيرة ، منها التمهيد في فقه الحديث ، والاستيعاب في معرفة

وأخبارهم ، حتى يقف على العدول منهم من غير العدول »[١٨] كما أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية ، وعلى أيدي رجال الحديث ،[١٩] وصلته بالشريعة وخدمته لها واضحة ، سواء في ميدان التربية والسلوك ، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل ، ولهذا قيل « لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ »[٢٠] فهو وسيلة من الوسائل التي استخدمها علماء السنة لمعرفة صدق الرواة من كذبهم .

قال سفيان الثوري : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ »[٢١] ولذلك اعتنى كبار المحدثين مثل البخاري ومسلم وأحمد بن حنبل وأبي زرعة ، وأبي حاتم والترمذي بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً في ذلك .

وطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة من عناية العلماء به ، وخدمته للشريعة الإسلامية فإنه ينبغي على دارسه أن يتحرى الإفادة منه ، وأن يتلقى تعليمه على منهاج سليم .

ولدراسة التاريخ فوائد وثمرات متعددة ، يقول ابن الأثير « ومن رزقه الله طبعا سليما ، وهداه صراطا مستقيما ، علم أن فوائدها[٢٢] كثيرة ، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة »[٢٣] .

= الأصحاب ، وجامع بيان العلم وفضله ، وغير ذلك ، كانت وفاته بمدينة شاطبه بالأندلس سنة ٤٦٣ هـ انظر تذكرة الحفاظ ٣ /١١٢٨ .

(١٨) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ص ٤٦٦ .

(١٩) كتب الدكتور بشار عواد رسالة لطيفة بعنوان « أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين » طبعت في بغداد سنة ١٩٦٦ م .

(٢٠) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ ص ٩ . وهو من قول حماد بن زيد بن درهم البصري ت ١٧٩ هـ .

(٢١) نفس المصدر السابق .

(٢٢) أي فوائد التواريخ .

(٢٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ١ /٦ .

ولقد ازدادت أهمية التاريخ في العصر الحديث ، واستخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها ، كما استعان به أصحاب المذاهب الفكرية في فلسفة مذاهبهم ، وتأييدها وإيجاد سند تاريخي لها . بل إن الأوربيين ينظرون له نظرة تقديس وإجلال ، ويطلبون منه تفسير الوجود وتعليل النشأة الإنسانية .

ولما كان المرء المسلم لا يطلب العلم إلا لغاية وهدف يخدم دينه وعقيدته ، فإنه لابد أن يحدد ما هي الأهداف والثمرة المرجوة من دراسة التاريخ ، وهل يكون ذلك لمجرد المعرفة أو التسلية ، أو حفظ الحكايات والأخبار ، أو إشباع رغبة وغريزة حب الاستطلاع . إن دراسة التاريخ بوجه عام وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغي أن يكتفي في دراسته بتحقيق هذه الرغبات والحاجات القريبة . لأنه علم أجل من أن ينظر له هذه النظرة ، وإلا لما ذكر الله سبحانه وتعالى تاريخ السابقين وقصص النبيين في القرآن الكريم الذي هو كتاب هداية وإرشاد .

إن لدراسة التاريخ ثمرات وفوائد متعددة من الممكن أن نلخصها فيما يلي :

١ – الأهداف التربوية :

إن وظيفة المسلم في هذه الحياة هي تحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى ، بمفهومها الشامل لكافة جوانب النشاط البشري ، وبحقيقتها التي هي كمال الخضوع لله مع كمال المحبة ، فالعبودية لله هي الهدف النهائي للتربية ، ودراسة التاريخ مجال واسع لتحقيق هذا الهدف ، وذلك بما فيه من العبر والعظات ، والأسوة الحسنة فيمن يقتدى بهم ، مثل الأنبياء – عليهم السلام – فإن الله قال لنبيه ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٢٤] وقال للمؤمنين ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[٢٥] وكذا الأسوة بالخلفاء الراشدين ، لقول رسول الله ﷺ « عليكم

---

(٢٤) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

(٢٥) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ »[٢٦] . وكذا الاقتداء بالعلماء العاملين ، والدعاة المصلحين في صبرهم وجهادهم ، وتحملهم المشقة في سبيل نصرة العقيدة .

فدراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبوية ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، والفتوحات الإسلامية ، وسير العلماء والمجاهدين والقادة من سلفنا الصالح ، إذا أحسن عرضها ، وأبرزت خصائصها وبطولات رجالها ، وأوضح الدور الذي قامت به الأمة الإسلامية في سبيل هداية البشرية إلى الحق ، إذا أحسن عرض ذلك للناشئة فإنه يبعث فيهم روح الجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، والزهد في هذه الحياة الفانية ، مع العمل المثمر البناء ، والتمسك بالإسلام ، والاعتزاز بتعاليمه ورجاله وتاريخه . كما أن ذلك ينمي فيهم روح الولاء لله ولرسوله ، وللأمة الإسلامية ، وأيضا فإنه يدفع هممهم إلى معالي الأمور ، ويكشف عن طاقاتهم المذخورة ويستثمرها .

فاستخدام التاريخ في المجال التربوي من أنفع الوسائل لتربية الأجيال ، والتربية بالأحداث من أهم الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم والرسول ﷺ في إقرار الموازين والقيم ، ونظرة إلى التعقيبات القرآنية على غزوة أحد في آخر سورة آل عمران[٢٧] تكفي للدلالة على أهمية استخدام التاريخ في التربية ، وعظيم الثمرة التي تجنى من وراء ذلك .

يقول الدكتور محمد أمين المصري :

« ولدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس ، وإكسابه عادات خاصة في التفكير ، فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق ، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها . لأن التاريخ طريقة بحث تقوم

---

(٢٦) رواه أبو داود ٤ /٢٠١ والترمذي ٥ /٤٤ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وأحمد ابن حنبل = في المسند ٤ /١٢٦ ، وانظر شرحه في جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الحنبلي ص ٢٤٣ .

(٢٧) من الآية ١٢١ وهي قوله تعالى ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ الآية ١٨٠ ، وراجع تفسير الحافظ ابن كثير ٢ /٩٠ وما بعدها ، وسيد قطب في ظلال القرآن ١ /٤٥٧ وما بعدها .

على النقد والمقابلة ، والتحقق ووزن قيم الأدلة ، وربط السبب بالنتيجة ، مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها »[٢٨] .

٢ - إدراك السنن الربانية :

من أهم ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية في الكون ، فإن لله سننا في خلقه أرشدنا إليها ، وطلب منا التعامل معها ، قال تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢٩] وقال ﴿ فهل ينظرون إلا سُنَّت الأولين فلن تجد لِسُنَّتِ تبديلا ولن تجد لِسُنَّتِ الله تحويلا ﴾[٣٠] وقال تعالى : ﴿سُنَّتَ الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون ﴾[٣١] .

فالمطلوب من المسلم هو التعرف على هذه السنن الربانية .

والتاريخ بما يحوي من الحوادث المتشابهة ، والمواقف المتماثلة ، يساعد على كشف هذه السنن ، التي هي غاية في الدقة والعدل والثبات ، وفي إدراكنا للسنن الربانية فوائد عظيمة ، حتى لو لم نقدر على تفادي حدوثها ، والنجاة منها ، حيث يعطينا هذا الإدراك والمعرفة صلابة في الموقف ، بخلاف من يجهل مصدر الأحداث ، فإن الذي يعلم تكون لديه بصيرة وطمأنينة ، أما الذي يجهل فليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق .

والسنن الربانية نوعان سنن خارقة وسنن جارية .

فالسنن الخارقة هي التي يجريها الله على خلاف مألوف الناس ، على يد رسول من رسله ، تأييدا من الله له بتلك المعجزة ، كما حول العصا حية في يد موسى ،[٣٢] وكما أنبع الماء من الصخرة عندما ضربها موسى بعصاه ،[٣٣] وكما

---

(٢٨) لمحات في التربية ص ٢٢٨ .
(٢٩) سورة آل عمران آية : ١٣٧ .
(٣٠) سورة فاطر آية : ٤٣ .
(٣١) سورة غافر آية : ٨٥ .
(٣٢) قال تعالى ﴿ قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هي حية تسعى ﴾ طه آية ١٩ ــ ٢٠ .

شَقّ القمر نصفين معجزة لرسول الله ﷺ(٣٤) .

والسنة الجارية نوعان سنة متعلقة بالأمور الطبيعية ، كسنة الله في تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر ، فهي تجري وفق ناموس محدد قدره الله لها ، وسنة متعلقة بدين الله وأمره ونهيه ووعده(٣٥) ووعيده ، فهي ثابتة لا تتبدل مثل نصره لأوليائه وإهانته لأعدائه ، كما أنه سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول ، فهو سبحانه لا يفرق بين المتماثلين ، وإذا وقع تغيير فذلك لعدم التماثل ، كما أن من سننه التفريق بين المختلفين كما دل على ذلك القرآن ، قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾(٣٦) .

يقول ابن تيميه « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ، ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها ، لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره ، كالأمثال المضروبة في القرآن »(٣٧) فهذه السنن الشرعية إنما تدرك من خلال النظر في التاريخ ، وملاحظة مصائر الأمم ، وقيام الحضارات وسقوطها وأسباب ذلك .

« والسنن الربانية تجئ في القرآن غير محددة ، لكي تشمل أكبر قدر من الوقائع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات »(٣٨) .

« كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ ، التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك ، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ، ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله ، الذي سار عليه أنبياؤه ورسله(٣٩) .

---

(٣٣) قال تعالى في سورة البقرة آية ٦٠ ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ الآية .

(٣٤) رواه البخاري من حديث ابن مسعود وابن عباس وأنس ، انظر فتح الباري ٨ /٦١٧ .

(٣٥) للإمام ابن تيميه رسالة بعنوان « لفظ السنة في القرآن » منشورة ضمن « جامع الرسائل بتحقيق محمد رشاد سالم فراجعها إن شئت .

(٣٦) سورة القلم آية : ٣٥ .

(٣٧) ابن تيميه ، جامع الرسائل ص ٥٥ .

(٣٨) عماد الدين خليل . تفسير التاريخ ص ١٠٩ .

(٣٩) المصدر السابق ص ١١١ .

والسنة الربانية قد تستغرق وقتا طويلا ، لكي ترى متحققة ، في حين أن عمر الفرد محدود ، ولذلك فلا يمكنه رؤية السنة متحققة ، بل قد يرى الإنسان جانبا من السنة الربانية ثم لا تحقق نهايتها في حياته ، مما قد يدفعه إلى عدم إدراك السنة أو التكذيب بها ، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنة الربانية لابد أن تقع ، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد بل ربما أطول من عمر أجيال ، فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ ، الذي يثبت أن سنة الله ثابتة لا تتبدل كما قال تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾(٤٠) .

فمن خلال دراسة التاريخ يعلم الإنسان أن الحاضر الذي يعيشه – إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسنة الله(٤١) الشرعية – غير مستثنى من السنة الربانية ، بل هو جزء منها ، ولكن للسنة الربانية أجل ووقت محدد . قال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم . فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾(٤٢) .

قال سيد قطب عند تفسير هذه الآية هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكن الله لهم في الأرض ، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه ، أيقومون عليه بعهد الله وشرطه ، من العبودية له وحده ، والتلقي منه وحده ، أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدعي حقوق الألوهية وخصائصها ، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ، ويمضون على غير سنة الله ، ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف .. ويقع الفساد رويدا رويدا ، وهم ينزلقون ولا يشعرون ، حتى يستوفى الكتاب أجله ويحق وعد الله ، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية .

---

(٤٠) سورة الأحزاب آية : ٦٢ .

(٤١) كما هو واقع في عصرنا الحاضر ، من التمكين المادي والتقدم الصناعي للدول الكافرة ، مع انحطاط المسلمين وتأخرهم .

(٤٢) سورة الأنعام آية : ٦ .

فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال ، بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، كما وقع لكثير من الأقوام ، ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات ، كما حدث لأقوام آخرين ، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض ، فيعذب بعضهم بعضا ويدمر بعضهم بعضا . ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاة – يخضدون شوكتهم .

ثم يستخلف الله العباد الجدد ، ليبتليهم بما مكنهم ، وهكذا تمضي دورة السنة ، فالسعيد من وعاها ، والشقي من غفل عنها ، وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي ، أو الملحد الكافر ممكنا له في الأرض غير مأخوذ من الله ، ولكن الناس إنما يستعجلون ، إنهم يرون أول الطريق أو وسطه ، ولا يرون نهاية الطريق ، لأن السنة تستغرق وقتا طويلا ، لكنها تلاحظ من خلال التاريخ »(٤٣) .

وهذا المعنى جاء مصرحا به في قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(٤٤) فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ، عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه ، فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة ، فإدرار الرزق عليهم كان من باب الاستدراج قال تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾(٤٥) وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري « إن الله – عز وجل – يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته »(٤٦) ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٤٧) .

وهذه الأبواب التي تفتح للكافرين هي من تمام عدل الله ، الذي يقضي بأن يعطي كل عامل جزاء عمله . ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما

---

(٤٣) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٢ /١٠٣٧ – ١٠٣٨ .
(٤٤) سورة الأنعام آية : ٤٤ .
(٤٥) سورة الطارق آية : ١٧ .
(٤٦) رواه البخاري ومسلم ، وهذا لفظ مسلم ، انظر صحيحه ٤ /١٩٩٧ ، حديث رقم ٢٥٨٣ .
(٤٧) سورة هود آية : ١٠٢ .

نشاء لمن نريد ﴾[٤٨] فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم نالوا ثمرة جهدهم في الحياة الدنيا ، مع أنه لن يكون كرخاء المؤمنين المستقيمين على منهج الله ، وطمأنينة نفوسهم ، بل هو رخاء موبوء كله آفات ، واختلال اجتماعي ، وانحدار خلقي ، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية في مقابل المادة . ونظرة فاحصة في أحوال المجتمعات الجاهلية في عالمنا المعاصر ترينا ذلك واضحا . ومن الملاحظ أن ثبات السنن الربانية يقابله ثبات في طبيعة الإنسان وخلقته .

فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم – عليه السلام ، كما أن دوافع الإنسان الفطرية – وهي منطلق نشاطه – لم تزل قائمة كما كانت في الماضي ، وما يصلح البشر في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر .

ونورد فيما يلي بعض السنن الربانية على سبيل المثال :

أ – **سوء عاقبة المكذبين** . فالذين يكذبون بآيات الله ورسله ، ويظلمون ويعيثون في الأرض فسادا ، وعدهم الله بسوء العاقبة ، قال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيرا . وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾[٤٩] .

فما جرى من تحقق هذه السنة في الماضي ، سيجري مثله في الحاضر والمستقبل ، لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه ، ومن فضل الله على الناس وعدله فيهم أن يبقى نعمته المادية والمعنوية عليهم ، كالأمن والاستقرار والرزق الوفير والصحة إلى غير ذلك ، إذا هم شكروه على ما أعطاهم ، ولم يتجبروا ويتسلطوا ، ولكنه يسلبهم إياه بعدله وقدرته ، إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفرا ، قال تعالى ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾[٥٠] ، وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة

---

(٤٨) سورة الإسراء آية : ١٨ .

(٤٩) سورة الفرقان الآيات : ٣٧ – ٣٩ . (٥٠) سورة إبراهيم آية : ٧ .

أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾[٥١] .

ب – ومن سنن الله الخالدة أن البشر يتحملون مسؤوليتهم ، في الرقي والانحطاط ، وفي اتباع الخير أو الشر ، حيث أنهم قد منحوا قدرا من الحرية والاختيار ، ومع ذلك جاءهم رسل الله بالهدى من عنده ، فإذا وجدت الأسباب فإن النتائج تتبعها ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[٥٢] ، فالتغيير يبدأ من النفس ، سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل ، وهذه السنة الربانية في تغيير النفس والمجتمع مهمة جدا ، وتحتاج إلى دراسة نفسية واجتماعية[٥٣] ، وهي تعطي للباحث التاريخي مشكاة يستضيء بها في دراساته وأبحاثه ، وهي سنة اجتماعية يستفيد منها المربي والمصلح ، ويلاحظ أن في الآية ترتيب ، إذ إن حدوث التغيير من الله مترتب على حدوثه من البشر ، سواء في السلب أو الإيجاب ، وهذا الترتيب يضع البشر أمام مسؤوليتهم في أحداث التاريخ ، وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكا صحيحا إلا باتباع المنهج الرباني ، لأن هذا المنهج يجعلك تنال خير السنة ، وتدرك العلاقة السليمة بين الأحداث التاريخية ، ذلك أن خير السنة لا ينال إلا بالهدى ، والهدى لا يكون إلا عن طريق الرسل ، وما أنزل إليهم من ربهم قال تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٥٤] .

ج – ومن السنن الربانية مداولة الأيام بين الناس من الشدة إلى الرخاء ، ومن الرخاء إلى الشدة ، وهذا اختبار وامتحان ، لكي يتميز الصابرون في المحن والضراء ، والشاكرون في النصر والرخاء ، من أولئك الذين

---

(٥١) سورة الأنفال آية ٥٣ .
(٥٢) سورة الرعد آية : ١١ .
(٥٣) كتب الأستاذ جودت سعيد رسالة بعنوان « حتى يغيروا ما بأنفسهم » ركز فيها على بحث القضايا النفسية والاجتماعية وسنن تغير المجتمعات .
(٥٤) سورة البقرة آية : ٣٨ .

تطغيهم الشهوات أو لا يصبرون على الضراء ، قال تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذينءَامنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾[٥٥] .

د — كما أن من السنن الإلٰهية أن زوال الأمم يكون بالترف والفساد ، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء ، هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد . الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد ﴾[٥٦] وقال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمَّرناها تدميرا ﴾[٥٧] أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي ، فعصوا وفسقوا ، فحق عليهم العذاب والتدمير ، جزاء فسقهم وعصيانهم ، وفي قراءة « أمرنا »[٥٨] بالتشديد أي جعلناهم أمراء ، والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله وليس كل ثراء ترف .

هـ — ومن السنن أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم ، وعدم إقامة العدل ، فلقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل وحرم الظلم على نفسه ، وجعله بين العباد محرما ، كما في الحديث القدسي « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[٥٩] .

فإذا اختلت الموازين ، وانعدمت القيم ، وتحكم الأقوياء في الضعفاء ، ووزع المجتمع إلى سادة وعبيد ، وأخذ الأقوياء يتلاعبون بحدود الله على

---

(٥٥) سورة آل عمران آية : ١٤٠ .
(٥٦) سورة الفجر الآيات من ٦ — ١٤ .
(٥٧) سورة الإسراء آية : ١٦ .
(٥٨) انظر تفسير ابن كثير ٥ /٥٨ .
(٥٩) رواه مسلم ، انظر صحيحه ٤ /١٩٩٤ حديث رقم ٢٥٧٧ .

هواهم ، فقد آذنهم الله بالهلاك ، ووقعت القاصمة ، قال تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾[٦٠] وقال ﷺ : « إنما أهلك الذين قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٦١] .

و — ومن السنن الربانية أيضا أن انهيار الأمم وزوالها يكون بأجل .

فقد يرى الناس وجبات العذاب والانهيار قد حلت بأمة من الأمم ثم لا يرون زوالها بأنفسهم ، وقد أوضحنا في أول الكلام عن السنن أن سنة الله لا تتخلف ، لكن عمرها أطول من عمر الأفراد ، ولا تقع إلا بأجل محدد لابد من استيفائه، قال تعالى: ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٦٢] وقال تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾[٦٣] وقال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾[٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾[٦٥] .

ز — ومن سنن الله الجارية استحقاق المؤمنين لنصر الله . فقد قضى سبحانه وتعالى بأنه ينصر أولياءه المؤمنين إذا قاموا بشرط استحقاق النصر ، وهو الاستقامة على منهج الله ، وتحكيم شريعته واتباع رسله ، قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٦٦] وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن

---

(٦٠) سورة الأنبياء آية : ١١ .
(٦١) رواه البخاري ١٢ /٨٧ ، ومسلم ٣ /١٣١٥ .
(٦٢) سورة الأعراف آية : ٣٤ .
(٦٣) سورة الحجر آية : ٤ — ٥ .
(٦٤) سورة الكهف آية : ٥٩ .
(٦٥) سورة المؤمنون آية : ٤٣ .
(٦٦) سورة غافر آية : ٥١ .

جندنا لهم الغالبون ﴾(٦٧) ، وقال : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(٦٨) وقال : ﴿ فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾(٦٩) وقال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾(٧٠) وعوامل النصر موضحة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴾(٧١) .

ح – ومن السنن المهمة معرفة أن الابتلاء للمؤمنين سنة جارية .

قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾(٧٢) ويقول ﷺ فيما يرويه مصعب بن سعد عن أبيه. قال: قلت يا رسول الله : « أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء . ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة »(٧٣) .

فهكذا جرت سنة الله في تمحيص المؤمنين ، وإعدادهم لينالوا بصبرهم وثباتهم المنزلة العالية عند الله ، وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى ، وبما

---

(٦٧) سورة الصافات الآيات ١٧١ – ١٧٣ .
(٦٨) سورة محمد آية : ٧ .
(٦٩) سورة الروم آية : ٤٧ .
(٧٠) سورة المجادلة آية : ٢١ .
(٧١) سورة الأنفال الآيات : ٤٥ – ٤٧ .
(٧٢) سورة البقرة آية : ٢١٤ .
(٧٣) رواه الترمذي ٤ /٦٠١ كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء ، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه برقم ٤٠٢٣ ، والدارمي ٢ /٣٢٠ ، والحاكم في المستدرك ١ /٤٠ ، وأحمد ١ /١٧٢ ، وانظر لتصحيحه ، صحيح الجامع رقم ١٠٠٣ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٤٣ .

يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله ، فقد قال الله تعالى للمؤمنين بعد موقعة أحد وهزيمتهم العسكرية فيها ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين ءامنوا . ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين ءامنوا ويمحق الكافرين ﴾(٧٤) فوقوع الهزيمة في أحد كان سببه مخالفة طائفة من المؤمنين لأمر رسول الله ﷺ وهم الرماة ، وحب الدنيا من طائفة أخرى .

ولكن كان في ذلك فوائد مهمة للجماعة الإسلامية ، مثل تربيتهم على الثبات في المحن ، ومثل اتخاذ الشهداء ، وكذلك تمحيص الأنفس واختبارها ، وتعريفها بسرائرها ، والابتلاء من سنن الله الملحوظة عبر التاريخ ، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب ، فمنهم من قتل ، ومنهم من ألقي في النار ، ومنهم من أخرج من أرضه ، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوف ، فلما نجحوا في الابتلاء وثبتوا على الحق تنزل عليهم نصر الله ، فأبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، ومكن لهم في الأرض ، وجعلهم هم الوارثين ، وأشفى صدورهم في الدنيا بهزيمة أعداءهم وهلاكهم ، فضلا عما أعده الله لهم من الدرجات العلى في الجنة .

ط — ومن أهم السنن الربانية الجارية التي ينبغي على دارس التاريخ ملاحظتها هي سنة « التدافع » أو الصراع بين الحق والباطل .

قال تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(٧٥) وقال ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(٧٦) .

وقال تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وءاتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٧٧) وأعظم معروف

---

(٧٤) سورة آل عمران آية : ١٤٠ ١٤١

(٧٥) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٧٦) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

(٧٧) سورة الحج آية : ٤١ .

يؤمر به هو إخلاص العبودية لله وإقامة شريعته ، وأول منكر ينهى عنه هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات والإعراض عن شريعته وعدم تحكيمها .

وهذا الأمر والنهي لا يتحقق إلا بجهد بشري ، يتقابل فيه الحق مع الباطل ، ويكون بينهما الصراع والتدافع ، فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل واندحاره ، وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة ، ولا حتى مئات المعارك . إنه يتخذ عدة أشكال ، ويمتد في مساحات طويلة ومتعددة ، تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع ، إلا أنه قد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في أخرى ، وهكذا تمضي الحياة . فاستمراره يأتي من كثرة الأعداء ، من الداخل ومن الخارج ، ومن النفس والأقارب ، والأموال والأزواج(٧٨) ، ومن الشيطان وجنوده ومن الكفار .

ويأتي استمراره أيضا من سنة الله في إرادة تركيب الحياة بهذه الصورة ، غير أن الإنسان مع هذا قد وهب من القدرات والإمكانات والقوى ما يستطيع به — مع توفيق الله وهدايته — من السيطرة والانتصار ، وإن كان الصراع بين الحق والباطل كما أراد له الخالق سبحانه لن ينتهي حتى تنتهي هذه الدنيا ، إنه بدأ منذ أن خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له . فأبى الشيطان أن يسجد له .. فاحتال على آدم حتى أوقعه في المعصية .. ولكن آدم تاب إلى الله وقبل الله توبته ، ثم أهبط إلى الأرض ، وكذلك الشيطان ، ليواصل حركة الصراع والعداوة مع ذريته قال تعالى : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾(٧٩) .

ولكن الله سبحانه لم يكل الإنسان إلى قدراته الذاتية فقط ، وإنما زوده بالوحي والهدى الذي يستعين به على تحقيق العبودية لله ، والتخلص من كيد

---

(٧٨) قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ التغابن ١٤ — ١٥ .

(٧٩) سورة البقرة آية : ٣٦ .

لشيطان ، الذي يريد صرفه عن هذه العبودية ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٨٠] وقال تعالى محذراً بني آدم من غواية الشيطان وفتنته ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾[٨١] ، وقال تعالى : ﴿ الله ولي الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[٨٣] ويستمر الصراع بين الأنبياء وأتباعهم وبين الشيطان وجنوده ، وتنقسم البشرية إلى فريقين اثنين وإلى أمتين اثنتين أمة الحق وأمة الباطل ، أتباع الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وحده وإلى الحكم بشريعته .

وأتباع الشيطان من الزعامات والجماعات الضالة يرفضون ذلك ، ويتمسكون بالعادات والتقاليد والأعراف الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[٨٤] وقال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد ءاباؤنا ﴾[٨٥] ﴿ بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[٨٦] .

فالتدافع بين الحق والباطل سنة ربانية ، ملحوظة من خلال آيات الكتاب الحكيم ، ومن خلال الواقع البشري عبر التاريخ .

قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾[٨٧] وقال : ﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا

---

(٨٠) سورة البقرة آية : ٣٨ .
(٨١) سورة الأعراف آية : ٢٧ .
(٨٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧ .
(٨٣) سورة الأنبياء آية : ١٨ .
(٨٤) سورة المائدة آية : ٥٠ .
(٨٥) سورة الأعراف آية : ٧٠ .
(٨٦) سورة الزخرف آية : ٢٢ .
(٨٧) سورة المائدة آية : ٤٨

كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾[٨٨] ، وقال ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾[٨٩] تأمل هذه الآية الأخيرة وخاصة ختامها ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ . ولكن ما الحكمة وما الهدف في هذه السنة ، وهذا التدافع ، وما هو الصراع المحمود الذي تركز عليه الآيات ... هل هو الصراع الذي بنيت عليه النظرية (الديالكتيكية) الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي حتى تصل إلى مرحلة « تجلي المتفرد » كما يزعم ، أو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند « ماركس » ، والذي يفرضه كما يزعم تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة (البروليتاريا)[٩٠] .

إن كثيرا من الفلاسفة قديما وحديثا يحلمون بالمدينة الفاضلة ، والعالم الذي يسوده السلام ، وينتهي منه الصراع ، وكل منهم قد تخيل تلك المدينة حسب أفكاره وثقافته ، وما وصلت إليه تخيلاته ، فحين يراها أفلاطون مدينة للفلاسفة ، يراها ماركس مدينة للعمال (البروليتاريا) لكن ذلك لن يكون ، كما أراد الفلاسفة ومن نحا نحوهم في هذه الأعصر من الزعماء والسياسيين ممن حرموا نعمة الهداية الربانية ، فلم يدركوا أن الصراع والتدافع سنة ربانية ، لا سبيل للخلاص من شرورها ، ونيل خيرها إلا بتحقيق العبودية الكاملة لله ، ويكون الدين كله لله – في الأرض كلها – فإذا كان الدين كله لله في كل الأرض ، فإن البشرية ساعتئذ تخلص من الشرور ويسودها الأمن والسلام ، وبقدر ما يسود هذا الدين من الأرض والبشر بقدر ما يسود من الخير والأمن ، وتاريخ الأمة الإسلامية عندما كان الدين كله لله خير شاهد على ذلك ، والصراع أو التدافع الذي يعنيه القرآن ليس هذا الذي يقع بين الناس ، من التكالب على أغراض الدنيا وشهواتها التافهة ، سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد ، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات .

---

(٨٨) سورة يونس آية : ١٩ .

(٨٩) سورة هود آية : ١١٩ .

(٩٠) انظر عماد الدين خليل ، تفسير التاريخ الإسلامي ص ٢٤٤ .

إن التدافع الذي يعنيه القرآن من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير البشرية ، وذلك بتحقيق العبودية لله وحده ، وإزالة كل طاغوت يعبد من دون الله ، إنه كما قال تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[٩١] .

فالصراع المحمود هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض ، ويحرر البشرية من عبادة غير الله ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

يقول الله تعالى : ﴿ الذين ءامنوا يقاتلون في سبيل الله . والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾[٩٢] .

فهذا هو التدافع الذي عناه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وءاتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[٩٣] وبقوله : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾[٩٤] ، فالله يدفع بأهل الحق أهل الباطل ، وقيام المسلمين بهذا الواجب هو الذي ينفي عنهم شرور ذلك الصراع الرخيص ، وتركهم له يجلب هذا الصراع ، فإنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ، ولهذا قال ﷺ : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[٩٥] والواقع المعاش دليل لا يحتاج لأكثر من التدبر .

---

(٩١) سورة الأنفال آية ٣٩ .
(٩٢) سورة النساء آية ٧٦ .
(٩٣) سورة البقرة آية : ٢٥١ .
(٩٤) سورة الحج آية : ٤٠ .
(٩٥) رواه أبو داود في سننه ٣ /٢٧٤ ، ٢٧٥ وهو حديث صحيح انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني حديث رقم ١١ .

والهدف من هذه السنة هو شد العزائم لتحقيق المجتمع المسلم ، الذي ينفذ أمر الله وشرعه في الأرض كلها ، وفق قاعدة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٩٦] وهذا الصراع يكون ميدانا للكشف عن مواقف الجماعات البشرية ، والتعرف على أصالة المؤمنين ، ولتمييز الخبيث من الطيب ، كما قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[٩٧] وكما قال : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم ﴾[٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾[٩٩] وقال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون ﴾[١٠٠] .

فالتدافع سنة جارية في هذه الحياة ، والله – سبحانه وتعالى – يوجهنا إلى استثمار هذه السنة ، وأخذ خيرها ودفع شرها ، وهذا الشر كما قلنا لا يدفع إلا بالجهاد في سبيل الله ، وعندما يكون الدين كله لله في كل الأرض ، وهذا لا يكون إلا بالجهد والجهاد وإقامة المعروف والنهي عن المنكر . قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[١٠١] والجهاد في سبيل الله وإقامة الدين هو وظيفة الأمة المسلمة على مر العصور وتوالي الأنبياء ، وإن الأمة الإسلامية كلما استعملت سلاح الجهاد في سبيل الله فإن نصر الله سيأتيها ويتحقق لها بوعد الله الصادق ، قال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾[١٠٢] ، وقال : ﴿ هو الذي أرسل

---

(٩٦) انظر ، عماد الدين خليل ، تفسير التاريخ ص ٢٤٣ :
(٩٧) سورة محمد آية : ٣١ .
(٩٨) سورة الأنفال آية : ٣٧
(٩٩) سورة التوبة آية : ١٦ .
(١٠٠) سورة العنكبوت آية : ١ – ٢ .
(١٠١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .
(١٠٢) سورة المجادلة آية : ٢١ .

رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[١٠٣] .

إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسئوليتها الحركية الكبرى في العالم ، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية ، تتجاوز حدود الزمان والمكان ، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس ، ذلك الموقع الوسط المميز المنفرد ، الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وقتالا بالكلمة وكفاحا مسلحا .. ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[١٠٤][١٠٥] .

٣ - الاطلاع على معالم تاريخ الإنسانية :

ومن أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها دارس التاريخ التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ، كيف بدأت ؟ وما هي الأطوار التي مرت بها ؟ وما هي أهم المعالم في تاريخها ؟ وما هي أهم المعالم التي يلزم التركيز عليها ؟[١٠٦] .

أ - معرفة تاريخ الأنبياء عليهم السلام ، ودعوتهم لأقوامهم ، ومواقف

---

(١٠٣) سورة الصف آية : ٩

(١٠٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(١٠٥) عماد الدين خليل تفسير التاريخ ص ٢٤٩ .

(١٠٦) كتب هـ . ج ويلز كتابا في أربعة مجلدات وسماه معالم تاريخ الإنسانية ، وترجمه إلى العربية عبدالعزيز توفيق جاويد ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر . وإذا تصفحت الكتاب لترى ما هي معالم تاريخ الإنسانية فما تجد فيه سوى تاريخ الجاهليات ، فقد خصص الكتاب الأول عن العالم قبل الإنسان ، فبحث في تاريخ الصخور وعصر الزواحف والثدييات ، والكتاب الثاني عنوانه . كيف تكون الإنسان ومن مباحثه ، القردة وأشباه الإنسان ، والإنسان « النياندرتالي » وإنسان العصر الحجري والفكر المبكر . والكتاب الثالث عن المدنيات الأولى ، ومن مباحثه الشعوب الزراعية والبحرية والآلهة والنجوم والكهنة . ودرس في المجلد الثاني بلاد اليهود والإغريق والهند والفرس والامبراطورية الرومانية . وفي المجلد الثالث درس المسيحية ، وكتب عن الإسلام فصل واحد في ٥٣ صفحة بعنوان محمد والإسلام والمجلد الرابع عن العصر الحديث فأين تاريخ الأنبياء والرسل ؟ وأين تاريخ الإسلام ودوره وأثره في حياة البشرية ؟!!

هؤلاء الأقوام منهم ، وجهاد الأنبياء لتبليغ الرسالة ، وتحملهم الأذى في سبيل ذلك ، ومعرفة المصير الذي آل إليه من صدق الأنبياء والرسل ومن كذبهم وخالفهم .

ب - وكذلك التعرف على سيرة النبي محمد ﷺ ، باعتباره خاتم الرسل ، وصاحب الشريعة الخاتمة والناسخة لغيرها من الشرائع ، والعامة للثقلين الإنس والجن . ولكون سيرته ﷺ تطبيق عملي للشريعة المكلفين بالعمل بأحكامها . ولكي نتعرف على كيفية التربية التي مارسها رسول الله ﷺ مع أصحابه حتى أخرج منهم ذلك الجيل المثالي الفريد ، الذي خوطب بقول الله تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾(١٠٧) وكيف وصلوا إلى هذه القمة السامقة من التربية المتكاملة ، والتي تعتبر بحق معلماً عاليا في تاريخ الإنسانية كلها .

ولنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم وتربيته على منهاج النبوة .

ج - التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين بوجه أخص ، وتاريخ الصدر الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، لأنهم الذين قام تطبيق أحكام الشريعة لأول مرة على جهودهم ، ونشروا الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وهم خير القرون وهم الذين دونوا العلوم ، ورووا لنا السنن والآثار عن رسول الله ﷺ ، كما أننا قد أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين والاهتداء بهديهم ، قال ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » (١٠٨) .

د - ومن أبرز المعالم في تاريخ الإنسانية سير العلماء والمجاهدين ، والدعاة والمصلحين ، وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته فينبغي العناية بها والتعرف عليها .

هـ - ومن أهم المعالم في تاريخ الإنسانية معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية ، وذلك يتبين بمعرفة التجارب التي انتهت إليها الجاهليات المتعددة ،

---

(١٠٧) سورة آل عمران آية ١١٠ .

(١٠٨) حديث صحيح سبق تخريجه ص ٥٣

وبيان أحوالها الاجتماعية ، وكيف رفعها الإسلام بمنهجه المصلح إلى المستويات السامقة عندما انطوت تحت لوائه وطبقت شريعته . قال تعالى ممتنا على هذه الأمة ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾(١٠٩) ، ويتبين ذلك بتتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في حياة المجتمعات التي حكمها وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التي كانت سائدة . وكيف بنى تلك المجتمعات بناء جديدا منطلقا من العقيدة الإسلامية وقائما على العدل والحق .

٤ – التأكيد على الحقائق الهامة في حياة الإنسان

ومن ثمرات دراسة التاريخ أنه من الممكن الاستفادة من عرض وقائع التاريخ في إثبات وتأكيد حقائق هامة في حياة الإنسان ، ومن هذه الحقائق :

أ – أن توحيد الله هو أول ما عرفت البشرية ، فمن استعراض التاريخ يتبين لنا أن الأصل في البشرية أنها بدأت تاريخها وحياتها مهتدية بشرع الله وهداه ، ثم طرأ عليها الانحراف والشرك بعد زمن ، فقد جاء عن ابن عباس – رضي الله عنه – أنه قال « كان بين نوح وآدم عشرة قرون ، كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا . فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين »(١١٠) وبعد ذلك صار تاريخها دورات متعاقبة من الهدى والضلال . فكلما انحرفت البشرية عن التوحيد أرسل الله لهم رسولا ليردهم إلى الهدى وعبادة الله وحده . والإسلام هو الدين الذي بعث الله به المرسلين ، ورضيه دينا للعالمين أولهم وآخرهم ، كما قال تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(١١١) وقال ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام

---

(١٠٩) سورة الجمعة آية : ٢ .

(١١٠) رواه ابن جرير في التفسير ٤/٢٧٥ وقال هو كذلك في قراءة عبدالله ابن مسعود « كان الناس أمة واحدة فاختلفوا » ورواه الحاكم في المستدرك ٢/٥٤٦ وصححه .. انظر تفسير ابن كثير ١/٣٦٤ وفي ص ٣٦٥ صرح بتصحيح قول ابن عباس سندا ومعنى .

(١١١) سورة آل عمران آية : ١٩ .

دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(١١٢) ومن هنا ندرك ضلال التصورات الجاهلية التي لا تهتدي بوحي الله ، والتي تزعم أن البشرية بدأت وثنية ثم تطورت أديانها حتى انتهت إلى التوحيد .

يقول الأستاذ محمد قطب : « الحقيقة أن عبادة الأب والطوطم والوثن لم تكن هي تطور العقيدة الذي وصل في النهاية إلى التوحيد ، إنما كان هذا تطور الانحراف البشري عن العقيدة الصحيحة في عصوره المختلفة »(١١٣) ولو أننا سلمنا بمثل تلك المقولة الضالة التي ترجم بالغيب فما دور الأنبياء . ولماذا كانوا يبعثون ، وهل جاء نبي من الله ليقول للناس اتركوا عبادة الطوطم واعبدوا الوثن .. سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم .

إن كل نبي كان يأتي قومه فيقول لهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾(١١٤) وهذه هي الفطرة ، التي فطر الله الناس عليها ، كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه « يقول الله وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم »(١١٥) وهي صبغة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾(١١٦) فالإنسان مخلوق لعبادة الله وحده وأول البشر آدم عليه السلام نبي مكلم كما جاء في الحديث الصحيح(١١٧) .

ب – ومن هذه الحقائق أن الله – سبحانه وتعالى – هو الذي خلق الإنسان ، وخلق الكون كله ، وأن الإنسان مستخلف في هذا الكون ، الذي سخر له ، ولذلك لا يشعر المسلم الذي يؤمن بهذه الحقيقة بأي عداء أو مناقضة بينه وبين الكون ، بل يجد التيسير والانسجام ، لأن هذا الكون عابد

---

(١١٢) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(١١٣) محمد قطب ، معركة التقاليد ص ٨٣ .
(١١٤) سورة هود آية : ٥٠ ، وآية ٦١ ، وآيه ٨٤ .
(١١٥) رواه مسلم ٤ /٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥ .
(١١٦) سورة البقرة آية ١٣٨ .
(١١٧) رواه أحمد من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله . أي الأنبياء كان أول قال : آدم . قلت يا رسول الله : ونبي كان . قال : نعم نبي مكلم :(انظر تخريج مشكاة المصابيح) حديث رقم ٥٧٣٧ .

لله مسبح له[118] ، والمؤمن عابد لله ومتبع لشرعه ، أما الكافر فإنه شاذ عن هذا الكون الطائع لله المسبح بحمده ، ولذلك يشعر بعداء نحو الكون ، ويشعر بفخر وخيلاء إذا تمكن من معرفة شيء يسير من أسرار هذا الكون وقوانينه ، فيعلن بكل تبجح أنه انتصر على الطبيعة وقهرها ، ويشعر أنه سيد الكون والمهيمن عليه ، وأنه يعمل ما شاء كيف شاء دون ضابط ، أما الإنسان المؤمن فيعرف أنه مستخلف في هذه الأرض لعمارتها بشرع الله ، وأنه ليس له أن يخرج عن شرط الخلافة ، وهي تلقي الهدى من الله والقيام بعبادته .

ج – ومن الحقائق أيضا أن هذا الإنسان قد خلق خلقا سويا في أحسن تقويم منذ اللحظة الأولى لخلقه ، وأن الله خلقه بقصد وبعلم ، ولوظيفة ودور مقدر له في هذا الكون ، وأن له رسالة محددة ، فلم يخلق صدفة ولا عبثا ، ولا تطورا من حيوانات أو حشرات كما يزعم الذين لا يؤمنون بالله – أصحاب مدرسة النشوء والارتقاء – فقد خلق الله – سبحانه وتعالى – آدم – عليه السلام بيده من طين لازب ، ثم نفخ فيه الروح وأكرمه وأعلى منزلته ، حيث أمر الملائكة أن تسجد له ، وبما وهبه من ميزات وقدرات كثيرة ، من العقل والشعور ، والعاطفة والفكر والمقدرة على حمل العقيدة والجهاد في سبيل إقرارها واستمرارها ، قال تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾[119] وقال ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾[120] وقال ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[121] وقال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾[122] .

---

(118) قال تعالى ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ سورة الحديد آية ١ وقال تعالى : ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ سورة النور آية ٤١ وقال : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ سورة سبأ آية ١٠ .

(119) سورة التغابن آية : ٣ .

(120) سورة التين آية : ٤ .

(121) سورة الإسراء آية : ٧٠

(122) سورة ص الآيات ٧١ – ٧٣

د - ومن الحقائق المهمة التي نستفيدها من دراسة التاريخ هي المعرفة بأن هذا الإنسان بحاجة دائما إلى من يذكره ويرده إلى الصواب ، لأنه مع تطاول الزمن ينحرف عن الحق لأسباب عديدة ، ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده ، إنما بعث له الرسل وأنزل معهم الكتب ليعود إلى الحق ، ويستقيم على المنهج كلما حاد وانحرف ، وهذا من أوضح الدلائل على قصور العقل البشري ، وأنه لا يهدي وحده ولا يستقيم على الطريق بغير وحي الله وشرعه . قال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾(١٢٣) .

هـ - ومن الحقائق أيضا إثبات أن الأمة الإسلامية هي صاحبة الدور المؤثر والفعال في تاريخ البشرية ، وأنها تمثل دور الاستقامة والعدل ، فهي جديرة بأن تكون هي المحور الذي يتحول من حوله تاريخ العالم ، لأنها هي الأمة الشهيدة على الأمم كلها ، بسبب اهتدائها بمنهج الله قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا(١٢٤) لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾(١٢٥) وهي خير أمة أخرجت للناس بسبب تطبيقها لشرع الله كما قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(١٢٦) .

٥ - الصبر على المشاق :

ومن فوائد دراسة التاريخ التصبر على ما يصيب المرء أثناء قيامه بواجبه في الحياة ، فإنه إذا ما اطلع على سير العلماء والدعاة والمصلحين ومن قبلهم الأنبياء - عليهم السلام - وما نالهم من الأذى والعذاب في سبيل الله رضي بها

---

(١٢٣) سورة الحديد آية : ١٦ .
(١٢٤) أمة وسطا أي عدولا خيارا ، وانظر تفسير ابن كثير ١ /٢٧٥ - ٢٧٦ .
(١٢٥) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(١٢٦) سورة آل عمران آية ١١٠ .

أصابه ، وزاده ذلك ثباتا على الحق ، وطمأنينة في النفس ، فلا يضجر ولا يستسلم أو يتنازل عن شيء من مطلبه ، خاصة إذا كان ذلك يتصل بأمر عقيدته ودينه . لأنه قد عرف من خلال أحداث التاريخ أنه ليس وحده الذي أصيب وابتلى ، وإنما سبقته أجيال وأجيال ، قال تعالى مخبرا عن ثبات قوم من المؤمنين أحرقوا بالنار ولم يصدهم ذلك عن دينهم ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾(١٢٧) .

وقال ﷺ عندما جاءه خباب شاكيا ما يصيبهم من أذى المشركين ، وطالبا منه أن يدعو لهم فقال : « لقد كان من قبلكم يمشط بأمشاط الحديد ، ما دون عظامه من لحم أو عصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه ، فيشق اثنين ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، ولَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه »(١٢٨) .

٦ – القيمة النفعية المادية :

ومن فوائد دراسة التاريخ أن له قيمة نفعية مادية ، ولهذا كان الخلفاء والحكام والسلاطين والعديد من القادة يعنون بدراسته ، لأنه يكسبهم خبرة في التعامل مع الناس ، كما أن فيه إعانة لهم على حسن تصريف الأمور ، وسياسة الناس ، ويجدون فيه من التجارب وقياس الأمور المتماثلة والمتشابهة ما يفيدهم .

٧ – حصانة ضد الخرافات والبدع :

ومن ثمرات دراسة التاريخ أنه يوجد لدى دارسه حصانة فكرية ضد الخرافات والجهل والشعوذات ، وذلك بما يعرفه به من طبائع الأشياء ،

---

(١٢٧) سورة البروج الآيات من ٤ – ٧ .

(١٢٨) رواه البخاري في صحيحه ٧ /١٦٥ من فتح الباري .

وحقائق الأمور ، وحيل الناس . لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها ، وقد استخدم كثير من العلماء المنهج التاريخي في كشف الأباطيل والخرافات ، وبيان المحدثات والبدع في الشرع ، لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون بعدهم دينا . وقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله : « مثلما أنا عليه وأصحابي »(١٢٩) .

ومن أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيميه وتلميذاه الحافظ ابن كثير والعلامة ابن القيم ، يقول ابن تيمية في رسالة له ناقش فيها قضية المشهد المنسوب للحسين بمدينة القاهرة (لم يكن على عهد الصحابة والتابعين ، وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام – لا الحجاز ولا اليمن ولا الشام ولا العراق ولا المغرب – لا على قبر نبي ، ولا صاحب ، ولا أحد من أهل البيت ، ولا صالح أصلا ، بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك . وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس ، وتفرقت الأمة ، وكثرت فيهم الزنادقة المتنسبون إلى الإسلام ، وعلت فيهم كلمة البدع ، وذلك في دولة المقتدر(١٣٠) في أواخر المائة الثالثة . فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية(١٣١) بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلى أرض مصر ، وقريبا من ذلك ظهر بنو بويه الأعاجم ، وكان في كثير منهم زندقة وبدع قوية ، وفي دولتهم قوى بنو عبيد القداح بأرض مصر ، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب

---

(١٢٩) رواه الترمذي ٥/ ٢٦ وحسنه والحاكم ١/ ١٢٨ وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢٠٣ و ٢٠٤ .

(١٣٠) هو الخليفة العباسي جعفر بن المعتضد بالله ، بويع بالخلافة بعد أخيه المكتفي في سنة ٢٩٥ هـ ، وله من العمر ١٣ سنة ، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه ، وقد انخرم نظام الإمامة في أيامه ، وصغر منصب الخلافة ، وكانت أمه قد استولت على الأمر والنهي ، حتى أنها جعلت القهرمانة « ثمل » تجلس في دار العدل ، وتنظر في القصص ، فكانت تجلس وتحضر القضاة والأعيان وتوقع « ثمل » على المراسيم ، وقد خلع المقتدر مرتين وفي الثالثة قتل سنة ٣٢٠ هـ وعمره ٣٨ سنة « الذهبي » سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٣ .

(١٣١) نسبة إلى عبيد الله القداح الديصاني ، وقد تسموا في بلاد المغرب بالفاطمية ، ونقاة المؤرخين والعلماء ينكرون نسبهم لآل البيت ، وهم زنادقة كفار ، أظهروا البدع وسب الصحابة ، حتى قيل فيهم « ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفر المحض » . انظر مجموع فتاوى ابن تيميه ٣٥/ ١٢٩ .

ابن علي - رضي الله عنه - بناحية النجف ، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول إن قبر علي هناك ، وإنما دفن علي - رضي الله عنه - بقصر الإمارة بالكوفة »[١٣٢] .

٨ - له فضائل أخلاقية :

ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية ، لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها ، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم ، أو تشويه تاريخهم وحركتهم ، وإساءة الظن والقول فيهم . كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية ، أو انحرافات عقيدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها ، بسبب مراكزهم وسلطانهم وأعلامهم ، مما يجعل معاصريهم يغترون بذلك ، فيكيلون لهم المدح والثناء ، وينالون منهم التعظيم ، وتضفى عليهم ألقاب البطولة والحكمة في الرأي ، وحسن السياسة والتدبير .

لكن التاريخ بما يحفظه من الحقائق والوثائق يصحح مثل هذه الأمور ، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم ، من الخدمات الحقيقية لا الدعائية ، والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث[١٣٣] .

---

(١٣٢) ابن تيمية ، رأس الحسين ص ١٦٧ و١٦٨ .

(١٣٣) من الأمثلة على ذلك الإمام محمد بن عبدالوهاب ، الذي قام بدعوة إصلاحية لمحاربة الشرك والخرافات والبدع ، فنشر السنة وصحح العقيدة في وسط الجزيرة العربية ، فقام أدعياء العلم وأرباب المصالح والسلطة بنشر الدعاية السيئة ضده ، وتشويه دعوته وصور على أنه من الخوارج ، أو صاحب مذهب جديد ، حتى أن الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله رغم سعة اطلاعه فإنه في كتابه المذاهب الإسلامية ١/٢٣٥ يجعل الوهابية مذهبا مستقلا ، ويصنفها ضمن المذاهب المنحرفة مثل القديانية والبهائية ، لكن بعد انتشار مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلاميذه في العالم الإسلامي ، والوقوف على حقيقتهم ، تصححت تلك الصورة وعرف للشيخ قدره وجهده .

ومن الأمثلة أيضا [illegible] الذي وصف بالبطولة ، وأنه المحرر للشعب التركي من سلطة السلاطين ، وقامت [illegible] في البلاد العربية ، حتى أن أمير الشعراء أحمد شوقي مدحه [illegible] :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

[illegible] ثم ما لبث أن ظهر على حقيقته ، حيث ألغى الخلافة الإسلامية واللغة العربيه

٩ - المساعدة على فهم الحاضر :

ومن الثمرات التي يكتسبها دارس التاريخ « فهم حاضر الإنسان والقدرة على تحليله خاصة إذا تماثلت الظروف وتشابهت الدوافع وفي الأمثال العربية « ما أشبه الليلة بالبارحة » ، والانجليز يقولون « التاريخ يعيد نفسه » .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى وحدة التصرفات وتشابه الأقوال عند تشابه البواعث قال تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم . قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾(١٣٤) وقال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾(١٣٥) وقال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به . بل هم قوم طاغون ﴾(١٣٦) فهم لم يتواصوا بالتكذيب بالرسل . لكن اشتراكهم في الطغيان . هو الذي وحد مواقفهم من الأنبياء . كما أن بعض القضايا الحاضرة لها جذور تاريخية بعيدة فلا بد من معرفة الماضي لكي نقيم الحاضر . ومن الأمثلة على ذلك الصراع بين الإسلام والنصرانية والصراع بين اليهود والمسلمين في فلسطين ومثل حرب الخليج القائمة الآن بين العراق وإيران ... إلى غير ذلك .

= حتى في الأذان وألغى المحاكم الشرعية ، وفرض العلمانية على الشعب التركي المسلم ، ونزع الحجاب عن المرأة .

ثم ظهرت الوثائق التاريخية مصدقة للأفعال ، فأثبتت عمالته للانجليز ، وصلته بالماسونية ، حتى أنه عندما حضرته الوفاة استدعى السفير الانجليزي ، وطلب منه أن يتولى حكم تركيا من بعده ، فاعتذر السفير بلباقة ، حتى لا تتكشف العمالة « انظر مصطفى طوران . أسرار الانقلاب العثماني ، والرجل الصنم لضابط تركي ، ومذكرات رضا نور ، نشرت بمجلة المجتمع الكويتية على حلقات في العامين ١٤٠١ / ١٤٠٢ هـ .

(١٣٤) سورة البقرة آية : ١١٨ .

(١٣٥) سورة غافر آية : ٥ .

(١٣٦) سورة الذاريات آية ٥٢ ، ٥٣ .

١٠ - معرفة القرون الفاضلة :

ومن أهم ثمرات دراسة التاريخ الإسلامي معرفة القرون الفاضلة ، التي قال فيها رسول الله ﷺ : خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم[١٣٧] . ومعرفة أهل هذه القرون وسماتهم وخصائصهم والتعرف على تراجمهم ، وأخبارهم في طلب العلم ، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي الزهد والعبادة ، وفي بناء الدولة الإسلامية ، ونشر العدل ، ودفع الظلم ، إلى غير ذلك من أحوالهم ، وأيضاً رؤية النماذج الممتازة ، التي تعد بالآلاف ، والتي قامت بتطبيق شرع الله في الواقع العملي ، وثمرة هذه المعرفة تتضح في جانبين

١ - بيان البدع والحوادث ، ومعرفة وقت ظهورها .

٢ - إعادة الأمل وبعث الهمة لمحاولة إعادة الحياة الإسلامية إلى الواقع العملي ، وذلك بتنقية المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من الانحرافات ، والتطبيق العملي لتلك المفاهيم الخالصة من شوائب الانحرافات .

---

(١٣٧) متفق عليه ، انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣ /١٨ .

الباب الثاني

منهج كتابة التاريخ الإسلامي

الفصل الأول : المنهج وأهميته

الفصل الثاني : مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي

الفصل الثالث : خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي

الفصل الرابع : غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه

الفصل الخامس : قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي

الفصـــل الأول

المنهـــج وأهميته :

النهج والمنهج والمنهاج كلها بمعنى واحد ، وهي تعني الطريق الواضح ، يقال أنهج الطريق أي استبان وصار شيئا واضحا بينا ، ونهجت الطريق إذا أبنته وأوضحته ، ونهجت الطريق أيضا إذا سلكته ، وفلان يستنهج سبيل فلان أي يسلك مسلكه(١) فهو يعني السبيل الفكري ، والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره بقصد تحصيل العلم .

وكان العلماء المسلمون يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد ، ولذلك وضعوا أصولا وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل أصول الحديث « المصطلح » وأصول التفسير وأصول الفقه .

أما المنهج في الدراسات التاريخية فإنه يعني القواعد والشروط التي يجب مراعاتها عند معالجة أي حدث تاريخي . سواء بالكتابة والتأليف ، أم بالدراسة والتعليم وهذه الشروط تتناول الكاتب ذاته ، كما تتناول المصادر التي يستمد منها ، كما أنها تعنى بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة ، وتعنى كذلك بالأسلوب والمصطلحات .

وهنا لابد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة لفظة « المنهج » ، وتحديد المراد بها ، فقد تطلق ويراد بها التصورات والقيم والمبادئ التي يلتزمها الباحث ، كما تطلق ويراد بها طريقة معينة في البحث العلمي لمادة من المواد .

---

(١) الجوهري ، الصحاح ١ /٣٤٦ « مادة نهج » .

ولفظة المنهج وحدها تعنى الطريق أو السبيل ، ويحدد المراد منها ما تضاف إليه . فإذا قلنا : المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ دل ذلك على التصورات والمبادئ التي يضعها الإسلام لتكون حدودا ومنطلقات عامة ، تحكم دراسة التاريخ وتفسيره ، وفقا لتلك المبادئ والمفاهيم المنبثقة من الإسلام .

أما إذا قلنا : منهج البحث التاريخي ، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية ، فإنه يعنى القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها العلماء ، بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات ، والتأكد من صوابها ، فيصبح المنهج بهذا المعنى الأخير أداة بحث ممكن استخدامها - إلى حد ما - من قبل مجموعة من الباحثين ، وإن اختلفت مناهج حياتهم وعقائدهم وتصوراتهم .

أما المنهج بالمعنى الأول فإنه عند المسلم محكوم بالتصور الإيماني ، والالتزام العقيدي ، أي يلتزم بمقومات العقيدة وقيمها ، وتصوراتها عن الله والكون والحياة ، وعن الإنسان ونشأته ومركزه في هذا الكون ، ووظيفته وغاية وجوده ، ومصيره الذي ينتهي إليه .

ولابد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي في منطلقاته وتصوراته ، وأن تساعد كتابته على بناء العقيدة الصحيحة ، وقيمها التربوية والخلقية .

وعلى هذا الأساس من الالتزام بالعقيدة تقاس أعمال المؤرخين والباحثين ، وتوزن مناهجهم ومذاهبهم في التأليف ، لأن الباحث المسلم ليس مطلق الحرية في اتخاذ المواقف ، وتفسير الحوادث ، وتقييمها كيفما عَنَّ له الخاطر . إنما هو مقيد بالقواعد الشرعية ، والأصول العلمية المتبعة في إثبات الأخبار وردها . فليس من حقه أن يتهم أحدا بناء على رواية لم يتأكد من صحتها ، وعدالة رواتها ، واتصال سندها ، ثم إذا ثبتت الرواية فإن هناك قيودا شرعية يلزم مراعاتها في نقد الأشخاص ، وملاحظة مقاماتهم ، مثل أن يكون أحد الخلفاء الراشدين ، أو من المبشرين بالجنة ، أو أحدا من الصحابة - رضي الله عنهم ، أو الأئمة ، لأن الكلام في نقد مثل هؤلاء ليس كالكلام في أحد

غيرهم ، كما أن الكلام في عموم الناس له حدود وضوابط ، ويجب أن يكون بحق وبعلم .

وهذا المفهوم العقيدي للمنهج والالتزام به في تلقي العلم ، ومناهج البحث والدراسة هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم ، فالباحث المسلم ينطلق في بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات ثابتة وطمأنينة علمية ، لأنه ملتزم بمفاهيم عقيدته ، وتصورها الشامل عن الوجود ، والتي تلقاها عن طريق الخبر الصادق ، الموحى به من الله إلى رسول من رسله .

أما غير المسلم فإنه لعدم تلقيه من الوحي الرباني في تفسير هذا الوجود ، وعدم معرفته لحقيقة الربوبية والعبودية لله ، ولوظيفة الإنسان ودوره ولحقيقة نشأته ومصيره ولعلاقته بالكون من حوله ، فإنه يخبط بالظنون والأوهام ، ويرجم بالغيب بدون[٢] دليل ، ولذلك يكثر بينهم الاختلاف ، ولا يصلون إلى حقائق مطمئنة في هذه الأمور ، ويعيشون في اضطراب وحيرة وشك وخوف من هذا الكون ، وفي صراع نفسي وتشتت ذهني ، وكل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على نتائج دراساتهم ، والناظر في حال البشرية المعاصرة – من الأمم التي لا تهتدي بهدى الله – ونتاجها الفكري يدرك هذا بأجلى صورة[٣] ، فهم لا يدرون ما أصل نشأتهم ، ولا يعرفون التصور

---

(٢) قال تعالى حاكيا اختلافهم فيما هو أقل من هذه الأمور ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ﴾ (الكهف ٢٢) وقال تعالى ذاكرا صفة من صفاتهم ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ (سبأ ٥٣) .

(٣) من الأمثلة على هذا الاضطراب والحيرة قول الشاعر النصراني إيليا أبو ماضي :

جئت لا أعلم من أين   ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي   طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا إن شئت   هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي   لست أدري

إلى أن يقول :

الصحيح عن الإنسان ووظيفته في هذه الحياة ، ولكن المسلم يدري ويعلم ذلك من الوحي الذي أرسل الله به رسله ، ويعي دوره الحقيقي في هذا الوجود ، ومهمته في هذه الحياة ، وبذلك يمضي في رحلته على هذا الكوكب ثابت الخطو ، مكشوف البصيرة مأنوس الضمير ، ومن هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله والرضا بما يقع له(٤) ، فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ ويعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأنه مجزي على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ، ولن يمضي مفردا »(٥) .

وإنك لتجد في أبحاث الأوربيين عن الحياة والإنسان ضروبا من التخمين والخبط ، وإلقاء القول دون دليل . فهذا الدكتور « هـ . ح ويلز » صاحب كتاب معالم تاريخ الإنسانية يخصص الجزء الثاني من كتابه في البحث عن كيفية تكون الإنسان ومراحل تطوره . فيبحث في القردة ، وأشباه الإنسان

=ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديا   لست أدري
ولماذا لست أدري   لست أدري

فهو يحكي الضياع والقلق والحيرة التي يعيشها هو وأشكاله من أبناء عصره لعدم اهتدائهم بهدى الله « انظر عبداللطيف شرارة ، إيليا أبو ماضي ومختارات من شعره ص ٢١٥ .

(٤) يحكي الأستاذ سيد قطب عند تفسيره قول الله تعالى في سورة الحجرات ﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ عن تجربة عاشها بنفسه ، قبل أن يمن الله عليه بالحياة في ظلال القرآن والإيمان ، حيث عبر عن ذلك بقوله :

وقف الكون حائرا أين يمضي؟   ولماذا وكيف لو شاء يمضي ؟
عبث ضائع وجهد غبين   ومصير مقنع ليس يرضى

فيقول معلقا على ذلك « فأنا اليوم – ولله الحمد والمنة – أعرف أنه ليس هناك جهد غبين ، فكل جهد مجزي عليه ، وليس هناك تعب ضائع ، فكل تعب مثمر ، وأن المصير مرض ، وأنه بين يدى عادل رحيم ، وأنا أشعر اليوم – ولله الحمد والمنة – أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبدا ، لأن روح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه وتسبح بحمده ، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له في طاعة وفي رضا وفي تسليم ، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور والتفكير ، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخم في مجال العمل والنشاط والتأثر والتأثير ، لأن الإيمان قوة دافعة ، وطاقة مجمعة ، فوق أنه طمأنينة ورضا » (في ظلال القرآن ٦ /٣٣٥٢) .

(٥) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٦ /٣٣٥٢ .

« النياندرتالي » وإنسان العصر الحجري ، والعصر الجليدي ، على أساس أن هذا الإنسان الذي عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر ، في تكوينه الجسمي والعقلي ، وفي مداركه وعواطفه إلى آخر هذه الأحكام التي لا دليل عليها ، بل هي مخالفة للنشأة البشرية ، التي عرفناها من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهي أن أول البشر هو آدم عليه السلام ، وأن الله خلقه بيده من تراب ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله في أحسن تقويم ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له الملائكة ، ومن المؤسف حقا أن يكون هذا المنهج في البحث الذي يعتمد على الظنون والأوهام ، ويعرض عن الوحي الرباني ، ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفريات والهياكل العظمية والجماجم ، هو طريق كثرة من الباحثين(٦) المسلمين الذين كتبوا فيما يسمى بفلسفة التاريخ .

فاختلاف الناس في الدراسات التي تعنى بشئون الإنسان وعدم وصولهم إلى نتائج واحدة كما هو الحال في العلوم التطبيقية والرياضية(٧) دليل واضح على أنه لابد من التلقي في هذه العلوم عن الله – سبحانه وتعالى ، والرجوع لوحيه المنزل على رسله . فإنه لا يكفي في الدراسات الإسلامية – على مختلف أنواعها – للوصول إلى الحق والصواب اتباع الطرق المنهجية ، بل لابد من توفر شروط نفسية وإيمانية في الباحث ، وذلك نتيجة للاختلاف بين المسلم وغيره في أصل النظرة للحياة وللعلم وللكون . ولربوبية الله وألوهيته ، ولأصل النشأة الإنسانية ، والغاية منها ، والدور الموكل للإنسان في هذه

---

(٦) انظر مثلا لذلك كتاب المدخل إلى التاريخ « تأليف نور الدين حاطوم ونبيه عاقل وزميليهما ص ٣١ وما بعدها ، حيث وضعوا هذا العنوان في كتابهم « أسلاف الجنس البشري » فقالوا وفي العهد الحديث المتأخر للحياة « البايوسين » ظهرت طائفة من المخلوقات الصغيرة نشأت عنها أنواع القردة الحديثة من أشباه البشر ونشأ الإنسان نفسه » .

(٧) في العلوم الرياضية والتجريبية البحتة لا تؤثر العقائد والمفاهيم الفكرية على نتائج البحث فمثلا ٢ + ٢ = ٤ فهي قضايا مسلمة سواء قال بها مسلم ، أو شيوعي ، أو أوربي ، لكن يكمن الخلاف في طريقة التعليم وأهدافه . أما الدراسات الاجتماعية والفكرية فهي موضوع العقائد ، لذلك يختلف فيها الباحثون كثيرا ، ولا يحل الاختلاف فيها إلا الرجوع للنصوص الشرعية ، وتوحيد مصدر التلقي ، كما أوضحنا ذلك في مبحث ضوابط منهج العلم . ولأن النص في قضايا الدين مثل التجربة في ميدان العلوم الرياضية ، يقف العالم أمامهما ويستنطقهما ولا يفرض عليهما رأيا مسبقا .

الحياة ، والمصير الذي يؤول إليه بعد الموت ، فإذا لم يكن بيننا وبينهم اتفاق في الأصول ، فلا يمكن أن نتفق في الفروع ، وهذه الشروط المنهجية في البحث إنما تكون نتائجها واحدة للمتفقين في أصل النظرة ، وزاوية الرؤية ، فبحسب التصورات والأهداف والقناعات الفكرية تكون نتائج الدراسات وتوجهاتها ، والباحث المسلم المتفقه في دينه ، العالم بمقاصده وأهدافه يتميز عن غيره بأن تصوراته وأهدافه وقناعاته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية . وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب إلى العدل والصواب . قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .. ﴾[٨] فالكتاب الذي جاء به الرسل هو الذي يتلقى منه الحق والعدل ، ويقام على منهجه القسط في الأرض بين الناس[٩] ، ولا يكون الحق والقسط في غير كتب الله ووحيه المنزل على رسله .

ومن المعلوم أن التزام الصدق وطلب الحق أمر نفسي خلقي ، يقوم على التربية والخوف من الله وابتغاء مرضاته ، وليس أمرا فكريا منهجيا . ومن ثم تكون معرفة الحق والالتزام به مرهون بالإيمان بالله ، المقتضى للشهادة بالقسط والعدل ، وليس في مقدور القواعد المنهجية وحدها إلزام أحد باختيار الحق والخير دون الشر والظلم ، فالتزام الصدق لا يقوم إلا على التجرد لله وطلب رضاه ، ولا يطلب هذا من غير المؤمن الملتزم بإيمانه ، العامل به في واقع حياته وسلوكه . ومن هنا تظهر أهمية علوم الشريعة لعلم التاريخ ، إذ إن علوم الشريعة تعتبر من العلوم الأساسية للمؤرخ المسلم ، وليست من العلوم المساعدة كما يذكر ذلك من كتبوا في مناهج ومصادر علم التاريخ .

فمن لوازم المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم ، وعقيدة صحيحة ، ودراية بعلوم الشريعة وفقهها ، إضافة إلى تخصصه التاريخي وتمكنه من ذلك .. وإلا أصبح التاريخ الإسلامي ألعوبة لمئات المناهج والأهواء[١٠] . لأن هذا التاريخ هو

---

(٨) سورة الحديد آية : ٢٥ .

(٩) راجع تفسير الآية في ابن كثير ٨ /٥٣ .

(١٠) لقد اشتغل بدراسة التاريخ الإسلامي وكتابته وتحليله في العصر الحاضر من لا يعرف أحكام =

في الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة ، مستمدة من مصدر صادق وثيق ، من وحي العليم الخبير القدير الحكيم السميع البصير ، المحيط علمه بما كان وما يكون ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[١١] فالالتزام بالمنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ضرورة علمية ومصلحة إنسانية ووظيفة شرعية . يقول الأستاذ سيد قطب « إنه لمن الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ، وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان ، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وطريقته في الاستجابة للحياة كلها في ظل العقيدة ، وهذه الخصائص لا توجد عند غير الباحث المسلم الملتزم بإسلامه »[١٢] .

إنه مِن مصلحة الإنسانية عموما أن يتولى كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحقة ، لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة في نظرتها للحياة وللإنسانية . والتي لا تقبل نفرقة بين السلوك العملي ، وبين الاعتقاد القلبي .

والباحث المسلم أولى بتفسير التاريخ البشري كله ، فضلا عن تاريخه الإسلامي ، وذلك أنه يملك المنهج السليم الذي يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ .

= شريعة الإسلام ، حيث أبعدت الدراسات التاريخية وفصلت عن الدراسات الشرعية . وهذا هدف من أهداف الاستشراق والتغريب ، كما اشتغل به قوم لا يؤمنون بالإسلام مثل طوائف الاستشراق . وقوم ذوو ميول وانحرافات أو مغفلون لا يدرون ما يقولون . ولذلك صرنا نجد من ينظر للتاريخ الإسلامي نظرة « ليبرالية » تحررية ، أو « اشتراكية » اقتصادية ، أو « ماركسية » إلحادية ، أو « رأسمالية » مادية ، بل وجدنا من يقسم الصحابة إلى يمين ووسط ويسار !! فطبق على التاريخ الإسلامي اصطلاحات ومناهج لا صلة لها بواقعه التاريخي أو فكره العقيدي ، فوق أنها نتاج حضارة وثنية غير مهتدية بهدى الله ولا مستنة بسنة رسله . وما ذلك إلا نتيجة الابتعاد عن دراسة العلوم الشرعية ، وعدم الأخذ بالمنهجية العلمية المطلوبة لدارس التاريخ الإسلامي ، ومعرفة مرتكز هذا التاريخ وسر الحركة فيه .

(١١) سورة الحديد آية : ٣ .

(١٢) سيد قطب في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٤٦ .

إن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يوقع الباحث في أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام . فهذا كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان « أساطير دينية توجه سير التاريخ »(١٣) أحد فصول كتاب له سماه مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، وأنكر في هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة وهي المهدي ، ونزول عيسى بن مريم – عليه السلام – في آخر الزمان ، ويوم القيامة ، وجعلها من طائفة الأساطير ، وعرضها عرضا فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها ، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء ، وبين حقائق هذه القضايا العقيدية الثابتة بنصوص الشرع وإجماع الأمة المسلمة سلفا وخلفا . .

إن من أبسط القواعد المنهجية العلمية أن لا ننكر القضايا العقدية المجمع عليها بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس في تطبيقها ، لأن الانحراف لا يعالج بانحراف آخر ، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه ، وإيضاح الحق ، وتعرية الباطل وكشفه ، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة في المهدي – مثلا – فيدعى لنفسه المهدية ، ليكسب من وراء ذلك ملكا وسلطانا كما حدث في الواقع التاريخي(١٤) ، فإن العلاج ليس إنكار الأحاديث النبوية الصحيحة في

---

(١٣) هو محمد عبدالله عنان ، مؤرخ مصري ، له عناية بالدراسات التاريخية الأندلسية ، وهذا الفصل يشمل الصفحات من ٣٥٩ – ٣٦٤ – يقول فيه : « وقد بلغت هده الأساطير الدينية السياسية في الدولة الإسلامية ذروة القوة والازدهار ، وكانت أسطورة المهدي من بينها أقواها وأبعدها أثرا ص ٣٥٩ ويقول « وزعم الكندي الفيلسوف أن المهدي يجدد الإسلام ويطهر العدل ، ويفتح الأندلس ورومه وقسطنطينية ويملك الأرض وهو ما ندهش لصدوره من فيلسوف حر التفكير » ص ٣٦ ويقول « ومثل أسطورة المهدي المنتظر أسطورة المسيح المنتظر وهي ترجع إلى أصل يهودي ولها في الإسلام مكان أيضا ص ٣٦٢ . وقال « ونرى في النصرانية أسطورة القيامة تؤثر في خيال المجتمعات الأوربية أعمق تأثير في أواخر = = القرن العاشر ومن المعروف أن فكرة انتهاء العالم في المستقبل القريب كانت مند أقدم عصور النصرانية تستهوي جموعا غفيرة مں النصارى » ص ٣٦٢ .

(١٤) لقد ادَّعت الرافضة أن المهدي هو محمد بں الحسن العسكري ، الذي يدَّعون أنه اختفى في سرداب سامراء وهو طفل سنة ٢٦٠ هـ ، ولازالوا ينتظرونه ويقول ابں تيميه : إن أهل العلم بأنساب أهل البيت يقولون إن الحسن بن علي العسكري لم يكن له نسل ولا عقب « انظر رسالته التي بعنوان رأس الحسين ص ١٥٥ » .

وكما ادعى العبيديون أن عبيدالله بن ميمون القداح هو المهدى . وكذا ادعى محمد بن تومرت المغربي المهدية . وغير هؤلاء كثيرون مثل محمد أحمد المهدي السوداني .

خروج المهدي ، والتي بلغت في مجموعها حد التواتر(١٥) ، وردها ووصفها بالأساطير وأنها موضع كثير من الجدل والريب .. وإنما بإحقاق الحق وإبطال الباطل واتباع الأمانة والمنهجية العلمية .

– والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة ، لتمسكها بالفضائل الخلقية ، وأصيلة ، لاستقلالها عن غيرها من المناهج ، واستمدادها من الأصول الشرعية ، ورجوعها للمصادر الأصيلة ، ومن شأن هذه المنهجية الأصيلة والملتزمة أن تقي الباحث – بحول الله – من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته ، وتقوم أحكامه ونتائجه ، حتى وإن وقع في خطأ – مما لا يسلم منه بشر غير معصوم – فإنه سرعان ما يرجع عنه حينما يكتشف ذلك أو ينبه عليه .

فلابد لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه أن يكون مسلما ملتزما بعقائد الإسلام عالما بشرائعه وأحكامه .

---

(١٥) حول صحة أحاديث المهدي راجع . **ابن القيم** ، المنار المنيف ص ١٤١ – ١٥٥ . **والمباركفوري** . تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٦ /٤٨٤ وما بعدها ، وقد نقل عن الإمام الشوكاني أنه قال « والذي أمكن الوقوف عليه من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر خمسون حديثا وثمانية وعشرون أثرا » ثم قال بعد أن سردها وتكلم عليها « وجميع ما سقناه بالغ حد التواتر كما لا يخفى على من له فضل اطلاع » ،
وعبدالمحسن العباد ، الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي . مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة العدد ٤٥ ص ٢٩٧ – ٣٢٨ وعدد ٤٦ ص ٣٦١ – ٣٨٣ لعام ١٤٠٠ هـ .
وعبدالعليم عبدالعظيم ، الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، وهي رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة للعام الدراسي ٩٧ /١٣٩٨ هـ .

الفصـــل الثاني

مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي

منهج كتابة التاريخ الإسلامي – كما قلنا في المبحث السابق – يعطي مدلولين :

المدلول الأول : المبادئ والأسس التي يضعها الإسلام لتكون حدودا تحكم دراسة التاريخ الإسلامي ، فهذه نحتاجها عند تفسير الواقعة التاريخية وتحليلها والحكم عليها .

والمدلول الثاني : هو القواعد والطرق التي تتبع في إثبات الحقائق والوقائع التاريخية ، فهذه نحتاجها في إثبات صحة واقعة تاريخية معينة أو نفيها . ومعلوم أننا أولا نثبت الواقعة ثم بعد ذلك نفسرها ، فمرحلة الإثبات مرحلة سابقة على مرحلة تفسير الحدث وتعليله .

وعليه فإننا نحتاج إلى نوعين من المصادر ..

- مصادر في طرق إثبات الحقائق والوقائع التاريخية .
- مصادر في تفسير الحوادث التاريخية والحكم عليها .

مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية :

لقد اعتنى علماء السنة بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات ، واتبعوا منهجا دقيقا في نقدها ، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على

ذلك ، ويفيد منه في دراساته التاريخية ، والمصادر المهمة في هذا الشأن هي كتب « مصطلح الحديث » ، أو « أصول علم الحديث » ، وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾(١٦) ، وفي السنة المطهرة في مثل قوله ﷺ « نضر الله امرءاً سمع منا شيئا فبلغه كما سمع فرب مبلغ أوعى من سامع »(١٧) انظر إلى قوله : كما سمع . فإنه نص في دقة الضبط والتحري .

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت في الرواية ، واحتاطوا في قبول الأخبار ، « فقد جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث . فقال ما أجد لك في كتاب الله شيئاً ، وما علمت أن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – ذكر لك شيئاً ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال حضرت رسول الله يعطيها السدس ، فقال له هل معك أحد ، فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها »(١٨) وكذا روى عن عمر بن الخطاب موقف مشابه مع أبي موسى الأشعري(١٩) . وبناء على هذا ظهر علم نقد الأخبار ، والسؤال عن الرجال الرواة ، فدونت أخبارهم ورحلاتهم ، وسنو ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم ، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد ، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل ، وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره . كما دونوا علم علل الأحاديث(٢٠) سواء علل الإسناد أو علل المتون .

وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن ، مثل كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي للقاضي الحسن بن

---

(١٦) سورة الحجرات آية : ٦ .

(١٧) رواه الترمذي في كتاب العلم ٥ /٣٤ وقال حسن صحيح .

(١٨) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ /٢ .

(١٩) نفس المصدر ١ /٦ .

(٢٠) الحديث المعل هو الذي اطلع الحافظ البصير فيه على علة قادحة في صحته ، مع أن ظاهره السلامة منها « ولهذا قال ابن حجر وهو من أغمض أنواع علوم الحديث وأدقها ، ولا يقوم به إلا من رزقه الله تعالى فهما ثاقبا ، وحفظا واسعا ، ومعرفة تامة بمراتب الرواة ، وملكة قوية بالأسانيد والمتون ، ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل من أهل هذا الشأن » « انظر شرح نخبة الفكر ص ٨٣ » .

عبدالرحمن الرامهرمزي[٢١] المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، وكتاب معرفة علوم الحديث لأبي عبدالله الحاكم[٢٢] المتوفى سنة ٤٠٥ هـ ، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي[٢٣] المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للبغدادي أيضا ، وكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية ، وتقييد السماع للقاضي عياض[٢٤] المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وعلوم الحديث لابن الصلاح[٢٥] المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، وقد اشتهر باسم مقدمة ابن الصلاح .

فهذه الكتب تبين طرق نقد الأخبار ، وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض ، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال علي بن المديني[٢٦] ، ويحيى بن معين[٢٧] ، وأحمد بن حنبل ، والإمام

---

(٢١) هو أبو محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خلاد الفارسي الرامهرمزي ، إمام حافظ توفى سنة ٣٦٠ هـ تذكرة الحفاظ ٣ /٩٠٥ .

(٢٢) هو الإمام الحافظ الكبير أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري ، المعروف بان البيع ولد سنة ٣٢١ هـ ، ورحل في طلب العلم ، وصنف الكثير مثل تاريخ بيسابور والمستدرك على الصحيحين = = وعلوم الحديث ، وكان فيه تشيع وتوفى سة ٤٠٥ هـ ، « الذهبي ، تذكرة الحفاظ : ٢ /١٠٣٩ – ١٠٤٥ » .

(٢٣) هو الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، برع في التصنيف خاصة علوم الحديث ، ومن أشهر مؤلفاته تاريخ بغداد ولد سنة ٣٩٢ وتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، « الذهبي تذكرة الحفاظ ٣ /١١٣٥ – ١١٤٦ » .

(٢٤) هو عالم المغرب القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي ، ولد بسبته سنة ٤٧٦ هـ ، تولى القضاء بسبته وغرناطة ، وحمدت سيرته ، وله مصنفات كثيرة مشهورة ، مثل الشفاء وترتيب المدارك وجامع التاريخ ومشارق الأنوار ، توفى سنة ٥٤٤ هـ « الذهبي تذكرة الحفاظ ٤ /١٣٠٥ » .

(٢٥) هو الإمام الحافظ المفتي شيخ الإسلام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي الشهرزوري الشافعي ، ولد سنة ٥٧٧ هـ ، تفقه على والده ثم صار معيدا عند العلامة العماد بن يونس ، درّس بالمدرسة الصلاحية وولى مشيخة دار الحديث الأشرفية ، توفى سنة ٦٤٣ هـ « الذهبي تذكرة الحفاظ ٤ /١٤٣٠ » .

(٢٦) هو الحافظ أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر السعدي مولاهم المديني ثم البصري ولد سنة ١٦١ هـ .

قال أبو حاتم كان ابن المديني عَلَما في الناس في معرفة الحديث والعلل ، مات بسامرا سنة ٢٣٤ هـ . وله مصنفات كثيرة ، « الذهبي ، تذكرة الحفاظ ٢ /٤٢٨ » .

(٢٧) هو الإمام سيد الحفاظ أبو زكريا يحيى بن معين المري ، مولاهم البغدادي ، ولد سنة ١٥٨ هـ روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ، وكانت وفاته سنة ٢٣٣ هـ . « الذهبي ، تذكرة الحفاظ ٢ /٤٢٩ » .

البخاري ، وأبي حاتم الرازي(٢٨) ، وأبي زرعة(٢٩) ، حيث تكلموا في الرجال ، وفي نقد المتون للأحاديث وبيان عللها .

ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن ، فكتب البخاري ثلاثة كتب هي التاريخ الكبير والتاريخ الأوسط والتاريخ الصغير ، وابن أبي حاتم دون كلام أبيه وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل ، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين ، وكذلك ابن حنبل مروى عنه كتاب العلل ، وأيضا علي بن المديني له كتاب في علل الحديث .

وقد كتب كل من خليفة بن خياط ومحمد بن سعد كتابا في الطبقات ، كما كتب ابن حبان(٣٠) كتابا في الثقات ، وكتابا في المجروحين من المحدثين .

وأيضا كتب الخطيب البغدادي كتابا جامعا في أسماء العلماء والرواة الذين نشأوا في بغداد ، أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية كما كتب ابن عساكر(٣١) كتابا مماثلا سماه تاريخ دمشق ، وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة ، مثل الكمال في أسماء الرجال

---

(٢٨) هو الحافظ الكبير محمد بن إدريس بن المنذر الحنظلي ، ولد سنة ١٩٥ ورحل في طلب الحديث وهو شاب ، روى له النسائي ، وأبو داود ، وكان من علماء الجرح والتعديل ، توفى سنة ٢٧٧ هـ ، « الذهبي تذكرة الحفاظ ٢ /٥٦٧ » .

(٢٩) هو حافظ العصر عبيدالله بن عبدالكريم بن فروخ القرشي مولاهم الرازي ، كان من أفراد الدهر حفظا وذكاء ودينا وإخلاصا وعلما وعملا ، وهو من رجال الجرح والتعديل ، توفى سنة ٢٦٤ هـ « انظر الذهبي ، تذكرة الحفاظ : ٢ /٥٥٧ » .

(٣٠) هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، صاحب التصانيف مثل التاريخ والضعفاء والمسند الصحيح ، وكان من فقهاء الدين ، وحفاظ الآثار ، عالما بالطب والنجوم وفنون العلم . وقال الخطيب كان ثقة نبيلا فهما ، وكانت وفاته في شوال سنة ٣٥٤ هـ المصدر السابق ٣ /٩٢٠ .

(٣١) هو محدث الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الدمشقي الشافعي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ٤٩٩ هـ سمع المشايخ ، ورحل في طلب العلم ، وبلغ مجموع شيوخه ألفا وثلاثمائة شيخ ونيفا وثمانين امرأة ، من أشهر كتبه تاريخ دمشق الكبير في ثمانين مجلدا والأطراف لأحاديث السنن . قال السمعاني أبو القاسم حافظ ثقة متقن جمع بين معرفة المتن والإسناد ، وكانت وفاته سنة ٥٧١ هـ « انظر الذهبي ، تذكرة الحفاظ ٤ /١٣٢٨ » .

لعبدالغني المقدسي[٣٢] وتهذيبه للحافظ المزي[٣٣] ، وتذهيب التهذيب للحافظ الذهبي ، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ، وقد خصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة ، ومن أكثرها تداولا كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ، وكتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلاني .

فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكره - لأننا لم نقصد الاستقصاء - لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق ، ومغازي الواقدي ، وفتوح البلدان للبلاذري ، وفتوح الشام لأبي إسماعيل الأزدي ، وفتوح مصر لابن عبدالحكم ، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط ، والأخبار الطوال للدينوري ، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبري ، وجمهرة النسب للكلبي ، ونسب قريش لمصعب الزبيري ، أو كانت مصادر ثانوية . فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة ، لمعرفة الصحيح من الزائف ، فهي مصادر في المعلومات التاريخية ، وليست مصادر في نقد الأخبار .

مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها :

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي ، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاته المنهجية ، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها ، لذا يمكن القول بأن

---

(٣٢) هو الحافظ عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي ، صاحب التصانيف ولد في سنة ٥٤١ هـ ، قال ابن النجار : حدث بالكثير وصنف في الحديث تصانيف حسنة ، وكان غزير الحفظ من أهل الإتقان والتجويد ، قيما بجميع فنون الحديث ، وكان متمسكا بالسنة على قانون السلف ، وكانت وفاته سنة ٦٠٠ هـ « الذهبي تذكرة الحفاظ ٤ /١٣٧٢ » .

(٣٣) هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف القضاعي الدمشقي الشافعي ، ولد بحلب سنة ٦٥٤ هـ ، ونشأ بالمزه ، وحفظ القرآن ، وتفقه قليلا ثم أقبل على علوم الحديث حتى برع فيها ، عمل كتاب تهذيب الكمال وكتاب الأطراف وكانت وفاته سنة ٧٤٢ هـ « الذهبي تذكرة الحفاظ ٤ /١٤٩٨ » .

مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي في هذا الجانب هي نفس مصادر الشريعة ، القرآن والسنة والإجماع والقياس . ولأن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى ، وهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية ، كما أنه مبني على فهم دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول ، مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه(٣٤) .

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية ، لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكون على هدي الشريعة ، وشكل حياته وتصوراته وفقا لها ، وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته ، في الدعوة إلى الله ، وفي الجهاد في سبيل الله ، وفي التعليم وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية ، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات .

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحا وواقعيا فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع ، وتحكمت في حركته ، وبناء تصوراته وثقافته ، وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية ، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات ؟ وكم منها مائل عنها ؟ لنعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية .

ولنعرف كذلك قيمة الخسارة(٣٥) التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله .

---

(٣٤) أكرم ضياء العمري . إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام ص ٣ .

(٣٥) كتب الأستاذ أبو الحسن الندوي كتابا قيما سماه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أوضح فيه أثر الإسلام في حياة البشرية في أيام قوته ، وكيف قلب القيم والموازين التي كانت سائدة في الجاهليات المتعددة ، ثم أوضح مدى الخسارة التي لحقت بالبشرية من جراء انحسار دور الإسلام في حياة الناس ، بسبب ضعف المسلمين وجهلهم بدينهم وكيد الأعداء لهم .

وندرك أيضا فضل الله ورحمته بهذه البشرية ، إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ، ومن الجور إلى العدل ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة ، ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه .

قال تعالى : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾(٣٦) .

وقال تعالى ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وءَامنهم من خوف ﴾(٣٧) .

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره ، وهذا سر المفارقة بينه وبين بقية المناهج ، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه « ليس تفسيرا تبريريا(٣٨) ، بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلى على ما سواه .

كما أنه ليس تفسيرا ماديا يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية ، مثل تبدل وسائل الإنتاج – كما في الفكر الماركسي – أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية – من مناخ وجغرافيا واقتصاد – كما في الفكر المادي الغربي ، بل هو يوضح دور الإنسان ومسؤليته عن التغير الاجتماعي والتاريخي ، في إطار المشيئة الإلهٰية »(٣٩) إن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي ، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء ، متأثرة بالأحوال الفكرية

---

(٣٦) سورة إبراهيم آية : ١ .

(٣٧) سورة قريش .

(٣٨) أي أنه لا يعتذر عما حدث في الماضي إذا كان مخالفاً لمواصفات ومقاييس العصر الذي نعيشه ، مثل الرق والجزية والجهاد بالسيف ، فهي أحكام شرعية لا يجوز لنا إخفاؤها والاستحياء من ذكرها كما يفعل بعض الكتاب بتأثير الغزو الثقافي الأوربي ، والروح الانهزامية أمام الحضارة الحديثة .

(٣٩) أكرم ضياء العمري ، المصدر السابق ص ٣ .

والاجتماعية المحيطة بالباحث . ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية ، وبعضها الآخر ناتج عن الغبش في التصور وعدم وضوح الرؤية . ومنها تأثرهم بالغزو الفكري الأوربي ، فنظرا لانطلاقهم الخاطىء في فهم الشريعة ، وفي معرفة معنى العبودية لله ولوازمها(٤٠) ، تراهم يأخذون في الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية ، ويبحثون لها عن سند تاريخي قديم(٤١) ، بل يحاولون تقريبها والملاءمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة في الواقع الجاهلي(٤٢) . وهذا المسلك قلب للحقائق والواقع إذ تكون الجاهلية ونظمها كأنها هي الأصل ، والشريعة ينبغي أن تلائمها وتوافقها .!!

وهذا الأسلوب التبريري لما يشرعه الله ناتج - كما قلنا - من الانحراف التصوري ، وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام ، وذهول عن قاعدة مهمة وهي أن الشريعة الإسلامية لا تستفتي ولا يطلب منها الحلول لمشكلات نشأت في مجتمع لا يطبق الإسلام .

---

(٤٠) حول معنى العبودية ولوازمها انظر ، أبو الأعلى المودودي ، المصطلحات الأربعة في القرآن ص ٩٥ - ١١٥ ، وعبدالرحمن بن محمد الدوسري ، صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن الكريم ١ /٤٦ - ١٨٩ .

(٤١) يقول الدكتور محمد الطيب النجار في كتاب « تاريخ الدولة الأموية في المشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء » ، وليست الحرية من مستحدثات الإسلام بل هي قديمة ، فرضها اليونان على سكان آسيا الصغرى حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، كما وضع الرومان والفرس الحرية على الأمم التي أخضعوها » ص ١٥٨ .

(٤٢) يقول الأستاذ مصطفى الزرقا في بحث ألقاه في مؤتمر المشرق الأدنى ، الذي عقد بجامعة برنستون عام ١٩٥٣ م وحضره عدد من المسلمين والأمريكيين « إن الصفة الدينية في الفقه الإسلامي لا تنافي أنه مؤسس على قواعد مدنية بحتة ، متيحة لفقه منظور كفيل بوفاء الحاجات العصرية . » ثم يوضح بعض تطويره للفقه فيقول عن مشكلة الربا التي قام عليها الاقتصاد العصري : « إن هذه المشكلة يمكن حلها في مبادىء الشريعة بطرق عديدة » ويذكر من حلولها عنده أن الربا الذي كان سائدا عند العرب وجاء القرآن بتحريمه هو الربا في القرض الاستهلاكي » ومقتضى كلامه هذا أن الربا في القرض الاستثماري غير محرم ، ومن الحلول عنده « تأميم المصارف لحساب الدولة فينتفي - كما زعم - معنى الربا من الفائدة التي تؤخذ على القرض لأن هذا القرض يعود لخزينة الدولة . » انظر محمد محمد حسين ، الإسلام والحضارة العربية ص ١١٧ - ١٣٨ » .

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامي أسلوب مرفوض ، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أو العلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكي مثلا ، لأنه لابد أولا من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشريعة الله بالحاكمية والسلطان ، ثم هي بعد ذلك التسليم والالتزام تقوِّم عوج الحياة على منهاجها ، لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويغ انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة .

ومن هنا يتبين لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية ، والتلقي منها ، والالتزام بأحكامها ، وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة .

الفصـــل الثالـــث
خصائص منهج كتابة التاريخ الإسلامي

المنهج الإسلامي كما عرفنا في الحديث عن مصادره منهج متميز ومستقل عن كل المناهج الأرضية ، فهو يستمد موازينه وقيمه وتصوراته من الوحي الإلٰهي المنزل على الرسول ﷺ في الكتاب الكريم والسنة المشرفة ، وهذا التفرد في أصوله ومصادره يحدو بنا إلى الحديث عن خصائص هذا المنهج ، والتي يمكن إجمالها في الخصائص التالية :

- التميز في التصور والمفاهيم .
- التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق .
- التميز في منهج التفسير التاريخي .

وسنعرض فيما يلي لكل واحدة من هذه الخصائص بشيء من التفصيل المناسب .

التميز في التصور والمفاهيم :

هناك مجموعة من القضايا التي ضلت فيها المفاهيم ، واختلفت وتعددت الآراء نظرا لتعدد المشارب ومصادر التلقي فيها ، وبسبب هذا التباين في المفاهيم وقع الاختلاف في مناهج التفسير التاريخي ، ففسرت أحداث التاريخ الإسلامي على خلاف مقتضى مفاهيمه وتصوراته ، مما يستلزم تصحيح المفاهيم والتصورات حول هذه القضايا ، لكي يصحح على ضوئها منهج التفسير التاريخي ، لأن المنهج إنما يقوم على مجموعة من المفاهيم والقيم ، إذا صحت واستقامت استقام المنهج ، وان شوهت وحرفت أصاب المنهج الكثير من التحريف والتشويه ، فمن المعروف أن لكل أمة من الأمم مفاهيم خاصة عن

الإنسان والكون والحياة ، وعلى ضوء هذه المفاهيم تحدد قيمها وحياتها الاجتماعية والسياسية ، وتنظر من خلالها للأشياء والأحداث والناس . والمفاهيم في حياة الأمة تشكل الركيزة الثقافية والعلمية التي تبنى عليها تصوراتها وموازينها ، وتلك المفاهيم تستمد من العقيدة التي تؤمن بها الأمة وتحافظ عليها ، وبحسب اختلاف المفاهيم وتنوعها تختلف النظرة والأحكام على الأحداث والمواقف ، وبقدر ما يحصل بينها من تقارب واتفاق تتفق النظرة ويتوحد الموقف والحكم . والأمة الإسلامية لها مفاهيمها وتصوراتها وقيمها ، التي تتميز بها عن غيرها من الأمم ، فإذا كانت الأمم غير الإسلامية تستمد مفاهيمها وتصوراتها من التقاليد والعادات ، ومما يبتدعه لها مفكروها وفلاسفتها وساستها حسب أهوائهم ومصالحهم وأفهامهم القاصرة ، فإن المسلمين – ولله الحمد والمنة – قد أكرمهم الله بأن بعث لهم الرسل ، وأنزل عليهم الوحي المفصل لكل شيء يحتاجونه في أمر دينهم ودنياهم ، وخاصة في الرسالة الخاتمة رسالة محمد ﷺ ، التي أكمل الله بها الدين وأتم بها النعمة على العالمين ، فمفاهيمنا نتلقاها من مصدر الحق في هذا الوجود ، من الوحي الرباني من الله الرحمن الرحيم العزيز الحكيم العليم القدير ، الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، بل يعلم غيب السماء والأرض ، وإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ، فمن كانت هذه صفاته وهذه سعة علمه وعظيم قدرته لابد أن يكون منهجه أكمل المناهج وأشملها ، وأن يبرأ من صفات الضعف والقصور والهوى الملازمة للطبيعة البشرية ، لأن علمه وقدرته وعدله مطلق لا يحد بشيء من حدود الزمن أو المواقف أو الاتجاهات ، ومادامت هذه هي ميزة مصادرنا وتفردها فإنه من الظلم لأنفسنا ولتاريخنا أن نتلقى مفاهيمنا وقيمنا ومناهج بحثنا وعلمنا من غير هذه المصادر الصحيحة والمأمونة من الخطأ والانحراف . والمفاهيم في حياة الأمة هي التي توجه سلوكها ، ولابد للأمة لكي تعيش حرة كريمة ولها وزنها وثقلها أن تكون مستقلة في مفاهيمها ، فلا تتلقى من غير مصادرها .. والأمة الإسلامية لا يكفي أن يكون لها مكان ووزن بين الأمم ، وإنما تقتضي رسالتها أن تكون الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر والقائمة بالقسط بين الناس ، والممسكة بزمام القيادة للبشرية باعتبار أنها مكلفة

بذلك من الله العلي العظيم قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[2] . فهذه الأمة معها منهج الإنقاذ للبشرية الضالة عن سبيل الهدى ، الممزقة بالانحرافات والأهواء ، الحائرة بين شتى المناهج .

والمؤمن عندما يتأمل حالة البشرية اليوم بنظر فاحص ، وقلب واع ، يدرك الحقائق ولا تغره المظاهر الخادعة ، والزركشات الظاهرة ، يعرف مدى الانحدار الذي تعانيه البشرية ويقدر زاوية الانحراف تقديرا سليما ، ولا يملك إلا أن يحمد الله - سبحانه وتعالى - على نعمة الهداية ، ويقدر هذه النعمة حق قدرها ، ويشعر بها شعور المؤمن الشاكر ، ويتمسك بها تمسك المخبت الذاكر ، ويستعلي على ما سواها لا استعلاء الاستكبار وإنما استعلاء الاعتزاز والتقدير لهذا الفضل الذي خص به ، مع العمل على هداية البشرية إلى هذا الخير والرشد الذي هدي إليه ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[3] . ولقد أصاب المسلمين كثير من الشر والانحراف بسبب غياب هذا المعنى عن حسهم ، وبسبب انبهارهم بالأضواء الشديدة للمدنية المعاصرة ، التي خطفت الأبصار فأعشتها[4] عن النظر الصحيح ، كما أعشت طائفة من سلفهم يوم أن انبهروا بمنطق اليونان وفلسفتها ، فأورث لهم ذلك من تغير المفاهيم وانحرافها ما أبعدهم عن منهج القرآن وطريقته في تلقي العلم والمعرفة ..

إن المسلمين قد أصابهم بسبب الانحراف عن المنهج الرباني وعدم التلقي منه وحده كثير مما يعانون اليوم ، من التمزق السياسي ، والتأخر العلمي

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٤ .

(٣) سورة يونس آية : ٥٧ ٥٨ .

(٤) العشى مرض يصيب العين ولا يبصر ليلا « انظر الرازي ، مختار الصحاح ص ٤٣٥ » .

والفكري والمادي ، نظرا لتعدد المشارب والموارد في الأخذ والتلقي ، ولاختلاط المفاهيم في التصور والسلوك . ولكي نضمن للأمة عودة إلى منهج الحق ، وتوحيدا لأشتاتها المبعثرة ، وممارسة لدورها القيادي لهداية البشرية ، فإنه ينبغي أن توحد مصادر التلقي ومناهجه ، حتى تتوحد المفاهيم وتستقيم الموازين .

لقد غضب رسول الله ﷺ عندما رأى في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة يقرأ فيها فقال له : « لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني »[٥] قال ابن بطال[٦] عن المهلب « هذا النهي إنما هو في سؤالهم عما لا نص فيه لأن شرعنا مكتف بنفسه ، فإذا لم يوجد فيه نص ففي النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم ، ولا يدخل في النهي سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا ، والأخبار عن الأمم السالفة »[٧] .

ويؤيد هذا الحديث ما رواه الإمام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عن ابن عباس – رضي الله عنهما : « قال : « قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيئ وكتابكم الذي أنزل على رسول الله أحدث ، تقرءونه محضا لم يشب »[٨] .

وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ، لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم »[٩] .

---

(٥) انظر ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٣ /٣٣٤ وقد عزاه ابن حجر إلى المسند وابن أبي شيبة والبزار .

(٦) هو أبو الحسن علي بن خلف بن بطال القرطبي فقيه مالكي ، شرح صحيح البخاري وتوفى في صفر بسنة ٤٤٩ هـ « ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ٣ /٢٨٣ » .

(٧) فتح الباري ١٣ /٣٣٤ .

(٨) لم يشب . أي خالصا لم يخلط بشيء آخر .

(٩) ابن حجر ، فتح الباري ١٢ /٣٣٣ .

وسوف نتحدث فيما يلي عن نوعين من المفاهيم التي لها مساس قوي بموضوعنا هما :

- مفاهيم أساسية في التصور والاعتقاد .
- مفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق

ومعلوم أنهما يمثلان وحدة موضوعية واحدة ، إلا أن أحدهما أكبر من الآخر ، وحاكم عليه ، إذ إن التصور والاعتقاد هو الأساس الحاكم على غيره ، والمؤثر في السلوك العلمي والعملي ، وبداية الإصلاح والتصحيح تبدأ بتنقيته وتقويمه ، وأن جملة الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي وتفسيره تكمن أسبابها الحقيقية في نقص التصور الصحيح عند من وقعوا في تلك الأخطاء ، وهذا أشد أنواع الانحراف وأعسره على التصحيح ، إذ يلزم أولا معالجة الانحراف التصوري وتقويمه ، ثم معالجة الخطأ الناجم عنه ، أما إذا كان الخطأ بسبب سوء منهج البحث فإنه من السهل تقويمه وإصلاحه

مفاهيم أساسية في التصور الإسلامي :

نظرا لأهمية المفاهيم وخطورتها في توجيه الأبحاث والدراسات فإنه يجدر بنا أن نعطي لمحة موجزة عن المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي ، لتكون أساسا ومنطلقا لدراسة المنهج الإسلامي وخصائصه ، ولعل أبرز تلك المفاهيم الأساسية التي نحتاج إلى إيضاحها هي معرفة التصور الصحيح في الإسلام عن **الإنسان** ، **والكون** ، **والحياة** ، لأن هذه العناصر هي إطار الحركة التاريخية ومجالها ، ولأنها أيضا مفرق الطريق وأس الخلاف في النظرة إلى التاريخ بين المسلم وغير المسلم ، فالتصور العقيدي هو الذي يحكم مناهج البحث ، ويعطيها المقاييس والموازين التي تسير بموجبها ، فإذا كان التصور صحيحا كانت المقاييس والموازين صحيحة ، لأن المناهج تعتبر أثرا من آثار التصور ، فهي تابعة له ومتأثرة به ، وهي وسيلة من وسائل تحقيقه في الواقع العملي .

ولإيضاح هذا الارتباط بين التصور وبين منهج البحث نأخذ المثال التالي ، آثار الحضارة الفرعونية ومخلفاتها ، فالمنهج العلمي في البحث التاريخي هو الذي نثبت بواسطته أن باني هذا الهرم أو المشهد أو أن صانع القطعة

الفلانية هو الفرعون الفلاني ، فوظيفة المنهج العلمي هي تحديد الشخص الذي صنع الحدث وكفى ، أما الحكم على هذا العمل بالخطأ أو الصواب وإعطاؤه القيمة الحقيقية له ، وبيان مدى اتساقه مع المنهج الرباني ، ومع وظيفة الإنسان ، وتحقيق كرامته وإنسانيته ، فليس من وظيفة منهج البحث بمفهومه (الاصطلاحي) ، إنما هو آت من التصور الذي يحمله الباحث عن الإنسان . من هو ؟ ما وظيفته في الكون وهذه الحياة ؟ ما نهايته ؟ وما هو المصير الذي يئول إليه بعد الموت ؟ ففي ظل التصور الإسلامي الذي يحدد أصل هذا الإنسان وطبيعته ، ويحدد وظيفته في هذه الحياة ، وهي القيام بالعبودية لله ، وعمارة الأرض وفق منهج الله الذي جاء به رسله ، ينظر إلى آثار هذه الحضارة الفرعونية ، هل حققت شيئا من وظيفة الإنسان الأساسية ؟ ثم ينظر إلى من ترك هذه الآثار هل كان محققا لمنهج الله عابدا له ، أم كان طاغية جبارا مذلاً للإنسانية ، في سبيل مجده الشخصي ، وتحقيق شهواته ورغبات نفسه ؟

فالتصور الإسلامي الصحيح يعطي المسلم وحدة مقياس معيارية ، تتسم بالثبات والشمول والامتداد الزمني ، فيزن بهذا المقياس المعياري كافة القضايا والمفاهيم والمواقف والآثار ، ويقيم به – تقييما لا يكاد يخطىء[١٠] – دور الأمم والحضارات على مدار التاريخ ، فإذا نظر المسلم مثلا إلى إحدى الحضارات السابقة سواء أكانت فرعونية أو بابلية أو يونانية أو رومانية أو غيرها ، بهذا المقياس المعياري فإنه سيحكم بأنها حضارات جاهلية ، لأنها لم تحقق شيئا من الوظيفة الأساسية للإنسان ، ولم تكن مهتدية بهدى الله ولا متبعة لشرعه . أما غير المسلم الذي لا يؤمن بأن وظيفة الإنسان هي القيام بمنهج العبودية لله ، وإنما وظيفته في نظره عمارة الأرض مجرد العمارة المادية ولذات العمارة ، وأن حياة الإنسان هي هذه الحياة الدنيا ، وليس بعدها حياة ولا مسئولية ، فإنه سيقرر بناء على هذا التصور عن الإنسان ووظيفته ونهايته -- بأن تلك الدول قد بلغت الغاية في التقدم والحضارة ، ويعجب بها أيما إعجاب ، وذلك لأنها قد حققت وظيفة الإنسان في نظره .

---

(١٠) يلاحظ أن استقامة التصور لا يمنع من وقوع الخطأ في التطبيق ، لأنه قد يكون الإنسان صحيح التصور لكنه يخطئ نتيجة عوامل أخرى ، أما خطأ التصور فإنه لا يستقيم معه عمل صحيح .

فمن هذا يتضح لنا أهمية وجود التصور الصحيح ، وأنه هو الركيزة الأولى والمنطلق الذي يجب البدء بتصحيحه .. وللإجابة على الأسئلة التي طرحناها حول الإنسان ووظيفته والدور الموكل إليه ، ونهايته التي يصير إليها ، وعلاقته بالكون من حوله ينبغي أن نستعرض أولا التصور الصحيح عن الربوبية والألوهية .

إن أول واجب على المكلف هو معرفة الله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، والإقرار له بالعبودية ، والخلوص من الشرك وأهله . فكان أول أركان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وهذه الشهادة تشتمل على نفي وإثبات ، فالنفي هو قول « لا إله » أي لا معبود بحق ، والإثبات هو قول « إلا الله » فصار معناها لا إله يستحق العبادة إلا الله ، وأن المبلغ عن الله هو محمد رسول الله ، فالطرق إلى الله كلها مسدودة إلا طريقه ﷺ ، فلا بد من معرفة التوحيد بأنواعه التي هي .

توحيد المعرفة والإثبات : أي توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، فتعرف أن الله وحده لا شريك له ، هو الخالق والرازق ، والمحيي والمميت ، الذي يملك النفع والضر ، ويجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، وتعرف أن له الأسماء الحسنى ، وصفات الكمال والجمال والجلال فتثبتها دون تحريف أو تعطيل أو تشبيه أو تأويل ، قال تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[١١] وقال تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[١٢] .

توحيد الطلب والقصد : وهو توحيد الألوهية والعبادة ،[١٣] بمعنى إفراد الله وحده بالعبادة والطاعة ، والحاكمية والاستعانة ، والاستعاذة ،

---

(١١) سورة الشورى آية : ١١ .

(١٢) سورة الأعراف آية : ١٨٠ .

(١٣) حول أنواع التوحيد انظر ، تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله ابن عبدالوهاب ص ٣٢ .

والاستغاثة ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء ، والدعاء ، والرغبة والرهبة ، والحب والإنابة .

ومن المعلوم أن هذا النوع من التوحيد (توحيد الألوهية) هو نقطة الصراع ، وموضع الخصومة بين الأنبياء والرسل من جانب ، وبين أقوامهم على امتداد التاريخ البشري من الجانب الآخر ، وكما أنه موطن النزاع بين الرسل وبين أقوامهم فإنه كذلك موطن النزاع بين أتباع الرسل من الدعاة إلى الله وبين المكذبين والمنحرفين من الطواغيت وأتباعهم .

ومن آثار هذا التوحيد وهذا الإيمان التلقي من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، المفهوم الصحيح عن الإنسان ووظيفته ودوره في الحياة ، باعتبار أنه محور حركة التاريخ ، فعن الإنسان مم خلق وكيف خلق ؟ نجد القرآن الكريم يعلمنا أن آدم وهو أول البشرية قد خلق من طين وسوي خلقه في أحسن تقويم ، ثم نفخ فيه الروح ، ثم أمرت الملائكة بالسجود له إشعارا بكرامته وعظيم منزلته . قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾[١٤] وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون . يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[١٥] .

وعن طبيعة هذا الإنسان وحرية الإرادة لديه نجد أن الله قد جعل له من نفسه زوجا ليسكن إليها ، وليكون التزاوج وسيلة للنسل والتكاثر ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها

---

(١٤) سورة ص آية : ٧١ - ٧٢ .

(١٥) سورة السجدة آية : ٤ - ٩ .

زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[16] وقال تعالى عن حرية الإرادة لدى الإنسان : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[17] وقال تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[18] وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ﴾[19] .

وعن وظيفة الإنسان في الأرض ودوره في الحياة ، والمصير الذي يئول إليه ، نجد أن الله سبحانه وتعالى قد كلفه بالقيام بمنهج العبادة والطاعة له ، وأنه مستخلف في الأرض لعمارتها بالمنهج الرباني ، وللجهاد في سبيل الله ، والدعوة إلى عبادته وحده ، وأنه لم يخلق عبثا ولن يترك هملا ، وإنما له غاية ووظيفة محددة ، وأن الله تعالى سيمكن له ولذريته في الأرض متى استقاموا على المنهج الصحيح واتبعوا الرسل ، أما إذا أعرضوا وانحرفوا عن عبادة الله فإن الله يستبدل بهم قوما آخرين ثم لا يكونوا أمثالهم . أما هم فيسلط بعضهم على بعض ، ويلبسهم شيعا ، ويذيق بعضهم بأس بعض ، هذا في الحياة الدنيا أما في الآخرة فإن الناس يبعثون بعد موتهم ، ويحشرون إلى الله يوم القيامة فيجازي كلا بعمله ، فأهل التوحيد والطاعة لهم الجنة وأهل الشرك والكفر لهم النار وبئس القرار .

فهذا هو مجمل التصور الحق عن الإنسان ووظيفته ومصيره الذي ينتهي إليه ، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، منها ما تقدم وإليك بعضها . قال تعالى حاصرا وظيفة الإنسان في العبودية لله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[20] ، وقال تعالى عن استخلاف الإنسان في الأرض ﴿ وإذ قال

---

(١٦) سورة النساء آية : ١ .
(١٧) سورة الإسراء آية : ١٨ - ١٩ .
(١٨) سورة الكهف : آية ١٢٩ .
(١٩) سورة البلد آية ٨ - ١٠ .
(٢٠) سورة الذاريات آية : ٥٦ .

ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾(٢١) وقال تعالى عن دور الإنسان في الأرض : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾(٢٢) فقد ربط عمارة الأرض بعبادته وحده واستغفاره والتوبة إليه . وقال تعالى عن تكريمه للإنسان : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(٢٣) وقال : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم(٢٤) ﴾ .

وقال في وعده بالتمكين في الأرض لمن استقام على منهج الله : ﴿ وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾(٢٥) .

أما من تولى عن منهج الله ولم يستقم على طاعته فإن الله يهدده ويتوعده بالهلاك ، وأنه تعالى قادر على صب العذاب على الظالمين صبا أصنافا وأنواعا ، قال تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾(٢٧) فتقرير هذه المفاهيم الإيمانية واستقرارها في النفس الإنسانية له آثاره في حياة الإنسان وسلوكه ومواقفه المتعددة ، أما عدم الإيمان بهذه المفاهيم ، أو تلقيها على غير الوجه الصحيح ، فإنه سيكون له أيضا آثاره وسماته في حياة الإنسان الفكرية

---

(٢١) سورة البقرة آية : ٢٠ .
(٢٢) سورة هود آية : ٦١ .
(٢٣) سورة الإسراء آية : ٧٠ .
(٢٤) سورة التين آية : ٣ .
(٢٥) سورة النور آية : ٥٥ .
(٢٦) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٢٧) سورة الأنعام آية : ٦٥ .

والعملية ، لأن كل موقف إنما ينطلق من تصور عقائدي ، ينظر من خلاله إلى الوجود من حوله ، بصرف النظر عن خطأ أو صواب هذا التصور العقيدي (أو الفلسفي) كما يسميه أصحاب المذاهب الوضعية . « فمثلا الهندوس في الهند يقدسون أنواعا من الحيوانات منها البقر ، ولذلك فإنه لا يذبح ، وقد ترتب على هذه النظرة إلى تقديس البقر وعبادته نتائج اقتصادية هامة ، وهي أنه ليس هناك مئات الملايين من البشر هي التي تأكل وتشرب في القارة الهندية بل مئات الملايين من البقر تأكل وتشرب على حساب قوت البشر الذين يموتون جوعا ، ولا يستفاد من لحم هذا البقر لأنه مقدس عندهم ، فالنظرة إلى الوجود كله تؤثر في النظام الاجتماعي ، والنظام السياسي ، والنظام الاقتصادي ، والسلوك الأخلاقي ، فمثلا سلوك إنسان يتصور أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ومسئولية ، ليس كسلوك إنسان لا يؤمن بغير هذه الحياة الدنيا ، وكذلك من يؤمن بأن الإنسان قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، وأنه عبد مخلوق لله ، لغاية معينة وهدف محدد ، وهو عبادة الله وحده ، ليس كمن يؤمن بأن هذا الإنسان وليد تطور أوصله إلى هذه الصورة !!!

فشتان بين هذا وذاك ، ليس فقط من الوجهة النظرية ، بل من وجهة النتائج العملية[٢٨] ، فلأجل هذه الأهمية ، وهذا الأثر للتصورات والمفاهيم ، فإنه لابد من وجود تصور ثابت للمقومات والقيم ، تضبط به الحركة البشرية ، وهذا التصور الثابت الصحيح لا يكون ولا يستقيم إلا في ظلال العقيدة الإسلامية ، لأنها تعطي للإنسان ميزانا صحيحا قويما ، يرجع إليه في كل ما يعرض له من مشاعر وأفكار ومواقف ، وما يجد في الحياة من ظروف وملابسات ، فيزن كل ذلك بالميزان الشرعي الثابت ، ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب ، « فلابد من وجود مقوم ثابت منضبط بذاته ، حتى ينضبط به الفكر الإنساني ، فلا يتأرجح بين شتى المؤثرات ، والشهوات ، وحتى لا

---

(٢٨) انظر محمد المبارك ، النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة ١ /٢٤٤ ضمن أبحاث الندوة العالمية الرابعة للشباب الإسلامي .

يكون هذا المقوم أو المقياس دائراً مع الفكر البشري ، أو مع الواقع البشري ، كيفما دار »[٢٩] .

ونتيجة لفقدان هذا المقوم الثابت ، تكوَّن لدى جمهرة من الباحثين المعاصرين مفهوم عام عن الإنسان الأول ، إذ إنهم يرون أنه ناقص في تفكيره وعقله ، وأنه قد تطور مع مرور الزمن ، وتنقل بين مراحل عدة ، حتى اكتشف النار ، وحتى استطاع أن يستعمل أدواته بشكل منظم ، ولذلك يعبرون عنه بالإنسان البدائي ، بل إن البعض منهم يذهب إلى القول بحيوانية الإنسان ، وأنه تطور عن أنواع من القرود العالية مثل « الشمبانزي » و « الغوريلا » أو إنسان « جاوة » كما تسميه بعض الأبحاث الأثرية . وهذا في الحقيقة كله رجم بالغيب ، وقول بدون علم ولا دليل ، إلا من الأوهام والملاحظات الناقصة .. والذي يعتقده المسلمون بما لديهم من الأدلة القطعية من كتاب ربهم الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام ، وهو نبي من الأنبياء ، والبشر كلهم من نسله ، وقد خلقه الله في أحسن صورة ، وأكملها في الخَلْق والخُلق والفكر والعلم . فقد علمه الله الأسماء كلها ، وكافة الأمور اللازمة لاستقرار حياته على الأرض ، ولقيامه بمنهج الخلافة ، وآدم عليه السلام قد علم ذلك لأبنائه .

فهذا هو التصور الحق ، والمفاهيم الصحيحة عن الله ، والكون ، والإنسان ووظيفته في الحياة ، وهو مما يتميز به المنهج الإسلامي لتلقيه ذلك من الوحي الإلهي ، ويتبع هذا التصور الصحيح في المفاهيم الأساسية التميز كذلك في المفاهيم العملية في واقع الحياة ، كمفهوم الدين والعبادة ، والأمة ومكوناتها ، والحضارة والتقدم والتأخر ..

---

(٢٩) سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٨٩ .

مفاهيم منهجية في البحث العلمي وإثبات الحقائق

مفهوم البحث العلمي :

البحث العلمي هو المسلك الذي يتخذه العالم تجاه طائفة معينة من الظواهر[٣٠] ، أو هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن حقيقة مجهولة لدينا ، أو من أجل البرهنة على حقيقة لا يعرفها الآخرون .[٣١]

وقال بعضهم في تعريفه « هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل ، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة »[٣٢] .

ويذكر أحد الباحثين أن هناك مصطلحين متقاربين « هما الأسلوب العلمي ومنهج البحث العلمي » فالأول الإطار الفكري الذي يعمل بداخله عقل الباحث ، والثاني يعني الخطوات التطبيقية لذلك الإطار الفكري »[٣٣] .

فظهر من هذه التعريفات أن مفهوم البحث العلمي يعني طريقة الاستدلال والاستنتاج وترتيب الأدلة والموازنة بينها ، للتوصل إلى الحقائق العلمية .

---

(٣٠) محمد محمود قاسم ، المنطق الحديث ومناهج البحث فيه ص ٢٣ .
(٣١) محمد ريان عمر ، البحث العلمي ، مناهجه وتقنياته ص ٤٨ ، وانظر عبدالرحمن بدوي مناهج البحث العلمي ص ٤ . وحلال محمد موسى ، منهج البحث العلمي عند العرب ص ٣١ .
(٣٢) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ٥ .
(٣٣) محمد ريان عمر ، المصدر السابق ص ٤٦ .

فهو أصول وقواعد مقننة ، تهدف إلى ضبط المعرفة ، وترتيب مباحث العلم . والمناهج المعروفة في البحث العلمي ترجع بالنظر إلى طريقة البحث إلى نوعين هما :

- منهج الاستدلال والاستنتاج .
- المنهج التجريبي .

والاستدلال إما أن يكون بخبر منقول ، أو بوثيقة مادية ، أو نتيجة نظر واستنتاج من مجموعة أدلة أو قرائن مطوقة كانت أو مفهومة ، ومجال استخدام هذا المنهج في الغالب هو الدراسات المتعلقة بالإنسان ، سواء الدراسات الشرعية ، أم الأدبية واللغوية ، أم الدراسات الاجتماعية .

أما التجربة فتعتمد على الأمور الحسية المشاهدة ، ومجال استخدامها في الغالب هو العلوم التطبيقية .

ويمكن توزيع المناهج على حسب الموضوعات إلى ثلاثة مناهج رئيسية هي :

منهج الاستدلال الشرعي :

ويقوم هذا المنهج على النصوص الشرعية في الكتاب والسنة ، إضافة إلى الإجماع والقياس الصحيح والاجتهاد ، وذلك وفق ترتيب مفصل في علم الأصول ، مثل العموم والخصوص ، والناسخ والمنسوخ ، والمفصل والمجمل ، وصحة الدليل ، والجمع بين الأدلة التي يبدو بينها التعارض إن أمكن ، أو اللجوء إلى الترجيح ، وله طرق متعددة ذكر منها الحازمي(٣٤) في كتابه الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار خمسين وجها .(٣٥) منها كثرة العدد في أحد

---

(٣٤) هو الإمام الحافظ النسابة أبو بكر محمد بن موسى بن حازم الهمداني ، كان من الأئمة الحفاظ العالمين بفقه الحديث ومعانيه ورجاله ، ولد سنة ٥٤٨ هـ وتوفى سنة ٥٨٤ هـ وهو شاب . (تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ /١٣٦٣) .

(٣٥) انظر الصفحات من ١١ – ٢٣ .

الجانبين ، أو أن يكون أحد الراويين أتقن وأحفظ ، أو أن يكون أحد الراويين مباشرا لما رواه ، والثاني حاكيا ، أو أن يكون أحدهم صاحب القصة ، لأن صاحب القصة أعرف بحاله من غيره وأكثر اهتماما بها .. الخ .

منهج دراسة الظواهر بشرية كانت أو طبيعية :

وهو يقوم على المشاهدة والملاحظة والتتبع ، ويعتمد أيضا على الإحصاءات ودراسة الحالات ، كما يعتمد على جمع المعلومات والأخبار .

والمنهج الثالث هو منهج دراسة العلوم التطبيقية والرياضية ، القائم على التجارب المعملية وتحليلها .

دور العلماء المسلمين في منهج البحث :

وقد كان للعلماء المسلمين دورٌ بارزٌ في تقنين هذه المناهج واستخدامها في أبحاثهم ودراساتهم .

ويعنينا هنا إبراز دور العلماء المسلمين في وضع القواعد لمنهجي الاستدلال ، ودراسة الظواهر البشرية ، لأنهما المنهجان اللذان لهما علاقة بالبحث التاريخي .

فمنهج الاستدلال الشرعي كله قائم على جهود الفقهاء في علوم الشريعة ، خاصة علمي أصول الفقه والحديث ، فقد قننوا طرائق إثبات الأخبار ، ونقد المرويات ، والرواة ، ووضعوا موازين في الجرح والتعديل ، حتى إذا صحت الأخبار جعلوا قواعد منظمة في الاستدلال بها ، وإذا عدم النص (الخبر) ففي الاستنباط والاجتهاد مجال ضمن ضوابط وقواعد محددة . وكذلك منهج دراسة الظواهر كان لهم مساهمة فعالة في دراستها وتتبعها وتحليلها ، منطلقين في ذلك من أحكام الشريعة ومتطلباتها ، واضعين العلاج اللازم لكل حالة وفق ذلك . وقد أبان علماء السلف حقيقة المنهج العلمي ،

من خلال أبحاثهم ودراساتهم المتخصصة[٣٦] . وطبقوا ذلك في الواقع العملي ، ولم يكتفوا بالدراسات النظرية . ونوجز فيما يلي سمات المنهج العلمي وأسسه كما استقر عند المحققين من العلماء المسلمين . وذلك من خلال استقراء مؤلفاتهم ومناهجهم ، ونحن لا ننكر أن في سير الحركة الثقافية والعلمية للأمة مخالفات لهذه السمات ، ووقوع تقصير في جوانب متعددة ، لكننا هنا نذكر السمات المثلى للمنهج العلمي كما هو عند العلماء المحققين ، ولسنا بصدد تقويم الحركة الثقافية للأمة حتى نبين جوانب الخلل والتقصير الذي وقع فيه البعض ، لأن غرضنا هو بيان الجانب الذي يقتدي بهم فيه ، أما الخطأ والتقصير فلا يتابعون عليه ، لأننا هنا نرسم منهجاً مثالياً للبحث العلمي كما نراه مطبقاً في مؤلفات المحققين من علمائنا ، وكما تدل عليه النصوص الشرعية والفطر المستقيمة .

وسمات المنهج العلمي عندهم نستطيع أن نلخصها في النقاط التالية :

١ – استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتهما .

٢ – حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة ، مع حسن العرض وتحرير المسائل .

٣ – الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة ، ومن ذلك الإيمان بالغيب[٣٧] ، وبالجزاء والحساب ، والقضاء والقدر ورد كل ما خالفهما .

٤ – الأمانة في استقصاء الأدلة وإيرادها ، مع الجمع والترجيح بين الروايات

---

(٣٦) للاطلاع على إسهام العلماء في المنهج العلمي ، انظر القاضي عياض ، الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع ص ١٣٥ – ١٨٨ .

الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ص ١٨٠ – ١٨١ و٢٤١ وما بعدها .

ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله ص ٤٦٧ – ٤٧٠ .

الآمدي ، الأحكام في أصول الأحكام ٣ /٢٥٩ – ٢٨٠ .

العراقي ، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح ص ٢٠٠ – ٢١٨ .

محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر ص ٣١٧ – ٣٤٠ .

(٣٧) جرى النص على هذه الأمور من قضايا العقيدة ، لأنها من أهم مواطن الخلاف والنزاع في منهج البحث العلمي بين المسلمين وغيرهم ، وعدم الإيمان بها نقص كبير في المنهج العلمي الصحيح .

المختلفة وفقا للقواعد المقررة ، مع الاستعانة بأقوال العلماء الثقات .

٥ - بيان المصادر والمراجع التي أخذ عنها ، مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها .

٦ - الاعتماد على النصوص الشرعية ، والحقائق العلمية ، وعدم الارتباط بالأوهام والطلسمات والظنون ، والتحرر من ذلك .

٧ - التجرد من الهوى والميل الذاتيين ، وقد حصل لهم هذا لأنهم ينظرون إلى العلم على أنه من العبادات التي يتقربون بها إلى الله .

٨ - تحكيم اللغة والالتزام بقواعدها ، وبدلالة الألفاظ ، فلا يؤول اللفظ ولا يخرج عن دلالته ، دون قرينة صارفة .

٩ - عدم قبول المتناقضات ، وتقديم المباديء على الرجال ، ولذلك لا يسلمون لما ينقل عن المشايخ وهو مخالف للدين ، ويقولون وهو أحد أمرين إما كذب عليهم أو غلط منهم(٣٨) .

١٠ - حسن الأداب مع كلام الله - سبحانه وتعالى - ومع الأنبياء والعلماء ، والابتعاد عن التجريح الشخصي ، والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء .

فهذه القواعد التي اتبعها العلماء المسلمون في كتاباتهم ومؤلفاتهم تنطلق من التزامات خلقية ومباديء شرعية ؛ لأن الأمر بالصدق والأمانة ، ومجانبة الهوى ، وترك القول بدون علم ، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية ، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله ، ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها ، فلا يخوض فيما ليس من مقدرته إدراكه ، كعلم الغيب ، بل على المرء المسلم التطامن والتواضع والاعتراف بالعجز فيما لا يستطيعه ولم يعط آلة العلم به . لأن هناك أموراً لا يستطيع الإحاطة بها ، وإنما تتلقى من طريق الوحي الرباني .

فهذه هي أصول وقواعد(٣٩) البحث العلمي عند المسلمين .

---

(٣٨) انظر ابن تيميه ، العبودية . ص ١٣٠ .

(٣٩) لقد استكمل العلماء المسلمون في أبحاثهم ومؤلفاتهم شروط المنهج العلمي ، الشكلية منها والموضوعية ، وقد وضحنا أعلاه الشرائط الموضوعية والفكرية ، ونوضح هنا بعض الشروط الشكلية في إعداد البحث ، مثل الإحالات والإشارة للمراجع ، فقد كانوا يسندون القول إلى صاحبه ، وإذا =

فإذا توفرت في بحث مسألة من المسائل ، قيل إن صاحبها قد اتبع المنهج العلمي ، وصح أن يسمي بحثه « بحثا علميا » وقبله العلماء ورضوا به .

ولقد رد علماء السلف على كل من خالف هذه الأصول العلمية لأي سبب كان ، بالتأويل الباطل الذي لا تحتمله أساليب اللغة العربية ، أو بالقول بأن لكل ظاهر باطنا ، كما قالت فرق الباطنية من القرامطة والروافض والإسماعيلية ، أو بإنكار شيء من أمور الغيب ، كإنكار المعجزات للأنبياء وإنكار الملائكة والجن .

كما فعلت بعض الفرق الضالة ومن اتبع سبيلهم من العقلانيين الماديين ، أو باعتماد الأوهام والظنون والمكاشفات وخطرات النفس ، كما ذهبت فرق من الصوفية ، أو بإنكار القضاء والقدر ، كما فعلت القدرية ، أو بالالتزام بأساليب وحدود المنطق الصوري والفلسفة اليونانبة الوثنية ، كما فعل أصحاب علم الكلام .

= انتهى النص أشاروا لذلك مثل انتهى قوله ، أو انتهى بلفظه وحروفه ، ويشيرون إلى موضعه من كتابه بقوله ذكره في باب كذا أو فصل كذا أو في بحث كذا ، وهذا هو المتيسر في عهد المخطوطات ، ولو كانت الطباعة موجودة لأشاروا لأرقام الصفحات والأجزاء . وأيضا الهوامش كانت موجودة في المخطوطات العربية لكنها على غير النظام الذي نعرفه اليوم ، ومن الأمور الشكلية إعداد الفهارس ، وقد أوجدوا لهم طريقة تحل مثل هذه المشكلة التي لا تنضبط في المخطوطات لتغير أرقام الصفحات ، بل والتجزئة ، فلجأوا إلى طريقة الترتيب على حروف المعجم في القواميس والأحاديث والأعلام .

يقول الشيخ أحمد محمد شاكر في مقدمته لسنن الترمذي ١ /٤٣ « إن قواعد التصحيح وترتيب الفهارس ليست من اختراع المستشرقين ، فلقد وضع الخليل بن أحمد في أواسط القرن الثاني الهجري كتاب العين ورتبه على حروف المعجم ، وكذلك ألف العلماء في التراجم المرتبة على حروف المعجم مالا حصر له ، ثم إن كتب رجال الحديث قد وضع أكثرها على معنى الفهارس ، مثل كتاب تحفة الأشراف في معرفة الأطراف للمزي ، وكتاب الأطراف لابن عساكر ، وكتاب ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الأحاديث للنابلسي ، كما أنك تجدهم يذكرون المترجم له ويذكرون مواضع روايته في الكتب الستة ويذكرون شيوخه وتلاميذه ، واصطلحوا على رموز للكتب الحديثية يضعونها بجوار اسم الراوي المترجم له » .

قلت : وقد وضع المزى هذه الرموز فوق أسماء الشيوخ والتلاميذ الذين أخذ عنهم المترجم له ، كما في كتابه تهذيب الكمال .

مفهوم البحث العلمي الأوربي :

قبل الحديث عن مفهوم البحث العلمي عند الأوربيين نعطي لمحة تاريخية موجزة ، تيسر لنا دلالة هذا المصطلح عند القوم .

فمن المعروف أن أوربا قبل عصر النهضة كانت تعيش في ظلام وانحطاط ، خاصة في المجال العلمي ، وكان رهبان الكنيسة قد آمنوا بالخرافات وتحكموا في رقاب الناس ، وشرعوا للأمراء والنبلاء قوانين **الإقطاع والظلم والاستبداد** ، فلما تنور بعض الأوربيين أثناء صِلَاتِهم مع المسلمين – في الحملات الصليبية أو عن طريق الأندلس – حاربتهم الكنيسة ورجالاتها ، الذين يخافون على سلطانهم إذا تعلم الناس وعرفوا الحقائق ، وبذلك وقع النزاع بين العلم والكنيسة أو كما يسمى « بين العلم والدين » – دين الكنيسة – ومن المعروف أن أوربا لم تعرف دينا صحيحا ، فقد حرفت الديانة النصرانية قبل أن تدخلها(٤٠) . وكان نتيجة هذا الصراع أن انتصر العلم على الخرافة – الديانة المحرفة – ولذلك تشبث الأوربيون بهذا العلم الذي خلصهم من الكنيسة وسلطانها الأعوج ، وفتنوا بالمنهج العلمي التجريبي ، وجعلوه طاغوتا يعبد من دون الله ، فقد كان وسيلتهم في تحطيم الكنيسة ودينها ، وقد نتج عن هذا النزاع كراهة الأوربيين للمباحث الدينية(٤١) ، لأنها تذكرهم بسلطان الكنيسة ، فأسسوا مناهجهم وعلومهم على هذا الأساس من التصور والكراهية ، وآمنوا بأن هناك تناقضا بين العلم والدين ، وسحبوا هذه النتيجة على كل دين حقا كان أو باطلا(٤٢) .

---

(٤٠) عن تحريف النصرانية من أول دخولها لأوربا ، انظر شهادة الكاتب الأمريكي « درابر » في كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، لأبي الحسن الندوي ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٤١) انظر ، محمد أسد : « الإسلام على مفترق الطرق » ص ٥٢ – ٥٣ . وسيد قطب « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » ص ١٤ حيث يقول : « لقد جاور العداء الأفكار والتصورات الدينية إلى منهج التفكير الديني بجملته ، وكمن العداء للدين وللمنهج الديني لا في الموضوعات والفلسفات والمذاهب التي أنشأها الفكر الأوربي ، بل في صميم هذا الفكر وفي صميم المناهج التي يتحذها للمعرفة .

(٤٢) حول هذا الموضوع انظر سيد قطب ، المصدر السابق ص ٦٧ – ٧٥ وسفر عبدالرحمن الحوالي ، العلمانية نشأتها وتطورها ، الفصل الثاني ، الصراع بين العلم والكنيسة ص ١٤٥ ، ١٦٤ .

وهذا إما عن جهل بحقيقة الدين الصحيح – دين الإسلام[٤٣] – أو عن عمد وإصرار لأغراض ومصالح متعددة ،[٤٤] زيادة على ما في طبيعة النفسية الكافرة من الجحود وكره الحق والإيمان ، كما أوضح الله ذلك في كثير من الآيات .

وقد وقع المسلمون المعاصرون تحت تأثير الغزو الفكري الأوربي الذي جاء في أثر الغزو العسكري ، فنقلوا مناهج الغرب ومفاهيمهم وطبقوها على العلوم الإسلامية الشرعية واللغوية والتاريخية والاجتماعية ، مع أن هذه المفاهيم والمناهج قائمة على أسس علمانية متحررة من ضوابط الدين وغير مهتدية بهديه ، فساووا بين الحق والباطل ألا ساء ما يحكمون !! والمنهج العلمي السائد في أوربا اليوم هو المنهج التجريبي[٤٥] الذي يقوم على التجربة المعملية الحسية ، وهذا المنهج صالح لدراسة العلوم المادية والتطبيقية ، أما العلوم الشرعية واللغوية

---

(٤٣) قال تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، وقال تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

(٤٤) لقد بحث الكاتب الأوربي المهتدي محمد أسد في كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » موقف المستشرقين من الإسلام ، وأنهم لا يحتفظون تجاه البحث فيه بموقف علمي متزن ، ثم ذكر مجموعة = = من الطرق التي يلجأون إليها في تشويه الإسلام عن قصد وإصرار انظر الصفحات ٥٢ – ٥٥ و٥٨ و٦٠ و٦١ .

(٤٥) وهذا المنهج قد أخذته أوربا عن العلماء المسلمين ، يقول أحد الأوربيين ، « إن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو لنا جلياً في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم « مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ص ٢١٥ ، وانظر اعتراف روجر بيكون وما نقله عنه بريفولت في كتابه بناء الإنسانية في كتاب الإسلام ومشكلات الحضارة ص ٣٤ – ٣٦ ، ورغم تفوق أوربا اليوم في هذا المنهج وتوصلها إلى نتائج باهرة وتقدم كبير في هذا المجال ، إلا أنها متخلفة ، بل منتكسة إلى أدنى درجات الانتكاس في ميدان معرفة الإنسان والعلوم المتعلقة بإصلاحه وتقدمه ، وقد اعترف بذلك الطبيب الأمريكي الشهير « الكسيس كاربل » في كتابه الذي سماه « الإنسان ذلك المجهول » ونادى على = = الحضارة الأوربية المعاصرة بالزوال والهلاك إذا هي استمرت على هذا المستوى من التقدم في علوم المادة والتأخر في علوم الإنسان ، وكان الحل في نظره هو المزيد من البحث في علوم الإنسان ، غير أن الحل الصحيح كما يراه المسلم هو العودة إلى منهج الله وتلقي الهدى منه ، فإنه البلسم لشقاء الإنسانية وأمراضها « انظر حول هذه المعلومة سيد قطب **الإسلام ومشكلات الحضارة** » ص ٩ – ٣٢ وانظر كذلك ص ١٦٤ .

والاجتماعية التي تتعلق بالإنسان وأحواله واتجاهاته فلا يمكن استخدام هذا المنهج في دراستها ، لأن الإنسان ليس مادة تقاس بالمعمل ، فالأشخاص متفاوتون في قدراتهم ومداركهم ، وتوجد بينهم فروق فردية كثيرة ، بل حتى الشخص الواحد تختلف قدراته ومواقفه وتفكيره واستجاباته بين وقت وآخر وبين موقف وموقف ، إضافة إلى تأثير التصورات والعقائد والتربية التي تلقاها ، بينما المادة الجامدة تعطي وتكرر نفس النتيجة إذا تكررت الظروف ، فلأجل ذلك لا يصلح هذا المنهج لدراسة العلوم المتعلقة بالإنسان ، ولا يمكن الاطمئنان إلى نتائج تجاربه في هذه العلوم .

إلى جانب المنهج التجريبي هناك منهجان آخران ، هما منهج الاستدلال الاستنباطي ، ومنهج دراسة الظواهر عن طريق الاستقراء والملاحظة والإحصاء واسترداد الماضي ، فالمنهج الاستنباطي يقوم على القياس المنطقي والتجريد الذهني ، وهو ما يعرف بالمنهج « الأرسطي » اليوناني ، وقد كان لاستخدامه في دراسة العلوم الإسلامية ، عندما ترجم هذا المنطق في الدولة العباسية أسوأ الأثر وتوزع الأمة الإسلامية إلى فرق متعددة ، ونشأ عن ذلك مدرسة علم الكلام في دراسة العقائد الإسلامية ، وقد حارب العلماء المسلمون مثل هذا المنهج ورفضوه وكشفوا فساده وبطلانه[٤٦] ، بل أصدروا الفتاوى في تحريمه[٤٧] .

أما منهج دراسة الظواهر وتحليلها فإن خطره يكمن في القائمين عليه وما يحملونه من تصورات خاطئة عن الإنسان ووظيفته ، وعن الحياة وغايتها ، وعن ربوبية الله وألوهيته ، بل ربما يكون بعضهم من طوائف الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق ، ولذلك تكون أبحاثهم مقطوعة الصلة بالوحي الرباني ، بل إنها تفترض العداء بين العلم المادي وعلم النبوة[٤٨] . إضافة إلى « أن المنهج

---

(٤٦) منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كثير من كتبه خاصة « نقض المنطق ، والرد على المنطقيين ونقض التأسيس ، وسيد قطب في مقدمة كتابه « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » .

(٤٧) منهم شيخ المحدثين ابن الصلاح في فتاويه انظر مجموعة الرسائل المنيرية ٤ /٣٥ وقد نقل ابن تيمية تحريم علم الكلام والفلسفة عن أبي يوسف والشافعي وأحمد بن حنبل . حتى قال الشافعي : لأن =

الغربي في البحث خال إلى الآن من أي ميزان موضوعي لتحقيق كل ما يتعلق بالرواية وصحة الخبر والنقل ، وما يسمونه بالمنهج « الاستردادي » أو منهج « التوسم » عمدته الأولى ما قد يتمتع به الباحث من عمق الملاحظة ودقة الوجدان واتساع دائرة الخيال ، فالأداة التي يستخدمها الباحث هي ملاحظته ووجدانه وخياله ، وكل ما قد يقع عليه من آثار وأحداث ووثائق ، وكيفية البحث « عندهم » هي أن يعكف الباحث على ما تجمع لديه من هذه الآثار أو الأحداث ، فيقدح فيها الملاحظة والوجدان والخيال ليستنتج من وراء ذلك ما قد يطمئن إليه من مبادىء وأحكام ووقائع ، وهو كما ترى منهج لا يملك مهما جمع من العدة والوثائق إلا سبيلا واحدا هو سبيل الاستنتاج الفكري ، بل الغيبي المجرد ، وما كان الاستنتاج المجرد عن التجربة والمشاهدة والاستقراء التام والرواية الصادقة إلا رديف الوهم والشك »(٤٩) .

بينما منهج النقل والرواية قد بلغ عند العلماء المسلمين الغاية ، وقامت على خدمته علوم فريدة ، اختصت بها الأمة الإسلامية ، مثل علوم الإسناد ، وقوانين الرواية ، والجرح والتعديل ، والتراجم ، والطبقات .

وهذه النقطة من أهم المفارقات في منهج البحث العلمي بين المسلمين وغيرهم . « كما أن الأوربي بطبيعته ميال إلى اعتبار أوربا هي محور العالم ، فهي نقطة الرصد في نظره ، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث ، ومن هنا تتخذ في نظره أشكالا معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصح

= يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الإشراك بالله خير له من أن يبتلى بالكلام » انظر درء تعارض العقل والنقل . لابن تيمية ١ /٢٣٢ » .

(٤٨) راجع حول هذه النقطة ما ذكرناه سابقا ، ومحمد أسد ، المصدر السابق ص ٤٥ قال : « لما تحرر العقل الأوربي من عبوديته للكنيسة تخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين تلك الحدود ، ووطد عزمه تدريجيا على العداء لكل شكل من أشكال السلطان الروحي على الإنسان ، ومن ثنايا هذا الخوف الباطن ، ولئلا تعود تلك القوى التي تدعي السلطان الروحي أقامت أوربا نفسها زعيما لكل ما هو ضد الدين مبدئيا وعمليا . لقد رجعت أوربا إلى إرثها الروماني وأضيف إلى هذا الإرث الروماني الوثني المادي عنصر مادي جديد وأخذوا يعبدون المال كما عبد بنو إسرائيل العجل » .

(٤٩) د / محمد سعيد البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ص ٤٢ ط ٦ دار الفكر ١٣٩٩ هـ دمشق ، وانظر كذلك عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث التاريخي ص ١٨٣ - ١٨٤ .

الأشكال ، وهو يدركها في هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها ، وإذا كان بديهيا أن أوربا لم تكن هي محور العالم في كل عصور التاريخ ، وكان الأوربي لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلى الماضي ، أدركنا مدى انحراف الزاوية التي ينظر بها الأوربي للحياة الإسلامية التاريخية . ومدى أخطاء الرؤية التي يضطر إليها ، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعينة ، وذلك كله على افتراض النزاهة العلمية المطلقة وانتفاء الأسباب التي تؤثر على هذه النزاهة »[٥٠] .

وهذه العوامل كلها تؤدي إلى فساد المنهج العلمي الأوربي في البحث ، وتجعل الأخذ به في الدراسات الإسلامية خطراً كبيراً ، إضافة إلى بعد هذا المنهج عن العلوم الشرعية ، بل محاربته لها كما مَرَّ معنا .

مفهوم الموضوعية :

الوضع في اللغة ضد الرفع « يقال وضعه ، يضعه وضعا وموضوعا . وأنشد ثعلب بيتين فيهما موضوع جودك ومرفوعه . عنى بالموضوع ما أضمره ولم يتكلم به والمرفوع ما أظهره وتكلم به . ووضع الشيء وضعا اختلقه ، وتواضع القوم على الشيء اتفقوا عليه ، وأوضعته في الأمر إذا وافقته فيه على شيء »[٥١] .

وفي المصطلح يطلق هذا اللفظ للدلالة على المنهج أو الأسلوب المجرد عن المؤثرات الذاتية .

ومعنى ذلك أن ذات الشيء هي حقيقته الجوهرية المجردة ، أما موضوعه فهو صفاته أو « أعراضه » حسب مصطلحات المناطقة[٥٢] .

---

(٥٠) انظر سيد قطب ، في التاريخ فكرة ومنهاج ص ٤٠ – ٤١ .
(٥١) ابن منظور ، لسان العرب « مادة وضع » ١٠ /٢٧٦ وما بعدها .
(٥٢) انظر ملحق لسان العرب إعداد وترتيب يوسف خياط ونديم المرعشلي ٣ /٢١١ مادة ، « وضع » ، وانظر كذلك د . عوض الله حجازي ، المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم « فصل التعريفات » .

وقد استخدم هذان الاصطلاحان « الذاتية ، والموضوعية » في مناهج البحث العلمي للتعبير عن أسلوبين أو منهجين متضادين ، أحدهما يعتمد على النظرة الشخصية للباحث « الذاتية » ، والآخر يعتمد على الحقائق المجردة « الموضوعية » ، ولم يستعمل هذا الاصطلاح من قبل عند العلماء المسلمين ، وإنما استعملوا لفظ « الأمانة والإنصاف والصدق والعدالة ، وهذه التعابير التي استعملها السلف تؤدي المعنى المراد من مصطلح الموضوعية وتزيد عليه ، لما لتلك التعابير من الدلالة الشرعية ، والشمول والإحاطة بالمعنى المقصود . قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾(٥٣) وقال : ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾(٥٤) وقال : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾(٥٥) وقال : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٥٦) ، وقال ﷺ : « إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »(٥٧) ، ونهى ﷺ عن شهادة الزور وغلَّظ في ذلك ، فقال لأصحابه – رضي الله عنهم – « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا بلى يا رسول الله ، قال الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »(٥٨) .

(٥٣) سورة المائدة آية : ٨ .
(٥٤) المائدة آية : ٢ .
(٥٥) سورة النساء آية : ١٣٥ .
(٥٦) سورة التوبة آية ١١٩ .
(٥٧) محمد فؤاد عبدالباقي اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣ /١٩٨ .
(٥٨) رواه البخاري ، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥ /٢٦١ .

وقال ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » متفق عليه(٥٩) .

فهذه النصوص من الكتاب والسنة هي التي تعطي لهذه المصطلحات دلالتها العميقة في النفس المؤمنة ، وتعطيها بعدها الأخلاقي السلوكي في واقع الحياة العملية ، لا مجرد طلب الالتزام الأدبي لجاه الآخرين ، كما هو عند غير المسلمين ، لأن المسلم يشعر وهو يلتزم بهذه المعاني أنه يؤدي عبادة يتقرب بها إلى الله ، مثلما يتقرب إليه بالصلاة والصوم والجهاد وطلب العلم ، وبمثل هذا الشعور يستطيع أن يجابه هوى النفس وميلها عن الحق ، ويجابه عواطف القربى ، فيقف إلى جانب الحق ولو ضد نفسه أو قريبه ، من والد وغيره ، كما في آية سورة النساء ، فلا يحيف على عدوه أو من يبغضه ، حتى لو كان هذا البغض في ذات الله كبغضنا للكافرين ، لأن الولاء والبراء شيء وشهادة الحق والأمر بالقسط شيء آخر لا يخل به ، فالموضوعية في مناهج البحث تعني الالتزام بالنص واستنطاقه وعدم فرض رأي مسبق عليه ، أو الدخول إلى بحث الموضوع بمقررات سابقة ، وإنما يترك الدليل والنص هو الذي يتحدث فلا يقدم عليه قياسا أو يؤوله تأويلا خارجا عن دلالة النص وسياقه ، والموضوعية الحقة هي مراعاة كل العناصر التي لها صلة بالموضوع وعدم إغفال شيء منها .

لكن المفهوم الأوربي للموضوعية لا يتفق مع المفهوم الإسلامي لها ، فالأوربي لنشأته البعيدة عن الدين ورفضه للأحكام والمباديء الدينية يطلب من الباحث ليكون موضوعيا التجرد من المقررات والأحكام الدينية ، وأن يبحث الموضوع بحثا عقليا مجردا ، وهذا هو مكمن الخطر والخلاف بيننا وبينهم ، مع أن هذا غير ممكن في الواقع العملي ، كما سنوضح ذلك فيما يأتي من البحث . « وقد ارتبطت الموضوعية كفكرة مع المدرسة العلمانية التطورية ، التي تؤمن بأن العلم والطرق العلمية ستكون تدريجيا السبيل الوحيد لتنظيم حياتنا وعلاقتنا الاجتماعية والاقتصادية ، ولتحديد رؤيتنا للحياة من حولنا »(٦٠) .

---

(٥٩) محمد فؤاد في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ١ /١٢ .

(٦٠) محمد عيسى فهيم . الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال ؟ مقالة بجريدة الرياض في ٦ /١ /١٤٠٢ .

ومعلوم أن هذه الأمور لا تتلقى من الطرق العلمية ، وإنما تتلقى في تصور المؤمن من الوحي الرباني ، فهو الذي ينظم علاقتنا الاجتماعية والاقتصادية ، ويحدد رؤيتنا ونظرتنا للحياة وللإنسان والكون ، كما سبق إيضاح ذلك ، وبهذا يتبين لنا الظروف التي نشأ فيها مثل هذا المصطلح « الموضوعية » والإطار الثقافي والتصور الفكري الذي صاغه .

ومفهوم « الموضوعية » هذا يرتبط به في مناهج البحث العلمي مفهومان آخران ، يجدر بنا أن نعرض لهما في هذا المقام ، وهما : مفهوم التجرد ومفهوم الحياد ، وسنعرض للأصل اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكل منهما .

مفهوم التجرد :

الأصل اللغوي : « جرد الشيء يجرده جردا . وجرده قشره . ويقال رجل أجرد أي لا شعر عليه . والجرد (من الأرض) فضاء لا نبت فيه . والسماء جرداء إذا لم يكن فيها غيم . والأجرد من الخيل والدواب كلها : القصير الشعر . وتجرد للأمر إذا جد فيه . وكذلك تجرد في سيره وانجرد . ولذلك قالوا شمَّر في سيره . وانجرد به السير (إذا) امتد وطال . وإذا أجد في القيام بأمر قيل تجرد لأمر كذا ، (ويقال) تجرد للعبادة إذا جد فيها وأخلصها لله »[٦١] .

أما في الاصطلاح ، فإن التجرد يعني الانفصال عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية ، وكذلك التصورات السابقة من العقائد أو الأهواء والميول والرغبات ، وهو بهذا المعنى مرادف لمرادهم بالموضوعية .

والسؤال الذي يمكن طرحه بهذه المناسبة هو : هل الموضوعية والتجرد بهذا المعنى ممكن تطبيقهما ؟

---

(٦١) ابن منظور ، لسان العرب ، « مادة جرد » ٤ /٨٦ و٨٧ .

والجواب على هذا التساؤل يكون في مقامين :

المقام الأول : أن هذا التعريف يشتمل على مغالطة كبيرة وهي طلب التجرد من العقائد والتصورات ، والإنسان بصفة عامة ، والمسلم بصفة خاصة لا يمكنه أن يتجرد عن ذاته ولا عن عقيدته وتصوراته الصحيحة إلا أن يكفر .

ثم إن القضية المطلوب التجرد لها وبحثها بحثا عقليا إما أن تكون حقا أو باطلا ، والإنسان لا يعرف الحق من الباطل إلا بواسطة العقيدة الصحيحة ، لأنها الميزان الذي يزن الأمور ليعرف حقها من باطلها ، وإذا تجرد من هذا الميزان فأنَّى له معرفة الحق من الباطل ؟

فالتجرد في المفهوم الإسلامي هو الإخلاص والاتباع معا ، فلا يكفي الإخلاص دون اتباع منهج الحق ، ولا يكفي الاتباع دون الإخلاص لوجه الله وابتغاء مرضاته ، بينما التجرد عندهم هو الإخلاص . لحكم العقل .

ومنشأ الاختلاف في هذا بين المسلم وغير المسلم راجع إلى الاختلاف في أصل التصور ومصدر المعرفة .

فمصدر المعرفة في التصور الإسلامي هو الوعي في الكتاب الكريم والسنة المشرفة ، إلى جانب بعض المصادر الأخرى الثانوية والتي ترجع إلى الوحي ليحكم فيها ، ويصحح لها تصورها ، بينما مصدر المعرفة في منهج البحث العلمي عند غير المسلمين هو العقل ، ولذلك يطلبون من الباحث أن يتجرد ويتحرر من تصوراته ومعارفه وقيمه السابقة ويسأل عقله ، ويتلقى منه الجواب !! يقول أحدهم : (إن النقد في الكتب القديمة لم يكن مباحا بالقدر الذي يباح به اليوم ، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية ، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالمنهج العلمي والنقد العلمي »[٦٢] ، فكأن المنهج العلمي والنقد العلمي – في مفهومهم يناقض التقيد بأحكام الشريعة ، وأن يكون النقد في إطارها لا ما تمليه العقول المتحررة من أحكام

---

(٦٢) محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ٤٧ .

الدين ، وكأنه يرى أن المنهج العلمي يناقض في نظره الكتابة لأغراض تعبدّية !!! ومن المعلوم أن الباحث المسلم الذي يرجو الله واليوم الآخر لا يتعلم علما ولا يكتب كتابة ولا يعمل عملا إلا وله فيه نية يرجو الله أن يثيبه عليها ، لأن حياة المسلم كلها عبادة ، كما قال تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت ﴾(٦٣) وهذا هو مقتضى المنهج العلمي الصحيح ، كما قال رسول الله ﷺ ، « إنما الأعمال بالنيات »(٦٤) وكما قال « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد »(٦٥) أي مردود عليه .

أما المنهج الوثني المتلقي من الكفار والمدعاة له العلمية فإنه يتناقض في أسسه ، وفي أصل تصوره ، وفي منطلقاته الفكرية مع العقيدة الإسلامية الصحيحة ، ولا يغرنك اتفاقه مع منهج البحث العلمي الإسلامي في بعض القضايا والإجراءات الشكلية .

فلقد اغتر بعض الكتاب المسلمين ، بالتنظيم الشكلي الذي يدعو له منهج البحث العلمي في الغرب وبعض التنبيهات العلمية ، فأخذ يدعو لتطبيق هذا المنهج – بعجره وبجره(٦٦) – في الدراسات الإسلامية ، غافلا عن أسسه ومنطلقاته الفكرية الوثنية .

ويقول هذا المغرور في معرض رده على من نصحوه بعدم تطبيق المنهج الغربي في دراسته عن سيرة الرسول ﷺ : (فلتكن الحقيقة غير المقيدة بأي قيد هي رائدنا جميعا ، ولنوجه كل همنا إلى أن نربط ما بين ماضي الإنسانية ومستقبلها – على أنها وحدة كبرى لا تفرق بينها القوميات ولا الجنسيات ولا الأديان ــ برابطة ترمي إلى تحقيق أسمى غاية تطلعت إليها الإنسانية منذ

---

(٦٣) سورة الأنعام آية ١٦٣ .

(٦٤) سبق تخريجه وهو حديث متفق عليه .

(٦٥) رواه مسلم وسبق تخريجه .

(٦٦) العجر قال الجوهري . العجرة العقدة في الخشب أو في عروق الجسد « الصحاح : ٢ /٧٣٧ ، والبجر بالضم الشر والأمر العظيم : ٢ /٥٨٤ » .

نشأتها ، رابطة الإخاء الحر في ظل الحق والخير والجمال ، فتلك وحدها هي الرابطة التي تكفل هداية الإنسانية في سيرها الحثيث نحو السعادة والكمال)[٦٧] . فانظر إلى قوله : لا تفرق بينها الأديان ، ثم اسأل أين الولاء والبراء ؟ وأين حديث رسول الله « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »[٦٨] .

المقام الثاني : هو أن بعضاً من الباحثين[٦٩] قد شكك في إمكانية وقوع التجرد ، والموضوعية في الدراسات التاريخية والإنسانية بوجه عام ، حيث شعروا أن من العسير بل يكاد يكون من المستحيل تجرد الباحث من ذاته وقيمه ، لذلك نادوا بنظرية (النسبية الموضوعية) وقرروا أن الأحكام التاريخية إنما تفسر خير تفسير إذا فهمت على ضوء بعض القيم الأخلاقية المحددة ، أو إذا وضعت في مجال ثقافي يحدده الباحث[٧٠] .

ولعل هذا يفسر لنا بعض السر في كثرة مذاهب ومدارس التفسير التاريخي ، ولهذا يمكن القول بأن ما تتطلبه الموضوعية والتجرد في المفهوم الغربي من عدم التأثر بأحكام الدين من القيم والأخلاق أمر غير ممكن ، أما التجرد من الهوى والميل وطلب اتباع الأصول العلمية في البحث فهي أمور مسلم بها ، لكن الخطأ طلب التجرد من أحكام العقيدة ، لأن الأمة المسلمة قد جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، وجعلها قائمة بالعدل ، وشاهدة على الأمم

---

(٦٧) محمد حسين هيكل حياة محمد ص ٤٤ ويلاحظ أن الكلمات الثلاث الحق والخير والجمال التي يدعو لها لتحل محل الأديان هي شعار الماسونية .

(٦٨) سبق تخريجه .

(٦٩) انظر عفت الشرقاوي ، أدب التاريخ عند العرب ، فصل موضوعية المؤرخ ص ٤٣ وما= = بعدها ، وانظر مقالة الأستاذ /محمد عيسى فهيم « الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال » جريدة الرياض في ٦ /١ /١٤٠٢ .

(٧٠) هذا الرأي قائم على أساس القول بنسبية الأخلاق وتطورها من زمن لآخر ، فنفسر الحدث التاريخي ونحكم عليه في ضوء الأخلاق الرومانية أو الأوربية أو الهندية أو الإسلامية مثلاً ، والمسلم له منهج محدد وشريعة وضحت له الحق من الباطل والخلق القويم من الخلق السيء ، وله قيم ثابتة لا ينظر فيها إلى قوم أو زمن أو وطن ، ونحن لا نوافقهم على قولهم هذا وإنما لنوضح تشككهم في عدم إمكانية الموضوعية والتجرد في مثل هذه الأبحاث .

كلها من لدن نوح حتى آخر البشرية ، وفقد ورد في الحديث الصحيح أن نوحاً عليه السلام – ومن بعده من الأنبياء يستشهدون بهذه الأمة على أقوامهم بأنهم بلغوا رسالة ربهم كما أمرهم فيشهدون لهم(٧١) . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾(٧٢) .

ثم إن الإنسان مسلما أو غير مسلم لو أراد أن يتجرد من العقيدة التي يعتقدها فإن ذلك لا يمكنه ، إلا أن يستبدل بها عقيدة(٧٣) أخرى ، لأن القلب كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية « مفتقر بالطبع إلى العبودية ، فإن لم يعبد الله عبد غيره »(٧٤) ، وقد قال تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾(٧٥) ، يقول سيد قطب عند تفسير هذه الآية « فكما أنه لم يجعل له قلبين في جوفه ، فإنه ليس من طاقته أن يكون له منهجان واتجاهان مختلفان في آن واحد ، لأن صاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقا ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيراً كان هذا الموقف أم كبيراً ، فهو لا يملك أن يقول كلمة أو يتحرك حركة أو ينوي نية أو يتصور تصوراً ، غير محكوم في هذا كله بعقيدته إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه ، لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد ، يخضع لناموس واحد ، ويستمد من تصور واحد ، ويزن بميزان واحد ، إن صاحب العقيدة

---

(٧١) ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨ /١٧١ و١٣ /٣١٦ ، وانظر تفسير ابن كثير ١ /٢٧٥ – ٢٧٦ .

(٧٢) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٧٣) تفيد الدراسات في علم النفس أن المرء لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر مكانه ، وأن قلبه لا يمكن أن يبقى فارغا من غير معبود أو محبوب ، وهذا واقع مشاهد ، فالذي يترك عبادة الله لابد أن يعبد = = غيره ، كما أن الطفل إذا كانت في يده لعبة لا يمكن أن تنزعها منه إلا إذا استبدلتها بشئ آخر وإلا أزعجك بالبكاء والصراخ .

(٧٤) انظر رسالة العبودية ص ١٠٨ وص ١١١ .

(٧٥) سورة الأحزاب آية ٤ .

لا يملك أن يقول عن فعل فعله فعلت كذا بصفتي الشخصية ، وفعلت كذا بصفتي الإسلامية »(٧٦) .

وبهذا يتضح لنا أن دعوى التجرد والموضوعية بالمفهوم السائد في منهج البحث الأوربي غير ممكنة الوقوع على الحقيقة ، وإنما الممكن هو الصدق والعدل والإنصاف والأمانة لمن يؤمن بها على مدلولها الشرعي ، لأن هذا المدلول هو الذي يعطيها عمقها النفسي وسلطتها التنفيذية .

مفهوم الحياد :

قال في اللسان « الحيد هو ما شخص من نواحي الشيء . وجمعه أحياد وحيود ، والحيد حرف شاخص يخرج من الجبل ، وحايده محايدة جانبه ، وكل ضلع شديد الاعوجاج حيد وجمعه حيود .

وحاد عن الشيء يحيد حيدا وحيدانا ومحيدا وحيدودة . بتسكين الياء في الكل – مال عنه وعدل ، والرجل يحيد عن الشيء إذا صدَّ عنه »(٧٧) فمعنى هذه اللفظة في اللغة لا يخرج عن المخالفة والاعوجاج والميل والعدول عن الشيء والصد عنه ، ولا نجد رابطا بين المعنى اللغوي لهذه اللفظة وبين معناها « كمصطلح » علمي يدل على عدم الميل في بحث قضية من القضايا ، والوقوف موقف العدل والإنصاف ، أو التوقف في المسألة المبحوثة لعدم تبين الدليل فلا يقال لمن هذا حاله وموقفه إنه « محايد » .. ولكن هذا المصطلح « الحياد » مأخوذ من القاموس السياسي ، وهو يعني عدم اشتراك دولة في نزاع مسلح بين دولتين ، وذلك بأن تلتزم هذه الدولة المحايدة بعدم مساعدة أي من الفريقين المتنازعين ضد الآخر »(٧٨) وكأنه في مجال البحث العلمي يعني ألا ينصر الباحث رأيا أو مذهبا ضد الآخر حتى لو تبين الحق ، وهذا في الحقيقة

---

(٧٦) سيد قطب ، في ظلال القرآن ٥ /٢٨٢٣ .

(٧٧) ابن منظور ، لساد العرب « مادة حيد » ٤ /١٣٦ .

(٧٨) انظر الموسوعة العربية الميسرة : ص ٧٤٥ .

موقف سياسي لا موقف علمي صحيح ، لأن المنهج العلمي يقتضي نصرة الحق والقول به إذا تبين ذلك للباحث ، وهو مقتضى الأدلة الشرعية قال تعالى « يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط »(٧٩) ، وقال تعالى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾(٨٠) ، وقال ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾(٨١) وقال ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا : يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما قال تأخذون فوق يديه »(٨٢) ، فكل هذا يدل على وجوب قول الحق ونصرته والوقوف بجانبه ، وهذا لا يخل بالعدالة والأمانة ولا المنهج العلمي الصحيح ، إنما الذي يخل بها ويسمى خيانة السكوت على الباطل ، وعدم نصرة الحق وهو قادر عليه .

فالمسلم لا يعرف ما يسمى بالحياد في قضايا العلم(٨٣) إذا تبين له الحق ، وهذا الأسلوب بمعناه الذي يقصدونه لا يعتبر فضيلة من فضائل الباحث – وإن كان أقل درجة من التحيز والوقوف إلى جانب الباطل – وهو أسلوب فيه تمييع وإماتة للقضايا ، وظلم للحقائق ، ومساواة بين الحق والباطل .

---

(٧٩) سورة المائدة آية ٨ .

(٨٠) سورة البقرة آية ٢٨٣ .

(٨١) سورة الطلاق آية ٢ .

(٨٢) رواه البخاري في كتاب المظالم من صحيحه . انظر فتح الباري ٥ /٩٨ .

(٨٣) دلت الشريعة على أنه في مجال الإصلاح بين الناس يمكن أن يظهر الإنسان التوقف حتى لو تبين له الحق حتى يتمكن بذلك من الإصلاح بين المتخاصمين .

التميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق :

رأينا في المبحث السابق أن المنهج الإسلامي يتميز عن كل المناهج الأرضية بمفاهيمه الأساسية في التصور عن الكون والإنسان والحياة ، كما يتميز بمفاهيمه المنهجية . وقد رأينا عمق ارتباط المفاهيم المنهجية بالتصور العقدي وتأثيره فيها . ولذلك اختط العلماء المسلمون منهجا مستقلا في التوثيق وإثبات الحقائق لم يشاركهم فيه أحد ، وكان هذا المنهج محققا للغاية الإيمانية ومقاصد العلوم الشرعية ، حيث كانت أولى خطوات هذا المنهج قد تمت على أيدي علماء الحديث ، وكانت هذه الخطوات تهدف بالدرجة الأولى إلى الحفاظ على السنة النبوية ونفي الخبث عنها ، عندما فشى الكذب والوضع في الحديث الشريف ، لأن أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته لم تكن مدونة بكاملها كما دون القرآن ، وإنما كانت تتناقل في غالبها رواية شفوية ، فلما دعت الدواعي لتسجيلها بالكامل ، وكان ذلك على رأس المائة الأولى من الهجرة ، عندما أمر الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز بن مروان الأموي مجموعة من العلماء في مختلف الأمصار بذلك ، فكتب لهم أن انظروا حديث رسول الله فاجمعوه ، فإني خشيت دروس العلم(٨٤) ، عند ذلك وضع العلماء قواعد لعلم الرواية والمعرفة النقلية تبلورت مع الممارسة العملية عن مجموعة من العلوم ، مثل علم أصول الحديث (المصطلح) وعلم الجرح والتعديل ، وتاريخ الرجال ، وعلم الدراية أو « نقد المتن » ويمكننا إجمال الخطوات العامة لمنهج توثيق الرواية فيما يلي :

---

(٨٤) ابن حجر ، فتح الباري ١/١٩٥ والكتاني ، الرسالة المستطرفة ص ٤ ، وأكرم ضياء العمري بحوث في تاريخ السنة ص ٢٢٧ .

(١) التحري والتثبت في الرواية ، وكان هذا مما حث عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وسَنَّه الخلفاء الراشدون وعمل به الصحابة – رضي الله عنهم .

(٢) التزام الإسناد واعتماده .

(٣) معرفة الرجال والكشف عن حالهم جرحا وتعديلا .

(٤) استعمال النقد للمتون والأسانيد .

وقد استفاد من هذه القواعد التي وضعت في الأساس لضبط الحديث الشريف كثير من العلوم النقلية ، مثل التفسير والفقه وعلم التاريخ والأدب واللغة ، حتى صار استعمال الإسناد في هذه العلوم من السمات العامة لمناهج التأليف والمؤلفات في القرون الخمسة الأولى .

وإن لم يكن ذلك بنفس الدقة والالتزام الذي وقع من علماء الحديث .

وبالرغم من هذا القصور فقد كان أثر اتباع هذا المنهج على علم التاريخ عند المسلمين بينا ، ومما ينبغي ملاحظته أن هناك اختلافا بين طبيعة التأليف في المادتين « التاريخ والحديث »(٨٥) ، ففي تأليف كتب الحديث يمكن ذكر حديثين في محل واحد ، مع أنه لا صلة بينهما من ناحية الموضوع ، دون أن يشعر الباحث بأي شيء من الارتباك ، وهذا مشاهد في الكتب التي رتبت على مسانيد الصحابة ، كما في مسند أحمد بن حنبل ، ومسند الحميدي وغيرهما ، بينما يختلف الوضع بالنسبة لكتب التاريخ ، حيث يتطلب الأمر ملاحظة الترتيب الموضوعي والزمني ، فتسلسل الحوادث وتتابعها في نسق واحد يشكل أهمية كبيرة في بناء الفكرة التاريخية ، مما جعل بعض المؤرخين يترك الالتزام بالإسناد وبعضهم يستعمل ما يمكن أن يعبر عنه بالإسناد « الجمعي » ، حيث يأخذ الكاتب مجموعة من الروايات ثم يدمج بعضها في بعض ويسوقها مساقا واحدا ، والبعض الآخر استعمل الإسناد في بعض القضايا دون بعض ، وبعضهم يحذف

(٨٥) حول هذه المسألة انظر « محمد مصطفى الأعظمي » دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه ص ٣٩٧ وما بعدها .

جزءا من الإسناد وينقل مباشرة عن المصدر الأعلى ، والحاصل أن كتب غير الحديث تختلف في صياغتها وترتيبها عن كتب الحديث ، التي هي عبارة عن ضبط النصوص عن الأقوال والأفعال النبوية ، لما يتعلق بهذا الضبط من الأمور التشريعية التي تقوم عليها حياة الأمة المسلمة . إن كتب التاريخ والقصص والأخبار تحتاج إلى السرد الموضوعي ، واستمرار الحوادث والقصص في نسق تاريخي متتابع ، لكي تتكامل الصورة التاريخية عن موضوع البحث ، وإن كان ذكر السند يساعد على التحقق من صحة الرواية ويعتبر عنصرا مهما في النقد التاريخي ، ولذلك حافظ عليه العلماء الأعلام الذين قاموا بالجمع والتدوين ، سواء في السيرة النبوية أم في بقية الأخبار التاريخية ، كما فعل عروة بن الزبير ، ومحمد بن مسلم الزهري ، ويعقوب بن سفيان العسوي ، وخليفة بن خياط ، وأبو زرعة الدمشقي ، وابن جرير الطبري وغيرهم .

والآن نحاول أن نستعرض منهج النقد عند علماء الحديث ومنهج النقد التاريخي الأوربي ، الذي ساد في كثير من الدراسات التاريخية المعاصرة . لنتبين الفوارق الأساسية بين المنهجين .

منهج النقد عند علماء الحديث :

قواعد النقد عند العلماء المسلمين تشمل جانبين أو مبحثين من مباحث الحديث النبوي الشريف هما :

- مبحث الإسناد ويسمى علم « الرواية » .
- ومبحث المتن ويسمى علم « الدراية » .

وقد ألف العلماء المسلمون في هذين المبحثين ، وفصلوا ذلك في كتبهم[٨٦] ووضحوه ، وخرجوا بقواعد نقدية تضمن لهم صحة النصوص وسلامتها من التحريف أو الزيادة والنقص .

---

(٨٦) راجع أبو عبدالله الحاكم ، **معرفة علوم الحديث** ، والخطيب البغدادي ، **الكفاية في علم الرواية** . وكتاب **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ، والقاضي عياض ، **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية**

وقد دون العلماء المسلمون الحديث النبوي بأسانيده المتسلسلة ورواياته وطرقه . ثم شاع استعمال الإسناد في مختلف التصانيف والمؤلفات ، ولم يعد قاصرا على الحديث النبوي ، حتى صار يمثل الصفة الغالبة على منهج تدوين العلوم الإسلامية الأخرى . وقد استمر ذلك حتى نهاية القرن الخامس الهجري تقريبا ، حيث قل بعد هذا الوقت الاعتناء به وحل محله تدريجيا النقل من المؤلفات والكتب بواسطة « الإجازة »(٨٧) و « الوجادة »(٨٨) وإن كان قد بقي منه شيء عند علماء الحديث فإنما من باب التبرك والمحافظة على هذه الخصيصة للأمة الإسلامية(٨٩) والرغبة في بقائها ، لأن الإسناد المتصل الصحيح يعطي طمأنينة وثقة في المنقول عن هذا الطريق ، إذ هو يمثل شهادة مجموعة من الرجال العدول الثقات الضابطين ، مما يؤكد صحة ودقة الخبر المنقول .

وقد كان بهز بن أسد(٩٠) إذا ذكر الإسناد قال « هذه شهادات الرجال العدول المرضيين بعضهم على بعض »(٩١) وكان يقول « لا تأخذوا الحديث إلا

= وتقييد السماع . وابن الصلاح . **علوم الحديث** (**مقدمه ابن الصلاح**) والحافظ العراقي ، **التقييد والإيضاح لمقدمة ابن الصلاح** . والسيوطي ، **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي** ، الحافظ السخاوي . **فتح المغيث في شرح ألفية الحديث** . والحافظ بن حجر ، **نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر** . والقاسمي **قواعد التحديث** . ونور الدين عتر ، **منهج النقد في علوم الحديث** .

(٨٧) الإجازة هي إذن الشيخ لغيره بأن يروى عنه مروياته أو مؤلفاته ، وهي أنواع مفصلة في كتب المصطلح ، منها ما هو جائز ومنها ما هو غير جائز ، والجمهور على جواز الرواية والعمل بالجائز منها « انظر الباعث الحثيث ص ١٢١ » .

(٨٨) الوجادة بكسر الواو – مصدر مولد غير مسموع من العرب – أطلق على ما أخذ من العلم من صحيفة من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة . وهي ليست من باب الرواية ، وإنما هي حكاية عن ما وجد في الكتاب الذي وثق فيه وتأكد من صحة نسبته لصاحبه . « انظر أحمد شاكر ، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير ١٢٨ – ١٣١ .

(٨٩) الإسناد المتصل الصحيح إلى رسول الله ﷺ هو من خصائص الأمة الإسلامية ، ذكر ذلك الحاكم في المستدرك ١ /٢ وابن حزم في الفصل ٢ /٨٢ وابن الصلاح في المقدمة انظر شرح العراقي ص ٢٥٧ .

(٩٠) هو بهز بن أسد العمي أبو الأسود البصري روى عن شعبة وحماد بن سلمة وعنه أحمد بن حنبل وعبدالرحمن بن بشر ، إمام حافظ ثقة ثبت . روى له الجماعة . توفى بعد المائتين وأرخ ابن قانع وفاته سنة ١٩٧ هـ « ابن حجر ، تهذيب التهذيب ١ /٤٩٧ » .

(٩١) الحاكم ، معرفة علوم الحديث ص ٦ .

عمن يقول حدثنا »(٩٢) .

والسند مهم في نقد الأخبار ، إذ بمعرفة النقلة يعرف قيمة الخبر ، ومدى صدقه من كذبه ، ولهذا انتقد الإمام أحمد بن حنبل بعض العلوم التي لم يعتن المشتغلون بها بالإسناد كعناية علماء الحديث ، فقال « ثلاثة أمور ليس لها إسناد ، التفسير والملاحم والمغازي »(٩٣) ويروى ثلاثة أمور ليس لها أصل بدل إسناد(٩٤) .، والأصل عند علماء الحديث هو الإسناد ، فإن الذي ليس إسنادا لا يعرف أصله ولا مخرجه ، فقد روى الحاكم عن الزهري أنه قال لمن لا يسند حديثه « تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمّة »(٩٥) .

فالذي لا خطام له ولا زمام يمسك به ، متفلت عن أصله فلا يعرف .

وقد كان من آثار الالتزام بالإسناد أن قام العلماء المتخصصون بوضع القوانين والضوابط التي تحدد مَنْ مِنَ الرجال تقبل روايته ، ومن ترد روايته ، فدونوا كتب الرجال والتراجم التي تعنى بأخبارهم ورحلاتهم وشيوخهم وتلاميذهم وطبقاتهم وأوطانهم وتاريخ ولاداتهم ووفياتهم ، وتعنى كذلك ببعث عدالتهم وجرحهم وتعديلهم ، مما أنتج للمسلمين ثروة علمية عظيمة النفع ، إذ توضح حركة المجتمع وتاريخ العدد الكثير من أفراده وعلمائه وخاصة الصحابة رضي الله عنهم - فقد عملت مدونات كاملة لحصر من عرف منهم بأسمائهم وألقابهم وكناهم ، وذكر أخبارهم وجهادهم ، ومعرفة طبقاتهم وعلمائهم ، ومعرفة أبنائهم وتلاميذهم من التابعين الذين نقلوا العلم عنهم ، ثم أخبار معظم

---

(٩٢) نفس المصدر .

(٩٣) ابن تيميه ، مقدمة في أصول التفسير ص ١٥٩ .

(٩٤) نفس المصدر وقد قال الزركشي في البرهان ٢ /١٥٦ قال المحققون من أصحاب الإمام أحمد أن مراده أن الغالب أنها ليست لها أسانيد صحاح متصلة ، وإلا فقد صح من ذلك كثير » وقد حمل بعض العلماء كلام أحمد هذا على كتب بعينها في هذه العلوم الثلاثة ، وأشهرها في التفسير كتابان للكلبي ومقاتل بن سليمان ، وقد قال أحمد في تفسير الكلبي : إنه من أوله إلى آخره كذب لا يحل النظر فيه (انظر السنة ومكانتها في التشريع لمصطفى السباعي ص ٢٤٥ ، ومما ينبغي التنبه له أن لا يتبادر إلى الذهن أن الإمام أحمد ينفي صحة شيء من هذه العلوم كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين المعاصرين مثل أحمد أمين في كتابه **فجر الإسلام** ص ١٩٩ ، وإلا فقد صح منها الشيء الكثير ولله الحمد .

(٩٥) الحاكم ، معرفة علوم الحديث ص ٦ .

التابعين وتابعيهم ، خاصة من اشتغل منهم بالعلم والرواية وهذه ولا شك ثروة عظيمة قيمة ، تمثل التسجيل الدقيق للتاريخ العلمي والثقافي للأمة الإسلامية ، كما تمثل مادة جيدة صالحة للتربية والقدوة الحسنة ، لما في أخبار الصحابة – رضي الله عنهم – وعلماء التابعين وكبار الرجال والحفاظ من الحرص على مكارم الأخلاق والإخلاص في طلب العلم والالتزام بالشريعة .

وقد اعتنى العلماء ببيان علل الإسناد(٩٦) الظاهر منها والخفي ، كالانقطاع والإعضال والشذوذ ، والإرسال ، والتدليس ، ووصل المرسل ، ورفع الموقوف ، وإبدال الإسناد ، وجمع الشيوخ .. وما إلى ذلك .

ومن المعلوم أنه ما كل خبر يساق بالسند يكون مقبولا . كما لا يكفي الباحث المحقق أن يعزو الحديث إلى مصنف من المصنفات التي لم يشترط أصحابها إخراج الصحيح دون غيره ، إذ لابد من الكشف عن حال السند والنظر في رجاله .

والأصل في هذا الرجوع إلى أئمة النقل وعلمائه من أهل الجرح والتعديل ، وإلى العلماء الثقات المأمونين في دينهم وعقيدتهم ، بحكم تخصصهم في ذلك ، ودقة معرفتهم به . ويكفي لمعرفة دقة المنهج العلمي الذي اتبعه العلماء المسلمون وتكامله ، الاطلاع على عناوين الأبواب التي أوردها الخطيب البغدادي في كتاب « الكفاية في علم الرواية » والتي منها « اشتراط العدالة وأن السفه والكذب يوجب إسقاطها »(٩٧) كراهة النقل والرواية عن الضعفاء واختيار السماع من الأمناء »(٩٨) « ترك السماع ممن اختلط وتغير »(٩٩) ، من غلب على حديثه وروايته الشواذ والمناكير والغرائب لا يحتج بروايته »(١٠٠) ، « ترك الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالبا على روايته »(١٠١) ، « رد

---

(٩٦) حول هذا الموضوع انظر ابن المديني ، العلل ، وابن رجب شرح علل الترمذي وهمام عبدالرحيم سعيد ، **العلل في الحديث** .

(٩٧) الكفاية في علم الرواية ص ١٢٦ – ١٦٥ وكذلك ص ١٨٧ .

(٩٨) نفس المصدر ص ٢١٠ .

(٩٩) نفس المصدر ص ٢١٦ .

(١٠٠) نفس المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(١٠١) نفس المصدر ص ٢٢٧ .

حديث أهل الغفلة ومن عرف بالتساهل في سماع الحديث أو روايته »[١٠٢] ، « كراهية الرواية عن أهل المجون والخلاعة »[١٠٣] ، « من عرف بالصلاح والعبادة ولم يكن من أهل الضبط والرواية يترك الاحتجاج بحديثه »[١٠٤] ، « نقل الحديث كما تلقى دون زيادة أو إبدال كلمة بكلمة ، بل حتى حرف بحرف ، أو حركة بحركة وإن كان ذلك لا يغير المعنى ، ولا يتصرف في إصلاح ما يرى أنه خطأ ولو خالف فصيح اللغة »[١٠٥] ومباحث علم الإسناد على تنوعها وتعددها ، تهدف كلها إلى توثيق النص ونقده وبيان ما يقبل وما يرد من الروايات ، لأنه إذا بطل السند واكتشف كذبه فإن ذلك يبطل النص المنقول بهذا السند ، فعلم الإسناد بكل مسائله وأنواعه وعلله يهدف إلى تصحيح النصوص ومحاربة الوضع والكذب فيها ، وتسمى هذه المباحث بعلم « الرواية » .

أما المبحث الثاني فهو البحث المنصب على المتن « النص » ويسمى علم « الدراية » وهو دراسة النص من جوانب متعددة ، منها ما يهدف إلى زيادة التأكد من صحة النص بعد ثبوت سنده ، ومنها ما يهدف إلى فهم النص وفقهه ، سواء فهم أحكامه ودلالته ، أو فهم لغته وألفاظه ، فكان من مباحثهم غريب الحديث ، أسباب ورود الحديث ، ناسخ الحديث ومنسوخه ، مختلف الحديث ، محكم الحديث ومتشابهه .. الخ .

وهناك مجموعة من المباحث المشتركة بين الإسناد والمتن تهدف إلى الاعتبار والمقارنة بين النصوص لغرض زيادة النقد والتمحيص . مثل المتابع[١٠٦] والشاهد[١٠٧] والشاذ[١٠٨] ، وفوق هذا جعلوا ضوابط عامة لمعرفة الحديث

---

(١٠٢) نفس المصدر ص ٢٣٣ ، ٢٣٧ . (١٠٣) نفس المصدر ص ٢٤٥ .

(١٠٤) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

(١٠٥) المصدر السابق ص ٢٦٥ و٢٨٤ .

(١٠٦) المتابع : هو مشاركة الراوي غيره في رواية الحديث مع الاتحاد في الصحابي (انظر تيسير مصطلح الحديث للطحان ص ١٤٠) .

(١٠٧) الشاهد . هو مشاركة الراوي في رواية الحديث مع الاختلاف في الصحابي (المصدر السابق ص ١٤٠) .

(١٠٨) الشاذ : هو ما رواه المقبول مخالفا لمن هو أولى منه (المصدر السابق ص ١١٦) .

الموضوع من غير النظر في السند ، غير أن هذه الضوابط لا يستطيع تطبيقها في المجال العملي إلا العلماء المتقنون ، الذين تمرسوا في رواية السنن ومعايشتها فترات طويلة ، وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه المنار المنيف في معرفة الحديث الصحيح والضعيف مجموعة من هذه الضوابط(١٠٩) .

فالمنهج النقدي عند العلماء المسلمين قد بلغ من الدقة والإحكام أرقى ما يمكن أن تصل إليه الطاقة البشرية والمقدرة الإنسانية لنقد مثل هذه العلوم .

« وقد كانت جهود العلماء المسلمين في مقاومة الوضع قد اتخذت جانبين ، جانب نظري وهو وضعهم للقواعد الدالة على الوضع في الحديث ، وجانب عملي وذلك ببيانهم الأشخاص الوضاعين وتعريف الناس بهم وبيان الأحاديث الموضوعة بالنص عليها »(١١٠) .

وبذلك يتضح أن جهودهم النقدية لم تكن منصبة على نقد السند كما ادعى ذلك بعض الباحثين(١١١) ، إنما كانت تعنى بالأمرين معا ، فمباحث المتن قسيمة لمباحث الإسناد .

والعلة كما تكون في السند تكون في المتن ، وتقسيم العلماء للحديث من حيث القبول والرد إلى صحيح وحسن وضعيف مبني على هذا ، لأنهم يشترطون في الحديث الصحيح والحسن السلامة من الشذوذ والعلة ، وهما كما يكونان في السند يكونان في المتن . وقد نبهوا على أنه لا يلزم من ضعف السند ضعف المتن ، وكذلك لا يلزم من صحة السند صحة المتن ، فقد يكون السند ضعيفا والمتن ضعيفا لوروده من طرق أخرى صحيحة ، كما أنه قد يصح السند

---

(١٠٩) قال ابن القيم في كتابه هذا ص ٤٣ « وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط من غير أن ينظر في سنده » وبعد أن امتدح هذا السؤال قال « إنه لا يُمكن ذلك إلا لمن تضلع في معرفة السنن الصحيحة ، وصار لديه ملكة اختصاص شديدة بمعرفة السنن والآثار ومعرفة سيرة الرسول وهديه فيما يأمر به وينهى عنه » ثم قال « ونحن ننبه على أمور كلية يعرف بها كون الحديث موضوعا » ص ٥٠ ، وانظر هذه القواعد في ص ٥٠ - ١٤١ .

(١١٠) محمد أبو زهرة ، الحديث والمحدثون ص ٤٨١ .

(١١١) مثل أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام ٢ /١٣٠ ، وانظر الرد عليه في كتاب ، نور الدين عتر ، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٦٩ - ٤٧٣ .

ولا يصح المتن لشذوذ أو علة قادحة فيه ، يقول الدكتور نور الدين عتر « إن النقد الداخلي – نقد النص – كان أول علوم الحديث وجودا حين كان الناس على العدالة وذلك في عصر الصحابة »(١١٢) .

وقد كان منهج الصحابة رضي الله عنهم – كما عرفنا – التثبت في الرواية عند تحملها وعند أدائها ، وكانوا يمارسون النقد ويعرضون الروايات على ما لديهم من نصوص الدين وقواعده ، مع أنهم لا يتهمون رواتها بالكذب ، ولكن للاحتياط والرغبة في ضبط الحديث ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يعتذر من أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه عندما حدثه بحديث ، فطلب منه أن يأتيه ببينة على ما يقول ، فلما أتاه بذلك قال له « أما إني لم أتهمك ولكني أحببت أن أتثبت »(١١٣) فمتون الأحاديث والآثار هي المقصودة بأبحاث علوم الحديث ، والعناية بالسند هي لأجل التحقق من صحة النص ، والقواعد التي وضعها العلماء للتوصل إلى معرفة النص الصحيح – وإن كانت في الأصل خاصة بالحديث النبوي الشريف – صالحة للتطبيق في مختلف العلوم النقلية ، وخاصة ما نحن بصدد البحث فيه وهو علم التاريخ ، لأنه عبارة عن أخبار ووثائق وروايات لا طريق للتثبت من صحتها إلا بتطبيق هذه القواعد المنهجية ، لأنه من غير الممكن معرفة ذلك بواسطة التجارب المعملية التي تقاس بها المواد الصالحة للاختبار المعملي . وقد أدرك هذا التميز في منهج البحث عند علماء الحديث ودقة القواعد النقدية التي توصل إليها مجموعة من الباحثين المعاصرين في مجال النقد التاريخي .(١١٤)

ولذلك دعوا في مؤلفاتهم إلى احتذاء هذا المنهج ، ونقلوا فصولا بأكملها من مؤلفات علماء المصطلح « مثل ابن عبدالبر والخطيب البغدادي

---

(١١٢) نور الدين عتر ، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٧٠ .

(١١٣) الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ /٨ .

(١١٤) انظر على سبيل المثال – أسد رستم ، **مصطلح التاريخ** وحسن عثمان . **منهج النقد التاريخي** وعثمان موافي ، **المنهج الإسلامي والمنهج الأوربي** .

وابن الصلاح ، بل قد سمى بعضهم كتابه بنفس التسمية التي استعملها علماء الحديث »[١١٥] .

منهج النقد التاريخي الأوربي :

هذا المنهج النقدي للوثائق والنصوص التاريخية يعترف أصحابه أنه لم تستقر مبادؤه وتقعد قواعده إلا في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وعلى أيدي العلماء الأوربيين ،[١١٦] من أمثال شارل لانجلوا وزميله شارل سينوبوس في كتابهما المدخل إلى الدراسات التاريخية ، لذا سنعتمد على هذا الكتاب مع كتاب الدكتور عبدالرحمن بدوي « مناهج البحث العلمي » ، وقد قام الدكتور عبدالرحمن بدوي بترجمة كتابهما إلى اللغة العربية ، ثم لخصه في فصل من كتابه هذا « مناهج البحث » بعنوان المنهج الاستردادي ، فهما أكمل ما قرأت في تقرير قواعد منهج النقد التاريخي[١١٧] من وجهة النظر الأوربية ، وخير من يمثلها .

وقواعد هذا المنهج تقوم على عدد من الخطوات ، أولها البحث عن الوثائق وجمع الأصول المتخلفة ، سواء ما كان منها في صورة آثار مادية كالأبنية والأدوات ، أو ما كان مخلفات كتابية خطية أو مطبوعة أو نقوش ، أو ما كان روايات شفوية ، وهذه الأصول تحفظ عادة في دوائر المحفوظات والمتاحف والمكتبات ، وترتب وتفهرس لكي يسهل الاستفادة منها ، وهذه الخطوة ضرورية لبداية العمل النقدي ، لأن الناقد يقوم بفحص ونقد ما توفر لديه ، فهي ممهدة للنقد وليست خطوة من خطواته .

والنقد المنهجي ينقسم إلى قسمين كبيرين :

---

(١١٥) هو أسد رستم ، وسمى كتابه « مصطلح التاريخ » .

(١١٦) عبدالرحمن بدوي ، النقد التاريخي ص ١٤ من المقدمة .

(١١٧) كتب الدكتور حسن عثمان كتاب « منهج البحث التاريخي » عام ١٩٤٣ م ، وقرر هذه القواعد نفسها ، وشكا من قلة حظ الشرق العربي من هذه الدراسات التي عنى بها الغربيون ، وخاصة منهج البحث التاريخي بالأسلوب الحديث (انظر مقدمة الطبعة الأولى ص ٩) .

- نقد خارجي .
- نقد داخلي .

فالنقد الخارجي أو نقد «التحصيل » كما يسمونه يشمل ثلاث عمليات ، هي تصحيح النصوص ، ونقد المصدر ، وجمع الوثائق المحققة وترتيبها[١١٨] .

فنقد التصحيح أو نقد الاستعادة[١١٩] يعني مقابلة النسخ الموجودة من الوثيقة أو الكتاب مع بعضها ، لمعرفة النص الصحيح لها ، والتأكد هل هذه الوثيقة بخط المؤلف نفسه أم أنها منقولة من نسخة أخرى قد لا تكون بخط المؤلف ، وتكون الصعوبة فيما إذا كانت النسخة وحيدة ، وطريقة التصحيح في مثل هذه الحالة تكون عن طريق استقصاء الأخطاء التي يقع فيها النساخ عادة ، مثل تكرار بعض الكلمات أو بعض المقاطع ، ولذلك ينبغي وضع معجم أبجدي منهجي للأخطاء الشائعة في كتابة لغة من اللغات ، وأن يكون الباحث على معرفة باللغة التي كتبت بها الوثيقة ، وأن يكون عالما بالخطوط التي كتبت بها النصوص ، وبذلك يستطيع أن يصل إلى أقرب نص صحيح للوثيقة ، كما دونها كاتبها الأول .

أما نقد المصدر ، فيقصد به معرفة مؤلف الوثيقة ، ومعرفة مصدر المعلومات الواردة فيها وتاريخها ، وتفحص أسلوبها وتراكيبها اللغوية وطريقة صياغتها ، لأن لكل مؤلف ولكل عصر خصائص أسلوبية من الممكن ملاحظتها من الاطلاع على بقية كتبه ، كما أن مقارنة الأحداث التي يتحدث عنها المؤلف ، مع بقية الأحداث التي تذكرها المؤلفات المعاصرة يعطي ضوءًا نستطيع به نقد الوثيقة والتأكد من صحتها ، وأيضا تحديد الاقتباسات وإرجاعها إلى أصولها ، والمعرفة الدقيقة بتفاصيل حياة المؤلف تكشف لنا جوانب مهمة مما يجعلنا نستطيع تمييز الحشو أو الإكمال دون عناء ، خاصة إذا كان المؤلف يوضح مصادره ، إما إذا نقل من المصادر السابقة له دون إشارة لها فإن هذا يسبب صعوبة في معرفة مصادر معلوماته . ومن أهم فوائد نقد

---

(١١٨) المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ٨٦ .

(١١٩) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ١٨٨ .

المصادر إيضاح التزوير والانتحال في الوثائق والمؤلفات ، وقد ضرب الدكتور عبدالرحمن بدوي[١٢٠] لذلك مثلا بكتاب « نهج البلاغة » الذي وضعته الشيعة وقصدوا من ورائه تأكيد مذهبهم وصحته ، وأن هذا المذهب مما يقول به الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه ، والفاحص الناقد إذا تملّى كثيراً مما فيه منسوباً لعلي – رضي الله عنه – أيقن أنه مكذوب عليه ، والتزوير والانتحال يكون بنسبة كتاب كله إلى شخص وهو منه براء ، أو تزوير بعض الأقوال والآراء ويعبرون عنه بالحشو والإكمال أي أشياء تدخل على أصل الوثيقة وهي ليست منها ، ولقد كان هذا شائعا في الثقافة الأوربية في العصور الوسطى دون أن يذكر المكمل للكتاب اسمه[١٢١] وإنما يجعله كأنه من عمل المؤلف الأول .

وهذا الصنيع عرف في الثقافة الإسلامية باسم الذيول ، ولكن هذه الذيول مميزة عن الأصول بمعرفة أصحابها وتصريحهم بذلك وبوضعها مستقلة عن الكتاب الأصلي .

وعملية نقد المصدر تكشف لنا كثيرا من الأخطاء ، وتحمي المؤرخين من الوقوف في أغلاط هائلة ، ويساعد على استبعاد الوثائق الزائفة والتمييز بين الوثائق ، حتى وإن كانت صحيحة النسبة .

وهذا النوع من النقد مثل نقد التصحيح ، فهو تحضيري ونتائجه سلبية . « إنه يعلمنا أن لا نستعمل وثائق سقيمة ، لكنه لا يعلمنا كيف نفيد من الوثائق السليمة ، وعلى هذا فإن نقد المصدر ليس هو كل « النقد التاريخي إنه مجرد مدماك منه »[١٢٢] .

أما العملية الثالثة في نقد التحصيل ، فهي عملية تنظيمية وتسمى جمع الوثائق المحققة وترتيبها ، أو « الترتيب النقدي للمراجع »[١٢٣] ، وللباحثين في

---

(١٢٠) نفس المصدر ص ١٩٥ .
(١٢١) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ١٩٩ .
(١٢٢) لانجلوا وسينوبوس . المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ٧٦ .
(١٢٣) حول هذه النقطة . انظر المصدر السابق ص ٧٧ – ٨٠ .

ذلك مذاهب وطرق ، حيث يتبع كل باحث ما يناسبه من هذه الطرق ، فمنهم من يرتب هذه المواد والوثائق حسب وصولها إليه ، ومنهم من يرتبها حسب موضوعاتها ، ومنهم من يستخدم طريقة (الجزازات) أي البطاقات المنثورة ، وهذه الطريقة فيما يبدو هي أسلم الطرق خاصة في النصوص القصيرة والأبحاث التي تعتمد كلية على النصوص ، مثل تحقيق المخطوطات ونشر الكتب ومثل المعاجم المرتبة على مواد .

وإلى هنا يكون الباحث قد انتهى من القسم الأول من أقسام النقد المنهجي « نقد التحصيل » أو « النقد الخارجي » ، ويشمل خطوتين رئيسيتين ، نقد النص أي تصحيحه ، ونقد المصدر أي توثيقه .

أما الخطوة الثالثة وهي الترتيب النقدي للمراجع فهي تنظيمية شكلية ، وهذا القسم بكل خطواته يعتبر عملا تحضيريا للقسم الثاني فهو وسيلة وليس غاية .

النقد الداخلي :

الخطوة الحقيقية في المنهج التاريخي هي عملية « النقد الباطن » أو النقد العالي « التحليل والتركيب » ، ويقصد بهذه العملية بيان ما قصده صاحب الوثيقة من هذه الوثيقة ثم معرفة صدقه في الرواية ، سواء أكان شاهد عيان أو كان ناقلا عن غيره ، ذلك أن صاحب الوثيقة قد مَرَّ بجملة أدوار فقد ابتدأ بأن كان شاهد عيان ، شاهد حادثا ، ثم أدركه ثم كتبه ، وهذه الكتابة تمر بجملة أدوار من استخدام ألفاظ ، ثم استخدام تعابير ، ثم طريقة تنظيم الوصف ، وكل هذه الحلقات المتتالية من العمليات يمكن أن يقع الخطأ في إحداها أو في الأخرى ، فعلينا إذن أن نعرف بالدقة أين أخطأ ؟ وأين أصاب ؟ وهل استطاع أن يروي الحادث كما شاهده تماما ، أو هل لم تكن ثمة دواع للتزييف المقصود أو الخطأ ، أو أن عدم الدقة في رواية الحادث كان لأسباب إما شخصية وإما خارجة عن قدرته »[١٢٤] « ولكي يكون التحليل كاملا ينبغي عليه أن يعيد

---

(١٢٤) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

تركيب كل العمليات التي لابد أن يكون المؤلف قد أجراها ، وأن يفحصها الواحدة تلو الأخرى ، للبحث فيما إذا كانت كل منها قد تمت على الوجه الصحيح ، فينبغي المرور من جديد بكل الأفعال المتوالية التي أنتجت الوثيقة ، منذ اللحظة التي شاهد فيها المؤلف الواقعة التي هي موضوع الوثيقة ، حتى حركة يده التي خطت حروف الوثيقة ، ولكن هذا المنهج من الطول والإرهاق بحيث لن يجد أحد من الوقت ولا من الصبر ما يستطيع به أن يطبقه(١٢٥) .

والنقد الباطني ليس كالنقد الخارجي أداة يمكن استخدامها لمجرد لذة الاستخدام ، فليس يحقق لذة مباشرة ، لأنه لا يحل أي مشكلة حلا نهائيا حاسما ، ولا يمارس إلا بحسب الضرورة وينبغي تضييقه إلى أضيق الحدود .

والمؤلف الأحرص على الدقة يقتصر على منهج موجز يركز كل العمليات في طائفتين :

١ - تحليل مضمون الوثيقة ، مع النقد الإيجابي للتفسير ، اللازمان للتأكد مما أراد المؤلف أن يقوله .

٢ - تحليل الظروف التي أنتجت فيها الوثيقة ، والنقد السلبي للنزاهة والدقة اللازمان لضبط أو مراقبة أقوال المؤلف .. على أن هذا الازدواج في العمل النقدي لا يمارسه إلا الصفوة المختارة »(١٢٦) .

فالخطوة الأولى في النقد الباطن هي النقد الإيجابي للتفسير ، ويقصد منها فهم مدلول نص الوثيقة التي بين أيدينا ، فهي عملية تفسير حرفي للنص ثم تفسير إجمالي ، وهذه الخطوة تتطلب معرفة لغة الوثيقة واصطلاحاتها ، وتطور معاني ألفاظها ، وبلاغتها ، معنى كل كلمة حسب السياق الذي وردت فيه ، كما تتطلب معرفة أسلوب المؤلف وطريقته في استعمال الألفاظ ، وهل يكثر من استخدام الكنايات والاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وهل يعني بالمحسنات اللفظية كالجناس والطباق .. وغيرها . وهذه المرحلة خطرة المسلك حينما

---

(١٢٥) لانجلوا وسينوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١٠ .

(١٢٦) لانجلوا وسيبوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١٠ .

تكون عادات اللغة أو الفكر عند المؤلف مباينة لعادات الباحث الذي يقرأ هذا النص ويقوم بتحليله .

« فكل من يقرأ نصا ولا يهتم بفهمه فهما تاما ، لابد أن يحدث له أن يقرأه من خلال انطباعه هو ، فيجتذب انتباهه في الوثيقة الجمل أو الكلمات التي تتجاوب مع تصوراته ، والتي تتفق مع الفكرة السابقة التي كونها مقدما عن الوقائع ، ودون أن يتبين ذلك تراه يفصل هذه الجمل أو هذه الكلمات ، ويؤلف منها نصا خياليا يضعه مكان النص الحقيقي الذي كتبه المؤلف »(١٢٧) .

ولذا « ينبغي أن يتخذ المرء قاعدة له ، وهي البدء بفهم النص في ذاته قبل أن يتساءل عما يمكن استخلاصه منه »(١٢٨) .

أما الخطوة الثانية فهي النقد السلبي للنزاهة والدقة .

فإذا كانت الخطوة السابقة قد عرفتنا ماذا قصد المؤلف من الوثيقة المكتوبة ؟ فإن هذه الخطوة تهدف إلى تعريفنا كيف شاهد المؤلف الحادث الذي وصفه ، وهل أصاب في مشاهدته أم لا ؟ وهل قصد إلى الكذب أم لم يقصد ؟ وإلى أي مدى نثق بهذه الوثيقة وإلى أي حد تعبر عن الواقعة ؟

فكل هذه المسائل لابد أن تقوم بها عملية النقد الباطن للنزاهة والدقة ، والبحث في هذه الخطوة ينقسم إلى قسمين روايات مباشرة (شهود عيان) ، وروايات غير مباشرة .

ولا يلزم من كون الرواية مباشرة صحة الوثيقة على كل حال ، بل لابد من اختيار النزاهة والدقة عند الراوي ، فننظر في الوثيقة والظروف التي أحاطت بالمؤلف ، سواء كانت عامة أم شخصية ، وعلينا أن نجمع أكبر قدر من المعلومات عن المؤلف ، وعن أمانته ، وثقة الناس فيه ، وعن العصر الذي كتبت فيه ، وعن الوثائق المشابهة التي روت نفس الحادث ، ثم نضع طائفة من

---

(١٢٧) لانجلوا وسينوبوس ، المدخل إلى الدراسات التاريخية ص ١١١ .
(١٢٨) المصدر السابق ص ١١٢ .

الأسئلة العامة الموضوعة سابقا والتي تنطبق على كل حالة فردية ، مع شيء من التعديل ، وهذه الأسئلة تدور حول النزاهة والدقة[١٢٩] . فالنزاهة تتعلق بأمانة المؤلف ، وهل أدى كما رأى على الحقيقة أم أنه كذب وحرف ، والأسباب الداعية للكذب كثيرة وهي تشكل صورة الأسئلة التي يتطلب الإجابة عليها لاختيار النزاهة عند الراوي ، كأن نتساءل مثلا عما إذا حاول المؤلف أن يجتلب لنفسه منفعة شخصية وأراد أن يخدع القارىء لهذه الوثيقة ، فقدم له معلومات كاذبة ، وعما إذا كان المؤلف أو الراوي في موقف أرغمه على الكذب ، وعن طبيعة عواطف الراوي وموافقته أو كراهيته لجماعة معينة من الناس أو مذهب من المذاهب ، والتي ربما تحمله على تشويه الوقائع في سبيل إعطاء فكرة حسنة عن أصدقائه وسيئة عن أعدائه .

وعما إذا كان هناك انسياق وراء غرور فردي أو جماعي ، فكذب ابتغاء تمجيد شخصية معينة أو جماعة معينة ، وعما إذا أراد الراوي أن يتملق الجمهور أو جهة من الجهات فعبر عن العواطف والأفكار المتفقة مع آراء الجمهور أو هذه الجهة .

أما المجموعة الثانية من الأسئلة فتهدف إلى كشف دوافع الخطأ ، واختيار الدقة لدى الراوي ، فيتساءل الباحث عما إذا كان المؤلف في موضع يسمح له بملاحظة الواقعة ، أم منعه من ذلك مانع ، وعما إذا حُمِلَ على إساءة الملاحظة ، كما يتساءل عما إذا كان في موضع لا يسمح له بالملاحظة ، كأن يكون في موضع لم يكن يستطيع منه أن يرى جيداً أو يسمع « مثل مرؤوس يدعي رواية مداولات سرية في مجلس رؤساء ، دون أن يوضح الوقت الذي سجل فيه هذه الملاحظة أو الرواية ، ثم الاستفسار عما إذا كان المؤلف شاهد الواقعة التي وصفها أم أنه تكاسل واكتفى بالوصف التخميني دون أن يشاهدها على الحقيقة ، وهذا السبب شائع جدا خاصة الروايات المفصلة عن المراسم العامة والبرامج المعدة سلفا ومحاضر الجلسات الرسمية ، وكذلك التعرف

---

(١٢٩) حول هذه الأسئلة والاحتمالات ، انظر المصدر السابق ص ١٢٨ - ١٣٣ ، ومناهج البحث العلمي لعبدالرحمن بدوي ص ٢١٢ - ٢١٤ .

على طبيعة الواقعة وما إذا كان من الممكن معرفة ذلك بالملاحظة وحدها ، مثل أن يتحدث عن أسرار الحياة الزوجية لأسرة من الأسر ، لأن هذا مالا يدرك بالملاحظة العامة .

هذا كله إذا كانت الرواية مباشرة ، أما إذا لم يكن الراوي شاهد الحادثة بنفسه وإنما نقل عمن شاهدها سواء فردا أو مجموعة أفراد ، فروايته تكون غير مباشرة ومعظم وثائق التاريخ من هذه الدرجة ، واختبار النزاهة والدقة لمثل هذه الوثيقة تتحقق عن طريق محاولة البحث عن الراوي الأصلي الذي عاين الحادث ثم تجرى عليه نفس العمليات السابقة ، أما إذا لم نستطع الوصول إليه فليس أمامنا إلا المقارنة بالروايات الشبيهة في الوثائق الأخرى . وبهذه الخطوة نكون قد أنهينا المهمة الرئيسية في النقد التاريخي للوثائق ، وهي إثبات صحة الوثائق والتحليل بأنواعه .

ولم يبق إلا الصياغة والترتيب واستخراج المعلومات التي دلت عليها الوثيقة ، لكن تبقى هناك ثغرات وفجوات على المؤرخ أن يسدها بالاجتهاد ، وهذه المرحلة تسمى بالاسترداد أو الاستبطان أو إعادة البناء التاريخي ، وتعتمد على الخيال الخصب(١٣٠) والموهبة .

النتيجة أو المقارنة :

من استعراضنا لمنهج علماء الحديث في نقد « المتون » أو « النصوص » ومنهج النقد التاريخي الأوربي تتضح مجموعة من الحقائق التي ينبغي التنبه لها وهي :

الحقيقة الأولى : لا صحة للقول بأن العلماء المسلمين قد قصروا في نقد المتون ، وأن أعمالهم النقدية كانت شكلية ، تعتمد على نقد السند فحسب ، وهذا الادعاء تدفعه المباحث الكثيرة والمفصلة في علم المصطلح حول علل المتن وشذوذه ، ويدفعه التطبيق العملي لممارسة نقد المتن من قبل العلماء

---

(١٣٠) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث التاريخي ص ٢٢٠ محمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ ص ١٢ .

المتخصصين في هذا الشأن ، ولكن الذي جعل المستشرقين وأتباعهم في العصر الحديث يطلقون[١٣١] هذه التهمة هو ما وجدوه في منهج نقد المحدثين من التكامل وسد باب القول في الحديث النبوي بدون علم ولا إيمان ، وقصرهم ذلك على العلماء الحفاظ الثقات المتقنين الممارسين للآثار النبوية العاملين بها ، وقد تقدم قول ابن القيم في هذا ، وقد قال الشافعي - رحمه الله « ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه إلا في الخاص القليل من الحديث »[١٣٢] ، قال البيهقي : « وهذا الذي استثناه الشافعي لا يقف عليه إلا الحذاق من أهل الحفظ ، فقد يزل الصدوق فيما يكتبه فيدخل له حديث في حديث . فيصير الحديث روى بإسناد ضعيف مركبا على إسناد صحيح ، وقد يزل القلم ويخطىء السمع ويخون الحفظ ، فيروى الشاذ من الحديث عن غير قصد ، فيعرفه أهل الصنعة الذين قيضهم الله تعالى لحفظ سنن رسول الله ﷺ على عباده وذلك بكثرة سماعه وطول مجالسته أهل العلم به ومذاكرته إياهم »[١٣٣] ، فمعرفة علل الحديث من أجل العلوم ، ولا تظهر إلا للجهابذة[١٣٤] من أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب ، ولهذا لم يخض غماره إلا القليل من أمثال علي بن المديني ويحيى بن معين وابن حنبل والبخاري والرازيان والدار قطني ، ولذلك قالوا في تعريف الحديث المعلل : « والمعلل خبر ظاهره السلامة اطلع فيه بعد التفتيش على قادح »[١٣٥] ، وقالوا « العلة سبب غامض خفي قادح في صحة الحديث مع ظهور السلامة منه »[١٣٦] ، ولهذا لما قيل لعبدالرحمن بن مهدي « إنك تقول للشيء هذا صحيح وهذا لم

---

(١٣١) انظر حول هذا نور الدين عتر ، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٦٠ وما بعدها ومصطفى السباعي السنة ومكانتها في التشريع ص ٢٧٠ - ٢٩٠ . ومحمد عجاج الخطيب ، السنة قبل التدوين ص ٢٥٤ - ٢٥٩ .

(١٣٢) البيهقي ، دلائل النبوة ١ /٢٩ .

(١٣٣) المصدر السابق .

(١٣٤) الجهبذ : كدرهم وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور ، العارف بطرق النقد ، وهو معرب (الزبيدي تاج العروس مادة جهبذ ٢/٥٥٨ ط دار الحياة بيروت

(١٣٥) العلل في الحديث لهمام عبدالرحيم سعيد ص ١٨ وينقل ذلك عن فتح المغيث ص ١٠٥ .

(١٣٦) علل الحديث ومعرفة الرجال لعلي بن المديني تحقيق عبدالمعطي قلعجي ص ١٠ .

يثبت فعمن تقول ذلك ؟ قال : أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك فقال هذا جيد وهذا ستوق وهذا بهرج[١٣٧] . أكنت تسأل عمن ذلك أو تسلم للأمر ، قال : بل كنت أسلم الأمر إليه ، قال فهذا كذلك لطول المجالسة والمناظرة والخبرة »[١٣٨] .

فهؤلاء الناقدون على المحدثين منهجهم يريدون الاعتماد على النظر العقلي وحده ، وأن يكون النقد مشاعا لكل من أراد ، سواء كان من أهل الصنعة والعلم أو من أهل الجهل والفسق « وهذه الفكرة ليست من اختراع المستشرقين ، وإنما هي تجربة سبقت في تاريخ المسلمين من أيام المعتزلة الذين جعلوا الرأي وحده يتحكم في المتون سلبا وإيجابا ، نفيا وإثباتا ، وقد أسفرت عن أسوأ النتائج وأغرب التناقضات ، فرفضوا المتون الصحيحة لمجرد بعدها عن خيالاتهم ومألوفاتهم .. وإذا بهم يبلغون من الإسفاف مبلغا عظيما حيث راحوا يحتكمون إلى المشاهدات المادية المعتادة ، يقيسون عليها ما ورد من النصوص في عوالم مغيبة كالأحاديث في الملائكة أو الجن أو المعجزات ، ينكرونها أو يتأولونها تأويلات هزيلة ، حتى خرجوا بذلك عن نصوص الإسلام القطعية »[١٣٩] .

الحقيقة الثانية : تكامل منهج النقد الإسلامي وتدوين قواعده منذ القرن الثالث الهجري ، حيث نقدوا النصوص ونقدوا حملة النصوص ورواتها ، مما أنتج لهم علم الإسناد المتصل الصحيح الذي هو من خصائص هذه الأمة الإسلامية ، كما أنتج لهم مجموعة من المعارف والعلوم كعلم الرجال وطبقاتهم ورحلاتهم وتواريخ المدن والمراكز العلمية وعلم الجرح والتعديل ، وكان من ثمرات هذه العلوم أن حفظت الأمة تاريخها الثقافي والعلمي بأدق تفاصيله ومراحله .

---

(١٣٧) ستوق . يقال درهم ستوق أي زيف . انظر مختار الصحاح ٢٨٦ . والبهرج : الباطل والرديء من الشيء ، يقال درهم بهرج ، (نفس المصدر ٦٧) .
(١٣٨) البيهقي ، دلائل النبوة ١ /٢٩ - ٣٠ .
(١٣٩) نور الدين عتر ، منهج النقد في علوم الحديث ص ٤٧١ .

الحقيقة الثالثة : أن منهج النقد التاريخي عند الأوربيين لم توضع قواعده بشكل منظم إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، أي بعد معرفة المسلمين لقواعد النقد بعشرة قرون كاملة أو أكثر ، ولابد أنهم استفادوا من قواعد النقد عند المسلمين أثناء صلاتهم بهم عن طريق معابر الحضارة ، سواء في الأندلس أو جزائر البحر المتوسط أو أثناء الحروب الصليبية ، وهذا يظهر في التشابه الموجود بين المنهجين في بعض الخطوات ، كنقد المصدر والنقد الباطني بنوعيه الإيجابي (تفسير النص ومعرفة لغته) والسلبي لمعرفة عدالة الراوي وصدقه ولمعرفة دقته (أي مقدار ضبطه وحفظه) ، ولا شك أن مقاييس العدالة والضبط تختلف تبعا لاختلاف التصور .

الحقيقة الرابعة : منهج النقد التاريخي في ظل التصور الغربي الذي لا يؤمن بالرسالات السماوية ، وخاصة رسالة محمد ﷺ ، أو يؤمن بأنها خاصة بالعرب على أحسن الأحوال ، والذي لا يؤمن كذلك بالغيب غير صالح للتطبيق في الدراسات الإسلامية ، ونحن قد أغنانا الله بما وفق علماء المسلمين من تقنين هذه القواعد المنهجية وتطبيقها عمليا في مجال الدراسات الحديثية بأدق ما يمكن بلوغه من الطاقة البشرية ، وإن كان هذا التطبيق العملي لم يتم في مجال الدراسات التاريخية بنفس الدقة والشمول لأسباب وعوامل مختلفة .

وهذه القواعد التي قررها علماء الحديث أولى بالاقتداء بها وتطبيقها في التاريخ الإسلامي من منهج النقد التاريخي الأوربي ، لما بين التاريخ الإسلامي والحديث النبوي من التوافق في المنطلقات والمبادىء والتصورات المشتركة ، لأن قواعد نقد الحديث قد وضعها علماء مسلمون ، والتاريخ المطلوب تطبيق تلك القواعد على دراسته هو تاريخ المسلمين ، فالتوافق الفكري والمنطلق العقيدي مشترك ، بينما قواعد النقد التاريخي التي تسود معظم الدراسات التاريخية المعاصرة وتطبق في معظم الجامعات الإسلامية – مع الأسف – قد وضعها علماء أوربيون من واقع تجاربهم ودراساتهم لتاريخهم ، سواء القديم منه أو المعاصر وهي لا تسلم – ولا شك – من لوثة التفكير الجاهلي . لأن المنهج جزء من التصور ، وخاصة مناهج العلوم النظرية ، إذ المناهج لهذه العلوم ليست أدوات يمكن أن تخدم أكثر من تصور ، كما في مناهج العلوم المادية ، لأن

واضع المنهج لم يضعه من فراغ ، وإنما من واقع تصورات وأفكار ، ومبادىء ، يؤمن بها ويدافع عنها ويرجو من هذه القواعد التي وضعها أن تحققها له ، وإنما الذي يمكن التساهل في الأخذ به هو مناهج العلوم المادية .

التميز في منهج التفسير للحوادث

تفسير التاريخ يقصد به معرفة الروابط التي تربط الأحداث والوقائع المتفرقة ودراستها ، لتبين دوافعها وارتباطاتها ونتائجها ، واستخلاص السنن والنواميس الإلهية من خلالها ، والاعتبار بالدروس والعظات فيها ، وهو مرحلة تأتي بعد التحقيق والنقد للأخبار ، فما ثبت من الوقائع والأحداث هو الذي يفسر وتدرس ارتباطاته ويتعرف على دلالته وآثاره ، وهذا الجانب من الدراسة (إدراك دلالة الحوادث وارتباطاتها) ملحوظ بكثرة في القرآن الكريم ، سواء في عرض القصص الواقعي لتجارب العديد من الجماعات البشرية ومواقفهم من أنبياء الله ورسله ، أو في التعقيبات التي ترد بعد كل واقعة تاريخية في عصر الرسالة ونزول الوحي على الرسول ﷺ ، وهو ما سمي عند المفسرين بأسباب النزول ، أو في التوجيهات والتحذيرات التي تأتي بعد سياق الحوادث التاريخية ، لأجل تقرير المقاييس والقيم وتصحيح المفاهيم وأخذ العظات والعبر من خلال عرض تلك المواقف . « والقرآن الكريم لا يقدم قصصه ومشاهداته لمجرد الترف الذهني وإشباع حاجة المؤمنين إلى القصص والمشاهدات ، ولا لنزعة (أكاديمية) تسعى إلى تتبع ما حدث فعلا دون اكتراث للمدلولات الكبرى لهذا الذي حدث وإرشاداته الأخلاقية .

فالقرآن يجيء بمعطياته التاريخية من أجل أن يحرك الإنسان صوب الأهداف التي رسمها الإسلام ، ويبعده عن المزالق التي أودت بمصائر مئات من الأمم والشعوب .

كما يجيء بالقصص والأحداث التاريخية من أجل إبراز الفروق الحادة بين المجتمعات الوضعية والمجتمعات الإسلامية على مدار التاريخ ، لكي يوضح أنه لا يوجد في كل العالم إلا أمتان اثنتان ، أمة الحق ، وأمة الباطل ، فالحركة هي

هدف العرض التاريخي لا مجرد السرد والاستقصاء ، والقرآن يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع (فحسب) إلى محاولة استخلاص السنن التي تحكم الظواهر الاجتماعية والتاريخية(١٤٠) .

والمنهج الإسلامي في تفسير الحوادث مستقل عن كافة المناهج الوضعية ومتميز عليها باستمداده من المصادر الشرعية – الكتاب والسنة – والعلماء المسلمون عرفوا هذا المنهج في تفسير التاريخ والنظر إلى حوادثه ، وقد استفادوه من طريقة القرآن في عرض الأحداث التاريخية ودعوته إلى إدراك السنن والإفادة من التجارب البشرية السابقة – وإن لم يفردوا ذلك بمؤلفات مستقلة – حيث كانت الصورة واضحة في أدهانهم عن الهدف من دراسة التاريخ ، يدل على هذا اختيارهم(١٤١) لعناوين كتبهم ، وبيانهم للهدف الذي من أجله كتبوا هذه الكتب ، وتعقيباتهم على بعض الأحداث ، ولكنهم لم يشاءوا التدخل بالتفسير والتعليل حتى لا يفرضوا على القاريء رأيا معينا ، ولكي لا يتسلطوا على فكره بتوجيه أو تعليل محدد للحدث ، كما أن القاريء في العصور الإسلامية الأولى كان لديه من الفهم لعقيدته وإسلامه وإدراك مقتضياتهما ما يجعله يدرك الحق من الباطل والمقدرة على وزن الأمور والأحداث بميزان الكتاب والسنة .

أما المسلمون في العصور الحديثة فقد أصاب مفاهيمهم جملة من الانحرافات ، فانحصر مفهوم الإسلام لدى الكثير منهم ، حتى حصر في شعائر التعبد من الصلاة والصوم والحج ، وفصل بينه وبين الحياة في الواقع العملي في كثير من بلاد المسلمين ، مع محاولة التأصيل الفكري لهذا الانحراف بنشر الأفكار العلمانية ، وتحريف التاريخ الإسلامي وتفسيره على وفق المناهج الغربية ، وكان للمدرسة الاستشراقية وتلاميذها في العالم الإسلامي أكبر الدور

(١٤٠) عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٨ – ٩ « بتصرف » .

(١٤١) انظر مقدمة الطبري لكتابه ، ولاحظ تسميته له « الرسل والملوك » وانظر أيضا مقدمة خليفة بن خياط لكتاب التاريخ له ، وكذلك مقدمة الأصمعي لكتابه « أخبار ملوك العرب البائدة الأولية » والذي طبع باسم تاريخ العرب قبل الإسلام . وقد سمى أحمد بن محمد مسكويه كتابه تجارب الأمم .

في ذلك ، فزاحمت المفاهيم الجاهلية – غربية وشرقية ومحلية – المفهوم الإسلامي في تفسير التاريخ خاصة بعد التضخيم الأوربي لمناهج التفسير التاريخي أو ما يسمى « فلسفة التاريخ » ، وتوسعهم في أسباب وعلل الحوادث ، وإعطاء التاريخ أهمية أكبر من حجمه الحقيقي ، بل لقد جعلوه مصدر إلهام وطلبوا منه إعطاء التصور عن الكون والحياة والإنسان وتفسير الطبيعة (كما يقولون) فأدى بهم خطأ التصور عن التاريخ إلى أن وضعوه في منزلة الإله الذي يتلقى منه نظام الحياة والتصور الصحيح عن الكون والإنسان ويستفتى في حل المشكلات ، ونظرا لعدم انطلاقهم من عقيدة ثابتة وتصور واحد فإنهم قد تعددت مذاهبهم بحسب مشارب العقول والثقافات والأهواء والرغبات .

مما أوجد مذاهب في التفسير متعددة ومتناقضة مثل التفسير(١٤٢) المادي

(١٤٢) التفسير المادي « الماركسي » للتاريخ يقوم على تصور معين وفلسفة شاملة في تعليل الكون والإنسان والتاريخ ، فالمادة في نظره هي أصل الكون ، والإنسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء ، وليس ثمة قوة أخرى غير الطبيعة قد أثرت في نشوئه وارتقائه والعامل الحاسم المسير لهذا التطور هو « وسائل الإنتاج » وهذه الوسائل هي التي تحدد نوع العلاقات الاقتصادية في كل مرحلة من مراحل التطور التي مرت فيها البشرية (كما يزعمون) وهذه الوسائل هي التي تحتم نوع العلاقات الاجتماعية والعقائدية والمذاهب الأخلاقية بل الحياة العلمية والفكرية والروحية بكاملها ، فكل تغير في وسائل الإنتاج يحدث عنه تغير في هذه العلاقات ، فالأديان والأفكار والأخلاق كلها تتغير وتتبدل حسبما تفرضه وسائل الإنتاج من تغير وتبدل حتمي ولا دور للإنسان فيه !!! ومن طبيعة العلاقات الاقتصادية تقسيم الناس إلى طبقات تختلف حسب تسلطها على وسائل الإنتاج ، فيقع الصراع بين طبقات المجتمع ، لأن الطبقة المالكة = = لوسائل الإنتاج تتمسك بسيادتها ، بينما الطبقة المحرومة (طبقة العمال) تسعى إلى إيجاد وسائل جديدة في الإنتاج ، وتبعا لذلك تمتلك السيادة ، والخلاصة أنهم يرون أن التاريخ البشري كله يعيش في صراع وتبدل في قيمه وموازينه حسب تبدل وسائل الإنتاج وتطورها ، ويرون أن المجتمع البشري ابتدأ بالشيوعية البدائية (الجماعية) ، ثم بسبب اكتشاف وسائل الإنتاج تحول إلى نظام الطبقات القديم (سادة وعبيد) ، ثم بفعل تطور جديد في وسائل الإنتاج تحول إلى مرحلة الإقطاع ، ثم انتقل منها إلى الرأسمالية (رأسماليين وعمال) ، ثم انتقل إلى الشيوعية ، حيث تنعدم الطبقات – كما يزعمون – وهذا كله ضرب من الفرضيات التي لا دليل عليها ، بل الدليل ضدها في كل نقطة ، ويكذبه الواقع المعاش للشيوعية المعاصرة ، وليس هذا مجال الرد التفصيلي عليها ، وللنقد التفصيلي للنظرية المادية في تفسير التاريخ انظر أحمد العوايشه « موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ » رسالة ماجستير في كلية الشريعة بمكة ، ونشرت ضمن مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة « الباب الثاني بكامله . وانظر كذلك د /نعمان السامرائي ، أضواء على تفسير التاريخ ص ١٣ – ٢٣ فقد أبطلها =

(الماركسي) والتفسير المثالي عند (هيجل)[143] ..

- من تسعة عشر وجها ، ولسان المذهب المادي في ذاته . انظر قسطنطين زريق ، نحن والتاريخ ص ٣٩ - ٤٠ ، عماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٤٤ - ٤٨ .

(١٤٣) هيجل فيلسوف ألماني عاش في الفترة من ١٧٧٠ - ١٨٣١ م ، وله فلسفة في المنطق والمعرفة وتفسير الوجود والتاريخ والأخلاق والفن والدين ، وهذه الفلسفة تقوم على مبدأ التقبض أو علاقات التضاد بين الأفكار والأشياء ، فهو يرى أن كل فترة أساسية في تاريخ الحضارة تمثل وحدة مستقلة ، وكل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها ، ويستمر الصراع دائما فتتحد المبادىء المتناقضة في وحدة عليا (هي الموحد) وهذا الموحد يدفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى ، وينشب صراع جديد فيولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها ، وبهذا الأسلوب الثلاثي « الفكرة ، نقيضها وموحدها » أو ما يسمى « الدعوى ونقيض الدعوى وجامع الدعوى » تتقدم الفكرة حتى تصل إلى المطلق الذي نستطيع أن نبقى نتأمله دون أن نتبين فيه أي تناقض (تفسير التاريخ للصديقي ص ٦٢) ، وهذا مثال يوضح ذلك ظهر المذهب الأبيقوري وهو مذهب فلسفي يوناني ، يرى أن الخير في اللذة وانتهى إلى المنفعة المادية (هذه فكرة) .

ثم بعد ذلك ظهر المذهب الرواقي ، وهو مذهب فلسفي يوناني كذلك ، ويرى أن الخير في سيطرة العقل على الشهوة وانتهى إلى التقشف (وهذه فكرة مضادة للأولى) .

- ثم ظهرت بعد ذلك المسيحية وهي في نظر هيجل وسط بين الحالين فهي موحد بين النقيضين في صورة أعلى ، وبموجب هذه الفلسفة يفسر هيجل التاريخ ، ويرى أنه ليس سوى حركة جدلية تبدأ في ظهور فكرة أو رأي أو قضية ، ثم ظهور فكرة أو رأي أو قضية مضادة للأولى ، ثم تتحد القضيتان أو تقضي إحداهما على الأخرى وتظهر بصورة معدلة (انظر المسألة الاجتماعية لعمر عودة الخطيب ص ١٤٣) .

والتاريخ العام كما يتمثله هيجل ليس التاريخ المعروف ، رواية تاريخ أحداث الأولين . وليس التأمل الذي يود أن يفسر الوقائع ويربط بها ليستخلص دروسا عملية من الماضي .. لكنه كما يراه هيجل التاريخ الذي يشرف على الأحداث من وجهة نظر كلية غير خاضعة للزمن ، وهي وجهة نظر عقلية ، لأن العقل في نظره جوهر التاريخ والعقل كما يراه - هو الذي يحكم العالم .

يقول هيجل « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائما صيرورة عقلية ، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم ، تلك الروح التي طبيعتها دائما واحدة لا تتغير والتي تفرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم (تفسير التاريخ للصديقي ص ٦٥) .

ويقول أيضا (إن التاريخ حركة منطقية وهو في الغالب سلسلة من الثورات يستخدم فيها المطلق الشعوب إثر الشعوب والعباقرة إثر العباقرة أدوات في تحقيق النمو والتطور (قصة الفلسفة لديورانت ص ٣٨٠) .

فهيجل يرى أن كل تغيير أساسي سواء في عالم الأشياء أو الأفكار هو من فعل « المطلق » ، الذي يقرر حركة التاريخ عن طريق روح العصر ، ولقد استفادت النظريات المادية وخاصة الماركسية من الجدل الهيجلي ، وطبقته في مجال الاقتصاد ، فقالت إن كل تغيير أساسي في عالم الأشياء والأفكار إنما هو من فعل الاقتصاد . وبذلك عثرت الماركسية على جسر الهيجلية وفلسفتها في المعرفة وتفسير التاريخ ، أو كما يقول ديورانت (لقد فقس هيجل الأستاذ الامبراطوري بيض الاشتراكية (قصة الفلسفة ص ٣٨٢) .

والتفسير الحضاري(١٤٤) ..
والتفسير القومي(١٤٥) ..

---

(١٤٤) التفسير الحضاري للتاريخ مذهب قال به الكاتب الإنجليزي أرنولد توينبي في كتابه « دراسة للتاريخ » والذي صدر في اثنى عشر جزءا في الفترة من ١٩٢١ م إلى ١٩٦١ م . وقد جعل ميدان دراسته المجتمعات أو الوحدات الحضارية ، فدرس إحدى وعشرين حضارة كلها اندثرت ولم يبق منها اليوم سوى خمس حضارات هي المسيحية الغربية ، المسيحية الشرقية الأرثوذكسية ، الإسلامية ، الهندية وحضارة الشرق الأقصى ، ويرى أن هذه الحضارات الباقية هي في دور الذبول والانهيار ما عدا الحضارة العربية ، فإنه توقف فيها ولم يتوقع لها مصيرا محددا ، ومذهبه في التفسير للأحداث التاريخية يقوم على ملاحظة جانبين هما الجانب المادي والجانب الروحي ، وهذا في الحقيقة خطوة متقدمة في فهم التاريخ وإدراك العوامل التي تؤثر فيه ، ولكن نظرا لثقافته النصرانية التي تؤمن بالفصل بين الدين والحياة وترتضي الشكل العلماني في جانب واللاهوتي في جانب آخر ، فإن دراسته قد جاءت ناقصة ، لإغفالها بعض مقومات الحدث التاريخي وفهمها المشوش لما أدركته من عناصر .

وفي نشوء الحضارات يرفض توينبي القول بوجود حضارة واحدة هي الحضارة الغربية ، ويرفض كذلك التفسيرات العرقية أو الجغرافية كسبب وحيد في نشوء الحضارة ويجعل السبب في نشوء الحضارات هو (التحدي والاستجابة) أي أن مجموعة من العوامل المادية والبشرية تتحدى المجتمع فتثير فيه روح الاستجابة المنتصرة على هذا التحدي ، ويحشد توينبي لنظريته هذه مجموعة من الشواهد التاريخية ، فيستعرض قصة آدم مع الشيطان ، وقصة المسيح عليه السلام وتحديه للشيطان كذلك ، وأيضا الهجرات التي كان سببها الجفاف ، إلى غير ذلك ، فإذا كانت الاستجابة مثيرة لتحدٍ جديد فإن هذا يؤدي إلى ارتقاء الحضارات ، والعناصر التي تقوم بالاستجابة الناجحة في المجتمع هي أقلية مبدعة والجماهير (البروليتاريا) الداخلية تقوم بالمحاكاة لهذه الأقلية المبدعة ، أما إذا توقف الإبداع في هذه الأقلية فإنها تتحول إلى أقلية مسيطرة ، فيرد المجتمع على طغيانها بسحب الولاء والثقة مما يحدث الاضطرابات وتبدأ الحضارة في الانهيار ثم السقوط ، حيث تستغل (البروليتاريا الخارجية) التي كانت تقف على الحدود لهذه الفرصة ، فتبدأ بالهجوم والاستيلاء لتنشيء مكان هذا المجتمع القديم مجتمعا جديدا ، وهكذا يستمر التعاقب الدوري في الحضارات كلما تسقط حضارة تخلفها حضارة جديدة أكثر استجابة للتحدي من الحضارة السابقة ، وقد تأتي عناصر جديدة تستجيب للتحدي فتجدد شباب الدولة وتحول بينها وبين السقوط ، ونظريته هذه منتقدة حتى من زملائه القريبين من أمثال (بترم سوروركن) و (بيترحيل) انظر مقدمة مختصر دراسة في التاريخ » ترجمة فؤاد محمد شبل ج ٤) . وعماد الدين خليل ، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ٧٠ - ٩٤ .

(١٤٥) التفسير القومي للتاريخ يهتم أصحابه بدراسة القوم المشتركين في نسب واحد (عِرْق) ، وفي لغة واحدة ، ويعيشون على أرض واحدة ، وتجمعهم مصالح مشتركة ، دون النظر إلى الدين والعقيدة ، وهذا التاريخ يتسع ليشمل القوم الناطقين بلغة واحدة مثل اللغة العربية ، أو الفرنسية ، ويضيق ليكون اهتمامه بالقومية المحلية ، سواء كانت وحدة سياسية مثل الدولة أو مدينة أو قرية صغيرة داخل الدولة ، فيفسرون كافة الأحداث التاريخية وبواعثها بموجب هذه النظرة الضيقة ، ولذلك يجعلون التاريخ الإسلامي حلقة من حلقات تاريخ العرب ، ويفسرون أحداثه على أساس الصراع القومي بين العرب وبين أبناء الشعوب التي دخلت في الإسلام ، يقول الكاتب العربي النصراني قسطنطين زريق (إن للقومية معاني وخصائص =

والتفسير بالغريزة الجنسية كعامل محرك للنشاط الإنساني (عند فرويد)[١٤٦] ، وكل هذه التفسيرات ناقصة ، لأنها تنطلق من تصور خاطيء عن الإنسان والكون والألوهية ، وفوق ذلك لم تحسب حسابا لكافة العوامل المؤثرة في حركة التاريخ ، وإنما اكتفى كل واحد منها بعامل ضخّمه وفسر به تاريخ الإنسان كله .

والعناصر التي يجب ملاحظتها عند التفسير التاريخي هي الإنسان الذي هو محور الحركة التاريخية ما هو ؟ من هو ؟ وما هي وظيفته ؟ وما هو مصيره ؟ وما مدى استعداداته وقدراته الموهوبة له ؟ وما العقيدة التي تسيره ؟ لأن الأفكار والتصورات ذات تأثير في توجيه الأحداث واتخاذ المواقف .

ولابد أن يؤخذ في الحسبان مدى أثر العوامل الطبيعية (المادية) المحيطة بالإنسان ، كالعوامل الجغرافية وعوامل الطقس ، وقبل هذه العوامل ومعها وبعدها قدر الله وأمره النافذ ، فإنه لا راد لقضاء الله وأمره .

فلا بد من ملاحظة كل هذه العناصر الفاعلة في الحدث التاريخي ، وإلا كان التفسير ناقصا ، ثم لابد - وهذا شيء مهم جدا - أن يكون لدى المفسر التصور السليم عن هذه العوامل وقدراتها والنسب الصحيحة للعلاقة بينها ، وأن

= إذا فقدتها فقد فقدت جوهرها ، وفي مقدمة هذه المعاني علمانية الحركة القومية ، وعلمانية الدولة التي يراد إنشاؤها ص ٣٧ . ثم يتطاول في القول - ويفتي المسلمين وهو نصراني جاهل كافر - فيقول « إن العلمانية ليست كفرا بالله تعالى ، ولكنها تقيم المجتمع على أساس علماني !! وتنبذ كل عصبية طائفية وكل تمييز بين مواطن ومواطن على أساس العقيدة والدين ، وبهذا المعنى تفهم القومية » و « الأمة » في العصر الحاضر (نحن والتاريخ ص ٣٧ - ٣٨) .

(١٤٦) سيجموند فرويد عالم نفس يهودي ، تأثر بنظرية داروين في التطور ، وآمن بحيوانية الإنسان ، وعلى هذا الأساس وضع نظريته النفسية في تفسير دوافع السلوك الإنساني ، وقال : إن كل نشاط إنساني وكل حركة وكل موقف هو نابع من الغريزة الجنسية ، حتى الأخلاق والدين يفسرها على هذا النحو ، وأنها لم تكن أصلية في خلقة الإنسان ونظرته ، وإنما نشأت نتيجة العقد النفسية والخوف من المجتمع ، وقد تلقف هذه النظرية النفسية أقوام ممن آمنوا بها ففسروا تاريخ البشرية على هذا الأساس من الدوافع الجنسية ، ويمثل هذا التفسير للتاريخ الإسلامي روايات جرجي زيدان التاريخية التي سماها روايات تاريخ الإسلام ، وقرن كل رواية بقصة حب ورغبة جنسية ، حتى جهاد الصحابة - رضي الله عنهم - جعله مدفوعاً بدوافع الغريزة الجنسية » . انظر حول نظرية فرويد ، محمد قطب ، الإنسان بين المادية والإسلام ص ١٨ - ٥٢ ، والتطور والثبات في حياة البشرية فصل « اليهود الثلاثة » .

يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها ، روحية وفكرية وجسدية .

وهذا لا يتوفر لغير المسلم ، لأن صحة التصور عن هذه الأمور المؤثرة والفاعلة في الحدث التاريخي لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي المعصوم من الخطأ (الكتاب والسنة) ، فبواسطة التلقي من الوحي يعرف المرء المسلم هذه العوامل ، ويعرف قدر كل عامل منها وقيمته وتأثيره في التفسير ، وصحة التصور تتطلب توفر عنصر « الغيبية » أي الإيمان بالغيب ، وعنصر « الموضوعية » ، فإن ما يسمى عند غير المسلمين بالموضوعية (وهي في نظرهم التزام أدبي لا غير) هي عند المسلم دين وعقيدة ومسئولية ، يشعر بأن الله سيحاسبه عليها إن قصر . أما الإيمان بالغيب فأمر لا يعرفه الكفار على حقيقته ولا يؤمنون به ، لأنهم لم يتلقوا في ذلك من شرع الله ومنهجه ، فهم بين منكر له بالكلية أو يحمل تصورات مشوشة وغير صحيحة عن ذلك . فانعدام الإيمان بالغيب ، وضعف الموضوعية أو انعدامها – خاصة تجاه الدراسات الإسلامية – وخطأ التصور ، والانحراف في زاوية الرؤية ، كل هذه سمات مشتركة في مناهج التفسير التاريخي غير الإسلامي .

أما سمات منهج التفسير الإسلامي وخصائصه فهي صحة التصور عن الله والكون والحياة والإنسان والواقعية والتوازن والشمول والصدق . فالتفسير الإسلامي للتاريخ يقوم على صحة التصور عن الألوهية وحقها ، وعن الكون ما هو ، وعن الإنسان ما هو وما وظيفته في هذه الحياة وما مصيره بعد وفاته ، وما هي الغاية التي ينتهي إليها ، كما وضحنا ذلك في مبحث المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي(١٤٧) .

والتفسير الإسلامي تفسير واقعي ؛ لإدراكه الصحيح لمقومات النفس البشرية ، وكذلك الحياة الإنسانية معنوية ومادية فلا يهمل شيئا منها ، فالله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان التسامي والارتفاع إلى مستوى التكاليف

---

(١٤٧) انظرها ص ١٠٦ .

الشرعية والالتزام بها ، إلا أنه لا يستبعد وقوع الانحرافات والأخطاء من البشر (وإن كانت غير شرعية) ، ولذلك لا ينبغي للباحث أن يتكلف في تفسيرها أو محاولة تبريرها ، وإنما يسمى الأشياء بأسمائها ، فالخطأ خطأ بصرف النظر عمن صدر منه ، لكن عليه أن يوضح ذلك في أدب المسلم وسمته واحترامه لأخيه المسلم .

- والتفسير الإسلامي تفسير متوازن ، فهو يلاحظ أن الأحداث التاريخية قدر من أقدار الله ، لكنه لا ينكر أنها عمل من أعمال الإنسان ، فهو مسئول عنها مسئولية كاملة ، لأنه قد وهب من وسائل المعرفة والإدراك إضافة إلى الشريعة التي أرسل بها رسل الله - عليهم السلام - ما يجعله يفرق بين الحق والباطل والخير والشر .

- والتفسير الإسلامي يتميز بالامتداد والشمول الزمني ، فالتفسير الإسلامي لا يغفل جانبا من الجوانب المؤثرة والفاعلة في الحدث التاريخي ، ومن ناحية الزمن يربط الماضي بالحاضر بالمستقبل ، بل ويمتد نظره إلى أبعد من المستقبل القريب فينظر إلى اليوم الآخر ، ويدرك أن هذه الحياة الدنيا بماضيها وحاضرها ومستقبلها ليست إلا جزءاً يسيرا بالقياس إلى الحياة الآخرة .

- كما أن التفسير الإسلامي تفسير صادق ، لأنه ينبثق من القرآن الكريم والسنة المشرفة ، ولاعتماده على حقائق إيمانية مسلمة ، ثم هو يراعى ويعترف بكافة العوامل ، دون تضخيم لبعضها أكثر من حجمه وتأثيره الحقيقي .

فهذه السمات والخصائص في منهج التفسير الإسلامي للتاريخ عموما ، سواء تاريخ البشرية بكامله أو تاريخ الأمة المسلمة هي التي تميزه عن بقية المناهج والمذاهب الأرضية . أما ركائز المنهج وأدوات تنفيذه في الواقع العملي ، فهي التصور الصحيح لكافة قضايا العقيدة والشريعة ، ثم الرجال الصادقون المخلصون ، ثم المنهج العلمي السليم .

وسيأتي مزيد إيضاح لهذه الركائز في الفصل الرابع من هذا الباب .

الفصـــل الرابع
غاية منهج كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه

غاية منهج الكتابة :

منهج كتابة التاريخ الإسلامي يقوم في جانبه الفكري والتصوري على المباديء والقيم الإسلامية ، ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان ، ولذا فإن غايته ووجهته ، مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية ، فهو يسعى لتكميل الغاية الأساسية من خلق الإنسان ، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى بإقامة شريعته في الأرض .. ولذلك فإن المسلم عندما يدون واقعات التاريخ وأحداثه وعندما يدرسها ، ينبغي أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيماني .

إنه لابد أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه ، لكي يستفيد من الأحداث التاريخية دروسا وتوجيهات مثمرة ، ولكي يدرك من خلال الوقائع سنن الله وقدره وهيمنته على الكون ، ومثل هذه المعرفة والإدراك تزيد في إيمانه وطاعته لله ، وتتيح له الحصول على الثمرات التي يرجوها المسلم من دراسة التاريخ .

فالتزام الباحث بمنهج العقيدة ، يرسم له طريقة التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودرسه ، وأخذ العظة منه .

وهكذا يتضح لنا أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولى في منهج كتابة التاريخ عند المسلم ، فهو لا يخالف مبدءا ولا حكما منها ولا يناقضه ، لا في كتابته وتدوينه للتاريخ ولا في تفسيره لحوادثه .

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته وأن يلتزم بها ،[1] فالارتباط بالعقيدة الإسلامية والانطلاق منها هدف وغاية في المنهج التاريخي . كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي ، فالتلازم بينهما وثيق ككل عمل المسلم الذي يلتزم بعقيدته ويسعى لتطبيقها في واقع الحياة .

كما أن من غاية المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها ، والقول بالحق فيها وفقا للمفاهيم والمقاييس الإسلامية ، لأن المسلم مأمور بإظهار الحق ، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم ، لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفاءها ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[2] ، وإنما عليه أن يعرض ذلك ولكن في مجاله وبحجمه الحقيقي دون تضخيم لهذه الأخطاء أو تشنيع بها ، وإنما تعرض عرضا متزنا موضحا الظروف والملابسات التي صاحبت ذلك وأدت إليه ، وعليه أن يوضح الموقف الشرعي في مثل هذه الحالة وفقا للمقاييس والأحكام الشرعية ، كما أن الخطأ يعتبر مجالا من مجالات التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلا

---

(١) فمثلا النظريات الأوربية عن أصل النشأة الإنسانية تقول بأمور مخالفة لعقيدة المسلم وتصوره عن أصل هذه النشأة ، فيقولون إن الإنسان لم يخلق على هذه الصوره من أول مرة ، وإنما مر بعمليات تطورية بيولوجية طويلة المدى ، فتطور من الخلية الواحدة إلى حيوان فقري ، ثم إلى نوع من القردة ، ثم إلى إنسان ، ومعنى هذا أنه وجد صدفة وبدون غاية وقصد ، وبدون تدبير خالق عليم ، فالمسلم الملتزم بأحكام دينه لا يصدق بشيء من مثل هذا أو بدونه ، إلا أن يكون حاكيا لذلك وناقدا له ، لأن هذا قول بدون دليل ، ثم هو مخالف للنصوص الشرعية في الكتاب والسنة .

وكذلك الحال مع أنظمة الجاهلية وآثارها وحضارتها ، لا ينبغي أن نعدو بها قدرها وواقعها التاريخي ، فلا تضخم أو تعظم ولا تزين للناس أو تمدح ، بل يجب بيان الحكم الشرعي في مثل هذه المخلفات ، وبيان مناقضة الأنظمة الجاهلية لعقيدة الإسلام ونظمه ، وبيان أن من مخلفاتها الحضارية ما يكون مضادا لعقيدة التوحيد أو وسيلة للانحراف عن منهج الحق وطريقا إلى الشرك ، كما سنوضح ذلك في الفصل الآتي .

(٢) سورة النساء آية : ١٣٥ .

والأسوة في ذلك طريقة القرآن الكريم في عرضه للأحداث التاريخية ، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفي ما وقع منهم من أخطاء ، وإنما يذكر ما وقع منهم ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه ، كما أنه يذكر ما في الجانب الآخر - الكفار - من خير أو شر ، قال تعالى : موضحا ما وقع من المؤمنين من المخالفة في غزوة أحد ﴿ ولقد صدقكم الله وحده إذ تحسونهم بإذنه ، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم . ولقد عفا عنكم . والله ذو فضل على المؤمنين ﴾(٣) ، وقال أيضا في نفس الموضوع ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ﴾(٤) ، وقال تعالى ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾(٥) ففي الآيات السابقة نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ما وقع من بعض المؤمنين من أخطاء ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك ، ولكنه أيضا لم يشنع عليهم بهذا الخطأ ويخفي الجانب الآخر من محاسنهم أو يوقعهم في اليأس وعدم إمكانية الإصلاح ، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ ووعدهم بالعفو والمغفرة .

وقال تعالى مبينا حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق أو إخفاء الباطل : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾(٦) .

---

(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٥٥ .
(٥) سورة التوبة آية : ٤٧ .
(٦) سورة التوبة آية : ٩٧ - ٩٩ .

وقريبا من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ﴾(٧) .

فالمسلم مأمور من الله بالعدل وقول الحق سواء كان له أو عليه ، وقد مر فيما مضى من البحث إيراد الآيات التي تأمر بذلك . مثل قوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾(٨) .

والمنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج « وصفي » و « معياري » ، فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ، ويتحقق من صحة الواقعة بكافة وسائل النقد وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي ، ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري ، وذلك وفقا للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية .

فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هي الميزان (المعياري) الذي توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم ، قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾(٩) .

وباتباع هذا المنهج في الدراسة تحصل العبرة والتوجيه ، وتتحقق الثمرة من دراسة التاريخ وهي تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق ، مع بيان خطر الانحراف واتباع الباطل وترك العمل بمنهج الله الحق .

ومن الغايات التي يسعى المنهج الإسلامي إلى تحقيقها من دراسة التاريخ هي استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية ، لتقويم

---

(٧) سورة آل عمران آية : ٧٥ .
(٨) سورة المائدة آية : ٢ .
(٩) سورة الحديد آية : ٢٥ .

مسيرة الأمة والإسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها .

وقد أكثر القرآن الكريم وأكثر الرسول ﷺ من استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالا لتربية الأمة الإسلامية ، وإعدادها الإعداد المتكامل في كافة الجوانب العلمية والتطبيقية للمنهج الإسلامي ، وقد جعل الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله ميدانا لهذا الإعداد وهذه التربية .

ففي الماضي ، عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل ، وبين مواقف تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسولهم الذي أرسل لهم ، ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم ، وبين السمات المشتركة في تاريخ هذه الأمم وفي مواقفها من أنبياء الله ، وعلى ضوء هذا الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها .

وفي الحاضر – وقت نزول القرآن – عرض القرآن كثيرا من أحداث السيرة النبوية ومغازي رسول الله ، وبين مواقف الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق ، وقد استخدم الأحداث التي تقع من هذه الأصناف في تربية المؤمنين وإعدادهم وفي كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين ، وهي أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا في وقائعها ، فعقب عليها القرآن كاشفا عما في هذه الأحداث والمواقف من الصواب وما فيها من الخطأ ، لكي يأخذ المسلمون الدروس كاملة ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم . ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعى للاستجابة وسرعة التأثر ، ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذي عايشت وقائعه أكثر من تأثرها بشيء آخر ، فيكون استثمار هذا التأثر في التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة .

وفي الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض وجعل لهذا الوعد شرطا – هو عبادة الله وحده لا شريك له – مما حفز همم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط لتحصل لهم ثمرته في الحياة الدنيا ، وقد تحقق على أيدي الجيل الأول من هذه الأمة لما حققوا الشرط المطلوب فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ومكن لهم فيها ، ولازال هذا الأمر يتحقق

للمؤمنين في مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه .

بل إن آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا ، وهو الحياة الآخرة ، وما سيكون فيها من الأحداث ، لتوسع نظرة المؤمن للحياة وللزمن وللتاريخ ، فتكون زاوية الرؤية والنظر لديه أرحب وأشمل وأقدر في الاستيعاب والتحليل .

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو « الفتن والملاحم » وأشراط الساعة كثيرا من الاهتمام والإيضاح ، حتى يكون المسلم على وعي تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية ، وهي أحداث تعطي إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوي ، ولذلك لا تفجأه مثل هذه الأحداث أو تعميه عن استبانة طريق الحق ، لأن الذي يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها ، وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة الموقف ، بخلاف الذي يجهل سبب الأحداث ومصدرها ، فإنه لا يدرك السنن الربانية وتفاجئه الأحداث وهو لا يعلم سببها الحقيقي فيورثه ذلك حيرة وقلقا .

ومن أهم الغايات التي يحققها المنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية ، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها ، وهذه الغاية مهمة جدا في حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشيء من المفاهيم والتصورات الجاهلية ، لأنه كما قيل :

وبضدها تتميز الأشياء .

فالتصورات والقيم والمباديء الجاهلية مضادة للإيمان بالله ، ومن مقتضيات الإيمان بالله ، البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها ، قال تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾(١٠) .

---

(١٠) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - « ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية » فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها ، يزيد المؤمن إيمانا وطمأنينة إلى ما عنده من الحق ومعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها وحصانة ضد الوقوع في شيء منها ، لكن لابد أن يسبق هذه الدراسة والمعرفة بتاريخ الجاهلية ونظمها ويصاحبها ، إيمان بالله صحيح واعتزاز بشريعة الله وفقه بالحلال والحرام ، وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء .

وسائل تحقيق المنهج :

أما الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فهي تقوم على ثلاثة ركائز أساسية ، وهي التصور الصحيح المستمد من الشريعة في مصادرها المعتمدة ، ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراساتهم وتوجيههم وتدريسهم ، وفي أخذهم وعطائهم ، وفي تحملهم للعلم وأدائهم له ، فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع ، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام ، أو من لا يعرف التصور الصحيح في الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها .

فالرجال العلماء بالشريعة الصادقون في علمهم وعملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخام الخطيرة ، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين الصادقين بقوله ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .. الآية ﴾[١١] وبقوله تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[١٢] .

---

(١١) سورة الأحزاب آية : ٢٣ .
(١٢) سورة النور آية : ٣٦ - ٣٧ .

فالرجال الأمناء المخلصون هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي .

وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح ، والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به ، يأتي دور المنهج العلمي السليم الذي بتطبيقه واتباعه يكتمل تحقق المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ، فإنه بفقد المنهجية العلمية السليمة يفقد العمل كثيرا من مزاياه ، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القاريء تبين المعالم الصحيحة إذا لم يكن العمل منظما ومتبعا في إعداده المنهج العلمي السليم .

وهذه الركائز الثلاث يكمل بعضها بعضا وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض ، فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدانها ، لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها ، فهي منطلق أساسي ومركز محوري لكافة الوسائل والغايات وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي ، والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعملهم التصور الإيماني في الواقع العملي والسلوكي ، خاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في دراساتهم ومؤلفاتهم .

ومن المعلوم أن المنهج بدون هذه الوسائل يبقى تصورات وَمثلا في الخيال ، ولابد لتحقيقه في الواقع العملي من الرجال العلماء المؤمنين بهذا المنهج ، والذين يمتلكون منهجا علميا سليما في البحث والتحقيق ، وإذا قام على تحقيق منهج كتابة التاريخ الإسلامي من لا تتوفر فيهم شروط العلم والإخلاص والأمانة ، فإن المنهج يصاب بكثير من التحريف والتشويه .

الفصل الخامس
قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي

نحاول في هذا الفصل أن نوضح بعض القضايا والقواعد التي ينبغي على من يكتب في التاريخ الإسلامي مراعاتها ، وبصفة خاصة في كتابة « تاريخ الصدر الأول » .

والقواعد التي سنذكرها ربما وردت الإشارة لبعضها فيما سبق من البحث ، غير أننا أردنا إبرازها لمزيد الاهتمام بها ، كما أن بعضها قد يكون من البداهة والوضوح في التصور الإسلامي بمكان ، ولكن نظرا للانحراف الذي وقع في فهم كثير من المسلمين في هذا العصر لدينهم ، وغياب بعض التصورات الأساسية عن حسهم مما جعلهم يفهمونها بصورة منحرفة ومشوهة ، فقد أدرجناها مساهمة منا في تصحيح المفاهيم الأساسية في حياة المسلمين وهذه القواعد ممكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام هي :

- قواعد في التصور والاعتقاد .
- قواعد في المصادر .
- قواعد في الأسلوب وطريقة العرض .

قواعد في التصور والاعتقاد

١ - الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية :

من قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامي الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية على مر العصور ، ومعرفة مقومات هذه الوحدة .

فلقد كان الناس أمة واحدة على الهدى ، ولكن بسبب من كيد الشيطان انحرف قسم منهم عن العقيدة الصحيحة وأطاعوا الشيطان ، فانقسمت البشرية منذ ذلك إلى قسمين : مؤمنين وكفار ، قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾(١) أي كان الناس أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة فلما اختلفوا ووقع فيهم الشرك بعث الله النبيين مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين ، وأنزل معهم الكتاب الذي فيه الفصل والحكم الحق فيما اختلفوا فيه .

وقال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات . ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾(٢) .

فالأمة في المفهوم الإسلامي هي جماعة من الناس ذات عقيدة واحدة وتصور واحد(٣) ومفاهيم مشتركة ، فالجماعات الذين صدّقوا الأنبياء

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٣ .

(٣) حول مفهوم الأمة ، انظر سيد قطب في ظلال القرآن ٣ /١٤٠٢ ، ومحمود شاكر التاريخ الإسلامي ١ /١٥ ، ود / أحمد حسن فرحات الأمة في دلالتها العربية والقرآنية ١ /٢٩٧ وما بعدها بحث نشر في الكتاب الذي أصدرته الندوة العالمية للشباب المسلم (اللقاء الرابع) تحت عنوان « الإسلام والحضارة » .

واتبعوهم من آدم – عليه السلام – حتى آخرهم محمد ﷺ يعتبرون أمة واحدة هي الأمة المسلمة ، والذين كذبوا الأنبياء ولم يتبعوهم يعتبرون أمة واحدة وهي الأمة الكافرة ، قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأنبياء : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾(٤) .

فالأنبياء وأتباعهم أمة وما عداهم أمة ، ومن هذا يتضح أن السمة التي تجمع الأمة هي العقيدة ، وأن توزيع البشرية ينبغي أن يتم على أساس العقيدة وليس على أساس عنصر النسب والعرق أو الأرض ، ولا على أساس اللغة ، ولا الاقتصاد ، ولا التاريخ المشترك وحده ، ولا المصالح والآمال والآلام وحدها .. وبذلك تكون وحدة الأمة في المفهوم الإسلامي هي وحدة المفهوم والفكر أي وحدة « العقيدة » ، فالمسلم أينما كان ومن أي جنس كان وفي أي عصر عاش هو جزء من الأمة الإسلامية ، ووطنه وأرضه هي الأرض التي تقام فيها شريعة الله ، وعلى هذا الأساس والمفهوم وزع الفقهاء المسلمون الأرض إلى دار إسلام ودار كفر . ووجب على المسلمين الجهاد لتحويل دار الكفر إلى دار إسلام .

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامي على مر العصور ، ووحدة الحضارة الإسلامية في أطرها ومفاهيمها العامة ، ودارس التاريخ يتوجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور ، فيدرس تاريخهم على أنه وحدة واحدة ، نظرا للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله .

والذي يقرأ سير الأنبياء – عليهم السلام – وتاريخهم كما ورد في القرآن الكريم ،(٥) يجد هذا التوافق في المواقف التاريخية والاتحاد في المفاهيم والنظرة للأحداث ، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدرون عن مشكاة واحدة ، ويتلقون عن رب واحد ، ويدعون إلى رسالة واحدة في قواعدها وأصولها .. وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسل نجد فيه هذا التوافق والمفاهيم . وهذا يعبر عن

---

(٤) سورة الأنبياء آية : ٩٢ .

(٥) انظر بشكل خاص ما ورد في سورتي الأعراف وهود من سير الأنبياء ووحدة مواقف أقوامهم منهم ، رغم البعد الزمني والمكاني فيما بينهم .

قوانين ثابتة وسنن لا تتغير في حركة الكون ومجرى التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدرة القائم بالحق .

فيجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقيدي ، وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة ، ونبرز التاريخ الجاهلي بسماته العامة على مدار العصور ، وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أو العائلي أو الزمني ، والتي تفتت الوحدة العقيدية والرابطة الإيمانية ، وتأتي بروابط بديلة من الوطن والقوم والإنسانية ، وتلون التاريخ الإسلامي وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية ، وتسلكه في أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية .

٢ - الحكم الشرعي في المخلفات الحضارية :(٦)

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقية لمخلفات الأمم وآثارها والحكم الشرعي فيها .

فالمسلم الذي يستمد تصوره من الكتاب والسنة ويهتدي بهديهما لابد له - وهو يدرس تواريخ الأمم - أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعي ، ليعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل ، فلا يغالي في تعظيمها وتقديرها ، كما يفعله فريق من الناس ، ولا يغمطها حقا هو لها .

والآثار المتبقية عن الأمم السابقة متنوعة ، فمنها ما له فائدة علمية أو مادية ، مثل الوثائق والنقوش وقطع النقود ومثل الجسور والآبار والعيون والسدود والقناطر والطرق ، فهذه يستفاد منها ، وتكون قيمتها الحقيقية بقدر الخدمة التي أدتها أو تؤديها للناس ، ولا يجوز تعظيم بناتها أو تقديسهم .

ومنها ما في وجوده وبقائه منافاة لعقيدة التوحيد مثل التماثيل والصور

---

(٦) نناقش هنا الحكم في المخلفات المادية ، أما المخلفات الفكرية فسنعرض لها في قواعد المصادر .

والأصنام وبيوت العبادة لغير الله ، والمشاهد التي على القبور والمزارات ، فهذا النوع من الآثار يجب تحطيمه وإزالته ، لأنه يجر إلى الشرك وعبادة غير الله ، ومن أصول الإسلام سد كل الذرائع المؤدية إلى المفاسد ، ولا شيء أفسد من الشرك وصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله ، وهذا ما عمله رسول الله يوم فتح مكة ، حيث حطم الأصنام والطواغيت التي كان يعبدها العرب ، ويلحق بهذا النوع من المخلفات المادية المخلفات الثقافية والفكرية الضارة ككتب السحر والإلحاد والتهتك والفجور .

وهناك نوع من المخلفات والآثار لا نفع فيه ولا ضرر منه لذاته مثل المباني الخربة وبقايا الأسوار والحصون والبنايات الكبيرة كالأهرامات التي في مصر ، ومثل إيوان كسرى في العراق ، فهذا النوع من الآثار يهمل ولا يعنى به لمجرد أنه أثر من الآثار ، لأن في تلك العناية تعظيم لها ولمن خلفوها ، وقد أهملها سلفنا الصالح بالفعل ولم يشغلوا أنفسهم بالمحافظة عليها وترميمها ، فضلا عن تنظيم الزيارة لها .

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذي نتبعه في دراسة الآثار والوقوف عليها ، وبين لنا الفائدة التي من الممكن أن نستفيدها من الوقوف على آثار السابقين .

وعرفنا على القيمة الحقيقية للآثار ، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة والتعرف على آثارها لكي يؤتى ثماره لابد أن يقترن بالعبرة والعظة ، التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه ، فلا يدعها أو يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم ، لأن العلم بأمر الله وشرعه والنظر الصحيح والاعتبار المثمر في أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع ، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا حياة فيها ، كقولهم إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفراح كيت وكيت وأنهم كانوا يحرثون بالمحراث الذي نحرث

به .. وحصر الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة .. إلى غير ذلك .

إن هذه الدراسة الأكاديمية الجافة لا توقظ في القلب شعورا ولا تنفخ فيه حياة ، ولا تنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق ، كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآني في عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا نظر المستبصر المستفيد ، الباحث عن أسباب الدمار الذي حل بأصحاب تلك الآثار ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾(٧) وقال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾(٨) ، فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها ، ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية وسماع أخبارها سماع العظة والعبرة ، ومشاهدة آيات الله وقدرته وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين ، والتعرف على القيم الحقيقية التي تطيب بها الحياة وتعمر ، وتكون سببا للنجاة والفوز عند الله ، قال تعالى ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد – أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾(٩) .. وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج عملي في واقع ملتزم بأمر الله ونهيه ، وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾(١٠) ، وقال ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾(١١) ، كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر في آثار السابقين

---

(٧) سورة النمل آية : ٦٩ .
(٨) سورة القصص آية : ٥٨ .
(٩) سورة الحج آية : ٤٥ – ٤٦ .
(١٠) سورة السجدة آية : ٢٦ .
(١١) سورة الأعراف آية : ١٠٠ .

في مقام الواعظ البليغ وجعله حجة على الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(١٢)

وفيما يلي نسوق بعض الآيات التي يتبين منها نهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله ، ولفته أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالشاهد الباقي من مخلفات القوم وآثارهم .

قال تعالى واصفا بعض ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمراني ، ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾(١٣) ، وقال تعالى : ﴿ وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ماءاتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾(١٤) ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكرواءالاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾(١٥) ، وقال تعالى : ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾(١٦) ، وقال عن قوم هود – عليه السلام – ﴿ أتبنون بكل ريع ءاية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾(١٧) ، وقال عن قوم فرعون ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها

---

(١٢) سورة إبراهيم الآيات ٤٤ – ٤٧ .
(١٣) سورة الروم آية : ٩ .
(١٤) سورة سبأ آية : ٤٥ .
(١٥) سورة الأعراف آية : ٧٤ .
(١٦) سورة الحجر آية : ٨٢ .
(١٧) الشعراء آية : ١٢٨ – ١٢٩ .

فاكهين ﴾[١٨] ، ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات على الصراط المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قوما آخرين[١٩] ، وبعضها بقيت خاوية خربة[٢٩] لتكون آية للمعتبرين ، قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله ﴿ فكلا أخذنا بذنبه **فمنهم** من أرسلنا عليه حاصبا . **ومنهم** من أخذته الصيحة . **ومنهم** من خسفنا به الأرض . **ومنهم** من أغرقنا . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢١] .

وقال في موضع آخر ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٢٢] أي أن كثيرا من القرى لما ظلمت أهلك الله أهلها فبقيت خاوية خربة غير مسكونة ، فانظر إلى آبارها المعطلة وقصورها المشيدة ، تحكي واقعها الحضاري وتقدمها العمراني ، ولكن ذلك لما كان غير مصحوب بالإيمان بالله واتباع رسله فإنه لم ينفعهم ، وقال تعالى موضحا أهمية التفكر والتدبر في آثار الغابرين ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾[٢٣] ، وقال : ﴿ ولقد تركنا منها ءاية بينة لقوم يعقلون ﴾[٢٤] ، وقال ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾[٢٥] ، وقال عن قوم لوط ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك

---

(١٨) سورة الدخان آية ٢٥ – ٢٧ .

(١٩) قال تعالى عن حضارة الفراعنة ﴿ كذلك وأورثناها قوما ءاخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ (الدخان ٢٨ – ٢٩) .

(٢٠) قال تعالى ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ القصص ٥٨ . وقال تعالى ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ الأحقاف ٢٥ . وقال تعالى ﴿ وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ العنكبوت ٣٨ .

(٢١) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .

(٢٢) سورة الحج آية : ٤٥ .

(٢٣) سورة طه آية : ١٢٨ .

(٢٤) سورة العنكبوت آية : ٣٥ .

(٢٥) سورة الشعراء الآيات ٦٧ و١٠٣ و١٢١ و١٣٩ .

لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾(٢٦) ، وقال عنهم في سورة الصافات ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين و بالليل أفلا تعقلون ﴾(٢٧) .

ولما مر رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – بديار ثمود – مدائن صالح – وهو في طريقه إلى تبوك قال لأصحابه « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، وفي رواية « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم » ، ثم قرن ﷺ القول بالفعل « فقنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي » ، وكان بعض القوم قد استقوا وعجنوا العجين فأمرهم أن يكفأوا الماء وأن يعلفوا العجين الإبل ، وقال استقوا من البئر التي كانت ترد عليها الناقة »(٢٨) ، فقد أمر رسول الله ﷺ أن لا نمر بمساكن الظالمين وآثارهم ، وأن لا ندخلها إلا باكين ومتعظين ومستبصرين وخائفين من أن يصيبنا ما أصابهم ، لا أن نكون منبهرين ومعظمين لهؤلاء الظالمين ، أو لاهين وغافلين ، يقول الأستاذ البهي الخولي تعليقا على هذا الحديث : « إن الأثر العجيب إذا كان لظالم وأعجب به الإنسان فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدري وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعر ، وما الإنسان إلا قلبه الحي وضميره المعتبر الذكي ، فإذا فقده هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئا ، فانظر إلى حرص رسول الله على حياتنا ويقظة بواطننا »(٢٩) .

فكأن هذا الحديث مع ما قبله من الآيات يدلنا على الشرط في دراسة الآثار ، والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة ، ويوضح لنا القيمة المستفادة

---

(٢٦) سورة الحجر من آية ٧٣ – ٧٧ .

(٢٧) سورة الصافات ١٣٢ – ١٣٨ .

(٢٨) هذا الحديث أخرجه البخاري في أربعة مواضع من كتابه الصحيح من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في كتاب الصلاة ١ /١١٢ وكتاب الأنبياء ٤ /١٢٠ وكتاب المغازي ٥ /١٣٥ ، وكتاب التفسير ٥ /٢٢١ وأخرجه مسلم في كتاب الزهد من صحيحه ٤ /٢٢٨٥ .

(٢٩) البهي الخولي . تذكرة الدعاة ص ١١٩ .

منها ، وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته ، وأن هذا سنة من سنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شرعه ويتبع هواه .

٣ - الفهم الصحيح للقضاء والقدر :

ومن القواعد المهمة في منهج كتابة التاريخ الإسلامي الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر ، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند المسلمين المتأخرين ، فمنهم من أنكر ذلك وتنقص المؤمنين به ، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مذل ، وكلا الموقفين منحرف ومجانب للصواب ، فالإيمان بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان وما هو كائن أمر لازم ، لا إيمان لمن لم يؤمن به إذ هو أحد أركان الإيمان « .. وتؤمن بالقدر خيره وشره »(٣٠) ، فالله - سبحانه وتعالى - خلق الإنسان وخلق أفعاله ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾(٣١) .. فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض ، ولن يحدث في الكون كله فضلا عن الأرض شيء يخالف مشيئته وقدره ، لما ثبت في الحديث الصحيح « إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب . قال رب وماذا أكتب ؟ قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة(٣٢) ، وفي الحديث الآخر « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح .. الحديث »(٣٣)

---

(٣٠) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب المشهور في قصة جبريل وسؤاله رسول الله ﷺ ١ /٣٧ .

(٣١) سورة الصافات ١٩٦ .

(٣٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت ٤ /٢٢٥ رقم ٤٧٠٠ ، ورواه الترمذي أيضا وقال حديث حسن صحيح غريب » انظر تحفة الأحوذي ٩ /٢٣٣ . وقد صححه الألباني انظر مشكاة المصابيح ١ /٣٤ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٤ .

(٣٣) متفق عليه . انظر ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣/٢٠٧ .

فهذه الحقائق لابد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة حوادث التاريخ ، لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية ، فمثلا انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك ، لو أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة ، رغم أن القوتين غير متكافئتين لا في عدد الجيش ولا نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته .

فعدد الروم ستة أضعاف عدد المسلمين ، وجيش الروم جيش نظامي مدرب وجيد التسليح ، بينما الجيش الإسلامي قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاتل بعيدا عن مركز خلافته ، ومع ذلك حصل له الانتصار .

فلو بحثنا في الأسباب المادية المنظورة لنا بحثا عقليا مجردا لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة ، مما يضطرنا إلى رد الأخبار الواردة بهذه المعلومات .

أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع وهي أن الأمر ليس أسباب مادية لابد أن تتبعها نتائجها ، إنما هناك قدر ومشيئة وخالق يدبر ، يؤت الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وأن الأسباب وحدها لا تؤدي إلى النتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه ، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ولا نستغربها .

فالمسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات ، بل يراه حركة متجددة ومتغيرة مما يدل على أن هناك إلهاً خالقا مدبرا عليما فوق الأسباب والمسببات ، فقد تكتمل الأسباب المادية في عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك لا تأتي النتائج .

وبهذا يتضح لنا أنه لكي يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحا ومستكملا لعناصره ، لابد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وأنها لا تعني ترك التكاليف الشرعية وترك الأخذ بالأسباب المقدورة والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة وبذل الجهد في تحصيلها ، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجا بالقدر لأنه لا حجة في ذلك ، فما يقع من الأقدار هو في حقيقته أمر غيبي بالنسبة لنا ، ولذلك قال العلماء « القدر سر الله في

خلقه »[٣٤] وقد نهي المسلمون عن الجدال في القدر[٣٥] . وورد في الحديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا »[٣٦] .

فالتكاسل وترك العمل ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر ، كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع للصلة بالمسبب والفاعل الحقيقي ، ولهذا قال الشيخ عبدالقادر الجيلاني[٣٧] : « إن كثيرا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا . إلا أنا فإني انفتحت لي فيه روزنة . فنازعت أقدار الحق بالحق للحق »[٣٨] ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في شرح هذه العبارة « والذي ذكره الشيخ هو الذي أمر الله به ورسوله ، ولكن كثيراً من الرجال غلطوا فيه ، فإنهم قد يشهدون ما يقدر على أحدهم من المعاصي والذنوب أو ما يقدر على الناس من ذلك بل من الكفر ، ويشهدون بأن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته ، فيظنون الاستسلام لذلك وموافقته والرضى به ونحو ذلك دينا وطريقا وعبادة ، فيضاهئون المشركين الذين قالوا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا ءاباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾[٣٩] ، وقالوا ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾[٤٠] ، وقالوا ﴿ لو

---

(٣٤) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨ /١٢٩ . ونسبه في شرح العقيدة الطحاوية إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ، انظر ص ٢٧٧ .

(٣٥) روى ابن ماجه في سننه أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم يختصمون في القدر . فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب فقال (بهذا أمرتم ؟ أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض بهذا هلكت الأمم قبلكم) قال في مجمع الزوائد . هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ١ /٣٣ وقال الألباني في تخريج مشكاة المصابيح إسناده حسن ١ /٣٦ .

(٣٦) أبو نعيم حلية الأولياء ٤ /١٠٨ وقد صححه الألباني ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ح رقم (٣٤) .

(٣٧) هو أبو عبدالله عبدالقادر الجيلاني نسبة إلى جيلان ، تفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وأخذ علم الطريقة الصوفية من حماد الداس بعد أن لبس الخرقة من أبي سعد المخرمي ، ثم تقدمت به الحال في الطريقة كما يقولون حتى نسبت له الطريقة القادرية وصار يلبس الخرقة لكبار المشائخ وله كرامات وأحوال كثيرة توفي ببغداد سنة ٥٦١ « ابن العماد الحنبلي شذرات الذهب ٤ /١٩٨ - ٢٠٢ » .

(٣٨) ابن تيمية ، العبودية ٥٢ - ٥٣ .

(٣٩) سورة الأنعام آية : ١٤٨ .

(٤٠) سورة يس آية : ٤٧ .

شاء الرحمٰن ما عبدناهم ﴾[٤١] ، ولو هدوا لعلموا أن القدر أمرنا أن نرضى به ، ونصبر على موجبه في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف .. أما الذنوب فليس للعبد أن يذنب وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب ، فيتوب من صنوف المعايب ويصبر على المصائب »[٤٢] ، وقال في موضع آخر (... فإن الله لم يأمرنا أن نرضى بما يقع من الكفر والفسوق والعصيان ، بل أمرنا أن نكره ذلك وندفعه بحسب الإمكان ، كما قال النبي ﷺ « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[٤٣] ، والله قد قال ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾[٤٤] ، وقال ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾[٤٥] ، فكيف يأمرنا أن نرضى لأنفسنا مالا يرضاه لنا »[٤٦] ، وبسبب الانحراف في مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين[٤٧] في أخطاء شنيعة في تقديرهم للدولة الأموية والحكم عليها ، حيث قالوا إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء، وقالت: إن أعمالها لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكرا للقدر ، إذ لو أراد الله غير ذلك لكان ، وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا القول دون أن يوردوا عليه

---

(٤١) سورة الزخرف آية : ٢٠ .

(٤٢) العبودية ص ٥٣ – ٥٥ .

(٤٣) الحديث رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري . انظر ١ /٦٩ .

(٤٤) سورة الزمر آية : ٧ .

(٤٥) البقرة آية : ٢٠٥ .

(٤٦) العبودية ص ١٧٨ .

(٤٧) قال أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام ٨١/٣ وبنو أمية كما يظهر كانوا يكرهون القول بحرية الإرادة لا دينيا فقط ولكن سياسيا كذلك ، لأن الجبر يخدم سياستهم ، فالنتيجة للجبر أن الله الذي يسير الأمور قد فرض على الناس بني أمية كما فرض كل شيئ ، ودولتهم بقضاء الله وقدره فيجب الخضوع للقضاء والقدر ، « وقال شاكر مصطفى في كتابه دولة بني العباس ٢٨/١ » إن خلافة بني أمية تقوم على مبدأين .. المبدأ الثاني : أن ما يتم على الأرض فإنما هو بإرادة الله ، لأن الإنسان مسير لا مخير وفلسفة الجبرية كانت تقوم في أساس الفكر الأموي ، ولو أراد الله غير ما هو كائن لفعل » ، وقال الدكتور عفت الشرقاوي في كتابه أدب التاريخ عند العرب في ٢٥٧ : وكان عوانه يهتم بالصراع السياسي والحربي بين الإمام علي وخصومه ، مع ميل إلى تأكيد فكرة الجبر في تفسير حوادث التاريخ ، وهي الفكرة التي كان يشجع على بثها بين علماء المسلمين حلفاء بني أمية تأكيدا لسلطانهم السياسي » .

دليلا ، وهذا يرينا مدى التشويه الذي يلحق تفسير حوادث التاريخ الإسلامي عندما توضع في منظور غير إسلامي وعندما تنحرف المفاهيم والتصورات ، وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه والحكم الذي حكموا به مبني على الجهل بمفهوم القضاء والقدر وتوهم أن بينه وبين التكاليف الشرعية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله معارضة ، وليس الأمر كذلك كما أوضحناه . كما أن الوقائع التاريخية تكذب هذا الادعاء ، فقد قتل كل من غيلان الدمشقي ومعبد الجهني اللذين أنكرا القدر في الدولة الأموية ، كما قتل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان إماما الجبرية بأمر من الخلفاء الأمويين .

٤ - الإيمان بالغيب :

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامي الإيمان بالغيب ، وهو أحد أركان الإيمان ، كما أنه من أخص صفات المؤمنين بالله ، قال تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٤٨) .

ودارس التاريخ الإسلامي إن لم يكن مؤمنا بالغيب وصحيح التصور في ذلك ، فإنه لا يستطيع أن يعطي تقييما علميا وواقعيا لأحداث التاريخ الإسلامي وحركته الجهادية ، لأن المجاهد المسلم عندما يقاتل في سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذي يقاتل الكفار ، وأنه لا يقاتلهم بكثرة عدد الجنود ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادي وحده ، إنما يقاتلهم بالإيمان الصادق الذي يحمله ، وبما يعلمه من تأييد الله للمجاهدين الصادقين بما ينزله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة ، وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل ، وغير ذلك من الوسائل المنظورة وغير المنظورة ، فأحيانا ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها من المعارك ، وأحيانا بما يجريه الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التي فرقت الأحزاب عن المدينة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا

---

(٤٨) سورة البقرة الآيات : ١ - ٣ .

عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾[٤٩] ، وقال ﷺ « نصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدبور »[٥٠] ، وأحيانا بما يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات ، كما جرى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة سارية بن زنيم[٥١] التي رواهاابن جرير الطبري في تاريخه[٥٢] ، وقال ابن كثير إنها رويت بإسناد جيد حسن ،[٥٣] وكما في كتابته البطاقة إلى نهر النيل[٥٤] عندما توقف فيضان الماء ، وكان له سنة عند القبط وهي تقديم جارية بكر « عروس النيل » تلقى فيه فيجري . ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو بن العاص إن هذا أمر لا يكون في الإسلام ، لأنه يهدم ما قبله وكتب بالخبر إلى عمر بن الخطاب فقال له عمر أصبت ، ثم كتب بطاقة وأمره أن يلقيها في النيل ، وقال في هذه البطاقة « من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد ، فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » فلما ألقاها عمرو فاض النيل ستة عشر ذراعا في ليلة واحدة ، وكما حدث لعقبة بن نافع الفهري الذي بنى مدينة القيروان ، روى ابن عبدالحكم صاحب كتاب فتوح

---

(٤٩) سورة الأحزاب آية : ٩ .

(٥٠) متفق عليه ، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢ /٥٢٠ ومسلم ٢ /٦١٧ حديث رقم ٩٠٠ .

(٥١) هو سارية بن زنيم بن عبدالله بن جابر الدئلي مختلف في صحبته ، ورجح ابن حجر أن له صحبة ، وكذا ابن عساكر ، وذكره ابن حبان في التابعين ، وقد ولاه عمر ناحية فارس وله شعر في الاعتذار إلى النبي ﷺ » ابن حجر ، الإصابة ٣ /٤ .

(٥٢) ذكر الطبري ٤ /١٧٨ في حوادث سنة ٢٣ عن فتح « فساو دارا بجرد » قال وكان عمر قد رأى المسلمين في المنام وأنهم بصحراء وأن العدو سيحيط بهم ، إن أقاموا بها فنادى في الناس الصلاة جامعة فأخبر الناس بما رأى ثم نادى « يا سارية الجبل الجبل » وقال إن لله جنودا ولعل بعضها أن يبلغهم فما كان من سارية إلا أن اجتمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل ففتح الله لهم وهزم عدوهم ، وذكر هذه القصة ابن حجر في الإصابة ٣ /٥ - ٧ وقال : أخرجها البيهقي في الدلائل واللالكائي في شرح السنة وابن الأعرابي وابن مردويه .

(٥٣) ابن كثير - البداية والنهاية ٧ /١٣١ .

(٥٤) انظر الخبر عن ذلك ونص الكتاب في ابن الجوزي - **مناقب عمر بن الخطاب** ص ١٧٣ ، وابن كثير البداية والنهاية ٧ /١٠٠ .

مصر والمغرب قال : « حدثنا عبدالملك بن مسلمة حدثنا الليث ابن سعد أن عقبة بن نافع غزا أفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه ، حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال : يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرات ، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة وهم قيام ينظرون إليها من حين أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس ، وحتىٰ لم يروا منها شيئا فنزلوا الوادي عند ذلك »(٥٥) .

وكما حدث من خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم وجمالهم وأرجلهم بقيادة العلاء بن الحضرمي ، وكأنهم يمشون على الرمل فلم يغرق لهم دابة ولا إنسان ، وقد سجل الشاعر عفيف بن المنذر(٥٦) هذا الحدث بقوله :

ألم تر أن الله ذلـل بحره
وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
دعونا الذي شق البحار فجاءنا
بأعجب من فلق البحار الأوائل(٥٧)

وأيضا حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد بن أبي وقاص نهر دجلة(٥٨) ، وهي ترمي بالزبد ومسودة من كثرة الماء

---

(٥٥) ابن عبدالحكم – فتوح مصر والمغرب ص ٢٦٥ وتاريخ خليفة بن خياط ص ٢١٠ وانظر أيضا البلاذري – فتوح البلدان ص ٢٦٩ القسم الأول والطبري ٥ /٢٤٠ . وقد قال ابن حجر في الإصابة ٥ /٦٤ إسناد خليفة حسن .

(٥٦) انظر ترجمة عفيف ابن المنذر في الإصابة ٥ /١٣٠ ط البجاوي وقد أورد ابن حجر هذين البيتين في ترجمته .

(٥٧) ابن جرير . تاريخ الرسل والملوك ٣ /٣١٠ – ٣١١ وابن كثير ، البداية والنهاية : ٦ /٣٢٩ . وقال ابن حجر في ترجمة العلاء من كتاب الإصابة ٤ /٥٤١ » وخاض البحر بكلمات قالهن وذلك مشهور في كتب الفتوح .

(٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٢٢ – ٣٢٣ القسم الثاني والطبري ٤ /١٠ – ١٤ ، وابن كثير في البداية والنهاية ٧ /٦٤ – ٦٦ وقال معلقا على ذلك : وكان يوما عظيما ، وأمرا هائلا ، وخطبا جليلا وخارقا باهرا ، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه ، لم ير مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع ، سوى قضية العلاء بن الحضرمي المتقدمة بل هذا أجل وأعظم ، فإن هذا الجيش كان أضعاف ذلك » .

وعمقه . ودخلوا النهر أفواجا حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم ، وخرجوا منه أفواجا لم يغرق منهم أحد .

وفي ذلك يقول أبو بجيد نافع بن الأسود :(٥٩)

وَأَسَلْنا على المدائن خيلا
بحرها مثل برهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى
يوم ولوا وحاص منا جريضا(٦٠)

فالذي لا يؤمن بالغيب وأن لله جنودا كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء ، فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث ولا فهمها الفهم الصحيح بل تراه إذا جاءه خبرٌ من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية أو يتعسف في تأويله ليخرجه عن دلالته المقصودة ، وذلك تهربا من إثبات المعجزات للأنبياء – عليهم السلام – والكرامات للمؤمنين الصالحين ، وهؤلاء أصحاب المدرسة العقلية(٦١) الذين أقاموا العقل في مقابلة النص الشرعي ، بل جعلوا العقل حاكما على النص فيؤولون النص ليوافق عقولهم ، وقد تلقف المستشرقون في العصر الحديث أفكار هذه المدرسة ونشروها وعظموا من شأنها ، لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات ، وقد جاراهم في هذا كثير من الكتاب المسلمين في ظل ظروف وتأثيرات معينة ، حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامي من أمثال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين وحسين هيكل ، فضلا عن الكتاب « الليبراليين » الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء بعثاتهم للدول الأوربية ، فلم يعد الإسلام في حسهم إلا مجرد تراث حضاري أو تعبد شخصي لا علاقة له بحياة الناس ولا علمهم ولا أنظمتهم ، ولذلك لم يراعوا الالتزام به

---

(٥٩) عن ترجمة نافع بن الأسود انظر الإصابة ٦ /٤٨٩ .

(٦٠) الطبري ٤ /١٠ . ومعنى حاص أي ولى وانهزم . وجريضا هو المشرف على الهلاك ، وفي الكامل لابن الأثير ١ /٣٥٨ « وخاض منها جريضا » بدل وحاص منا .

(٦١) عن إنكار المعتزلة وبعض الأشاعرة كرامات الأولياء انظر ، السفاريني لوامع الأنوار البهية ٢ /٣٩٤ .

في دراساتهم وأبحاثهم(٦٢) بل لقد أثار الكثير منهم شبهات وافتراءات لا أساس لها في الفكر الإسلامي الصحيح ، وهذه الطائفة « الليبراليون »(٦٣) كان لهم دور في إدارة وتوجيه التعليم في العالم الإسلامي ورسم خططه ومناهجه ، وقلدوا في ذلك المناهج والدراسات العلمانية في العالم الأوربي غربية وشرقية ، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر – مع الأسف – في التأليف عن التاريخ الإسلامي وصياغته بما يتناسب والأفكار العلمانية ، وقاموا بتفسير حوادث التاريخ الإسلامي تفسيرا يؤكد المذاهب المعاصرة من العلمانية والقومية والاشتراكية والماركسية ، حتى يوجدوا لها سندا تاريخيا . لذلك لا تخلوا مؤلفات مثل هؤلاء سواء عن السيرة النبوية أو صدر الإسلام ، أو حتى العصور الإسلامية المتأخرة من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية ، بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة جملة .. فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين ، فكيف يكون الحال بالدراسات التي أصدرها أعداء الإسلام من طوائف الكفر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامي ؟ إننا مهما افترضنا فيهم من توفر النزاهة العلمية – وهي غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه ، لما للعداء التاريخي العقيدي من أثر ، فإن هناك عنصرا مفقودا وهو توفر الإيمان بالغيب ، وهو عنصر بالغ الأهمية في تفسير التاريخ الإسلامي ، حيث إن فقدانه يصيب الدراسة بكثير من التشويه والانحراف مهما توفر لتلك الدراسة من الموضوعية والجدية ، لافتقادها عنصرا مهما وركنا ركينا ذا أثر بالغ في إعطاء الصورة الصحيحة عن الواقعية التاريخية وهو الإيمان بالغيب(٦٤) ، فالمسلم

---

(٦٢) خذ أي كتاب من هذا النوع من الدراسات تجد أن مؤلفه إذا كان متقيدا بالمنهجية في كتابة البحث يخرج النصوص التاريخية ويحيلك إلى مواضعها ، أما النصوص الشرعية فإنه إذا احتاج لذكر شيء منها فإنما يورده بالمعنى ولا يتكلف في تخريجه أو الدلالة على موضعه من كتب الأصول ، وقد يكون الحديث صحيحا ومع ذلك يورده بصيغة التمريض والتضعيف ، مثل : قيل وروي ، وقد يكون ضعيفا أو لا أصل له ويورده بصيغة الجزم ، وهذا دلالة على الجهل بالدراسات الشرعية ، وعدم الاعتداد والاعتزاز بها .

(٦٣) الليبرالي هو المتحرر من الأديان والمعتقدات ولا يلتزم بمفاهيمها .

(٦٤) الإيمان بالغيبيات مما ينكره المستشرقون ومن تبعهم من أبناء المسلمين ، وتجد أنهم ينبذون المسلمين بذلك وينتقصونهم به فيما يكتبونه من دراسات عنهم وعن تاريخهم ، ويجعلون إيمان المسلمين بالغيب واعتباره في حوادث التاريخ من جنس التفسير اللاهوتي (التفسير الديني) لحركة التاريخ عند أصحاب

يؤمن بالجنة ، ويؤمن بالنار ، ويؤمن بعذاب القبر ، ويؤمن بالبعث بعد الموت وبالحشر بين يدي الله للحساب ، ويؤمن بالملائكة وبالجن ، وأن من الجن مؤمن وكافر ، وأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وأنه لا ملجأ منه إلا بالاستعانة بالله ، وكل هذه الأمور مغيبة عنا ، والإيمان بها له أثر كبير على تصرفات الإنسان في هذه الأرض ، ومن هذه التصرفات تتشكل الوقائع والأحداث التاريخية .

٥ - معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى :

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة ، تعرف لذوي القدر منزلتهم ، ولذوي الفضل فضلهم ، فتعطي كلاً حقه بالقسط والعدل ، وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر ، التي كلما جاءت أمة لعنت أختها ، وكلما جاء جيل إما أن يجعل المسئولية على الجيل السابق ، ويتابعه على غير هدى ولا بصيرة ، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا أو لو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾(٦٥) ، وقال تعالى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثارهم مهتدون ﴾(٦٦) ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على ءاثارهم مقتدون ﴾(٦٧) .

أو يحط من قدر الجيل السابق ، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادي لم يحصل لذلك الجيل ، والموقف في كلا الأمرين ظلم للجيل السابق ،

= المدرسة اللاهوتية النصرانية ، وعندهم أن الإيمان بالغيب هو الإيمان بالخرافات والشعوذات السائدة في أوربا ، والتي انتشر شيء منها لدى طوائف من المسلمين في العصور المتأخرة ، مما يسمونه كرامات السادة والشيوخ وأصحاب القبور ، فلم يستطيعوا أن يفرقوا بين الإيمان الصحيح بالغيب ، الإيمان الإيجابي الفعال الذي يدفع إلى العمل والحركة وبين الإيمان المنحرف السلبي ، الذي يدعو إلى التكاسل وانتظار الكرامات والمعجزات والاستسلام للعدو وعدم دفع كيده ، وللفرق بين الكرامة وما يدعيه بعض أهل الطرق والشعوذة ، انظر ابن تيمية الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ١٧٩ - ١٨٩ .

(٦٥) سورة البقرة آية : ١٧٠ .

(٦٦) سورة الزخرف آية : ٢٢ .

(٦٧) سورة الزخرف آية : ٢٣ .

وإن بدا في الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم ، لأنه تقدير في غير محله ، وعلى غير مستند من الحق والعدل .

أما هذه الأمة الإسلامية التي شرفت بحمل رسالة الله تعالى ، وببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين - ﷺ - فإن الله قد رسم لها منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[68] .

ولذلك لابد من معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولى في تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية ، دون غلو أو تفريط ، فإن الذي أعطاهم هذا التميز والمنزلة النصوص الشرعية ، إذ ليس الأمر اجتهادا منا أو افتراء على الحق ، فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض - دون مستند من الشرع - حكما شرعيا لقول رسول الله ﷺ « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »[69] أي مردود عليه ، وسنتناول بالبحث في هذه القاعدة ثلاث نقاط هي :

١ - تميز أهل القرون الأولى وأفضليتهم .
٢ - الحق الخاص لأصحاب رسول الله ﷺ .
٢ - الموقف من الأخبار المروية في قدح بعضهم وفيما وقع بينهم من الخلاف .

---

(٦٨) سورة الحشر آية : ١٠ .
(٦٩) رواه مسلم رقم ١٧١٨ .

« تميز أهل القرون الأولى وأفضليتهم »

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – أنه قال : حدثنا أبو سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ يأتي على الناس زمان فيغزو فئام(٧٠) من الناس فيقولون : فيكم من صاحب رسول الله ﷺ فيقول لهم : نعم فيفتح لهم ، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : فيكم من صاحب أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون : نعم فيفتح لهم ، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال : هل فيكم من صاحب من صاحب رسول الله ﷺ فيقولون نعم فيفتح لهم(٧١) .

وفي رواية عند مسلم : أنه ذكر طبقة رابعة .

قال ابن حجر : وهذه الرواية شاذة ، وأكثر الروايات مقتصر على الثلاث(٧٢) .

وأخرج البخاري ومسلم أيضاً من حديث عمران بن حصين – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(٧٣) .. الحديث . فهذان النصان من رسول الله ﷺ قد دلا على تميز الطبقات الثلاث الأولى ، أو القرون الثلاثة الأولى من هذه الأمة ، وأفضليتهم على ما سواهم من بقية الأمة ، وذلك لخصائص وأعمال كانت فيهم ، من قوة

---

(٧٠) فئام . بكسر الفاء أي جماعة . انظر الفتح ٧ /٥ .
(٧١) محمد فؤاد عبدالباقي ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣ /١٨٠ .
(٧٢) انظر فتح الباري ٧ /٥ .
(٧٣) محمد فؤاد عبدالباقي . اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣ /١٨١ .

الإيمان ، ونصرة الدين ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، والمحافظة على الشريعة وتبليغها للناس .

وترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الذكر ، فالصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين ، وأتباع التابعين أفضل ممن بعدهم ، لما ورد في تتمة حديث عمران بن حصين « ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يفون ، ويظهر فيهم السمن »(٧٤) ، ولما رواه البخاري من حديث أنس بن مالك – رضي الله عنه – « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ »(٧٥) .

والذي يظهر والله أعلم أن المراد بالأفضلية في هذه الأحاديث ، هو أفضلية المجموع بالنسبة إلى المجموع ، وليست أفضلية الأفراد . وهذا هو الذي رجحه ابن حجر في الفتح(٧٨) وقال : إنه قول الجمهور غير أن فضيلة صحبة رسول الله ﷺ ومشاهدته لا يعدلها عمل ، فلا يكون أحد ممن بعد الصحابة مساويا في الفضل لأحد منهم ، لاختصاصهم بمشاهدة رسول الله ، والسبق إليه بالهجرة والنصرة ، وضبط الشرع المتلقي عنه ، وتبليغه لمن بعدهم ، وبذلك يظهر فضلهم .

والمراد بالقرن هم أهل زمان واحد متقارب، اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة مثل زمن نبي ، أو رئيس يجمعهم على ملة أو مذهب أو عمل »(٧٧) .

واختلف أهل اللغة في تحديده على أقوال كثيرة من عشرة أعوام إلى مائة وعشرين والمراد بقرن النبي ﷺ – هم الصحابة .

---

(٧٤) نفس المصدر .
(٧٥) انظر فتح الباري ١٣ /٢٠ .
(٧٦) انظر فتح الباري ٧ /٧ .
(٧٧) انظر فتح الباري ٧ /٥ .

قال ابن حجر في تحديد القرون الثلاثة المذكورة في الحديث :

« قد ظهر أن الذي بين البعثة وآخر من مات من الصحابة مائة سنة وعشرون سنة أو دونها ، أو فوقها بقليل على الاختلاف في وفاة أبي الطفيل[٧٨] ، وإن اعتبر ذلك بعد وفاته - ﷺ - فيكون مائة سنة ، أو تسعين أو سبعا وتسعين .

أما قرن التابعين فإن اعتبر من سنة مائة كان نحوا من سبعين أو ثمانين .

أما الذين بعدهم « أي أتباع التابعين » فإن اعتبر منها كان نحوا من خمسين . فظهر بذلك أن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمان .. واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين ، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهورا فاشيا ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت رؤوسها ، وامتحن أهل العلم ليقولوا بخلق القرآن ، وتغيرت الأحوال تغيرا شديدا ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن »[٧٩] .

ويظهر من التحديد الذي قاله ابن حجر رحمه الله أنهم لا يعنون بالقرن الوحدة الزمنية المعروفة ، وإنما فسروا لفظة القرن الواردة في الحديث النبوي بالجيل ، وهذا التحديد الزمني لنهاية القرون الثلاثة المفضلة الذي نقل ابن حجر اتفاق العلماء عليه هو الذي اتبعه أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات ، فإنه جعل أمثال الإمام أحمد بن حنبل ت (٢٤٠ هـ) والبخاري (ت ٢٥٦ هـ) ومسلم (ت ٢٦١ هـ) في الطبقة الرابعة من طبقات الأمة الإسلامية ، أي من أتباع أتباع التابعين ، وجعل شيوخهم من أمثال الإمام الشافعي (ت

---

(٧٨) أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي رأى النبي ﷺ وهو شاب ، وحفظ عنه أحاديث . روى عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وحذيفة وابن مسعود وابن عباس وغيرهم . قال الإمام مسلم مات سنة مائة وهو آخر من مات من الصحابة ، وقال ابن البرقي مات سنة اثنتين ومائة ، وقيل مات سنة سبع ومائة ، وقال وهب بن جرير بن حازم كنت بمكة سنة عشر ومائة فرأيت جنازة فسألت عنها فقيل لي أبو الطفيل . انظر الإصابة ٧/٢٢٠ وقد ذكره ابن سعد في عداد الصحابة الذين نزلوا مكة ولم يذكر سنة وفاته . انظر الطبقات الكبرى ٥ /٤٥٧ .

(٧٩) ابن حجر فتح الباري ٧ /٦

٢٠٤ هـ) وعبدالرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، وأبو نعيم الفضل[٨٢] بن دكين (ت ٢١٩ هـ) ، وعبدالله بن مسلمة القعنبي[٨١] (ت ٢٢١ هـ) في الطبقة الثالثة أي من أتباع التابعين .

وهذا التحديد الزمني لنهاية القرون الثلاثة ، يطابق الواقع التاريخي من حيث السمات العامة ، والصفات الواردة ، في الأحاديث النبوية ، فإنه بانتهاء العصر العباسي الأول (١٣٢ هـ – ٢٣٢ هـ) بدأ الوهن في الخلافة ، وظهرت الدويلات المتغلبة ، وتوقف المد الإسلامي المعتمد على الفتوح والجهاد في سبيل الله ، ولم يعد أمر الجهاد أكثر من مرابطة في بعض الثغور ، فلم يعد الشغل الشاغل للدولة والأمة على مختلف طبقاتها كما كان في العصور الأولى ، بل أخلدوا إلى الأرض ، واشتغلوا بحطام الدنيا ، وبأنواع شتى من العلوم والمعارف ، كان بعضها وبالا عليهم ، وسببا لفرقتهم واختلافهم ، مما أضعف وحدتهم ، واعتصامهم بشريعتهم ، التي هي سبب عزهم وعنوان مجدهم ، ولا يعترض على هذا بوجود مجموعة كبيرة من الأئمة العلماء الذين يقتدى بهم ، وما حصل من الازدهار العلمي ، وتدوين العلوم والمعارف ، لما تقرر من أن الأفضلية هي أفضلية المجموع إلى المجموع ، ولما ورد في الأحاديث الصحيحة من أن الخير باق في هذه الأمة إلى قيام الساعة ، وأنه لا تزال طائفة من الأمة على الحق قائمة بأمر الله منصورة إلى قيام الساعة لا يضرها من خالفها[٨٢] ، وأن الله يبعث على رأس كل قرن في هذه الأمة من يجدد لها دينها[٨٣] .

---

(٨٠) هو أبو نعيم الفضل ابن دكين واسم دكين عمرو بن حماد الحافظ الثبت سمع الأعمش وشعبه وعنه أحمد ويحيى بن معين والبخاري والذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ /٣٧٢ .

(٨١) هو عبدالله بن مسلمة بن قعنب / شيخ الإسلام الحافظ الثقة الثبت ، ولد بعد الثلاثين ومائة . « الذهبي ، تذكرة الحفاظ ١ /٣٨٣ » .

(٨٢) أخرجه الإمام مسلم من حديث ثوبان – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » انظر صحيح مسلم ١٥٢٣/٣ ، كتاب الإمارة برقم ١٩٢٠ ، وأخرجه أيضاً من حديث معاوية بن سفيان رضي الله عنه – بلفظ « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، ولاتزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة ٣ /١٥٢٤ .

(٨٣) رواه أبو داود في الملاحم باب ما يذكر في قرن المائة ١٠٩/٤ والحاكم في المستدرك : ٥٢٢/٤ . =

والأمة الإسلامية هي أمة جهاد ، وأمة دعوة ، فهذه هي وظيفتها الأولى ، فإذا تخلت عن شيء من هذه الوظيفة نقصت قيمتها بقدر ذلك ، فالتميز والأفضلية للأمة هو بسبب القيام الكامل بالوظيفة الأساسية وهي الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى شريعته . ولما كانت الأجيال الثلاثة الأولى من هذه الأمة محققة لأكبر قدر من هذه الوظيفة ، استحقت هذه الخيرية والأفضلية ، فكانت بذلك القدوة والأسوة الحسنة لمن يأتي بعدها .

ومن أجل ذلك يجب علينا إبراز تاريخ هذه الأجيال من السلف الصالح ، والتركيز على المجهود الذي قاموا به في تحملهم أمانة الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ، وأن نعرف لهم قدرهم وفضلهم ، ونحبب شبابنا في التأسي بهم ، والاعتزاز بالانتساب إليهم ليرتبط حاضر الأمة بماضيها العريق ، ذي التاريخ المشرق من الجهاد ، والدعوة ، ونشر العلم ، وقيادة البشرية قيادة راشدة إلى مراقي الفلاح .

= وانظر صحيح الجامع الصغير ٢/١٤٣ رقم ١٨٧٠ ، وانظر الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ٥٩٩ ج ٢/ ١٥٠ .

« معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ .. وعدالتهم »

لقد دلت النصوص المتواترة على وجوب حب أصحاب[٨٤] رسول الله ﷺ وتعظيمهم وتوقيرهم وتكريمهم ، والاحتجاج بإجماعهم ، والاستنان بآثارهم ، وحرمة سب أحد منهم ، لما شرفهم الله به من صحبة رسول الله ، والجهاد معه ، والصبر على أذى المشركين ، والهجرة عن أوطانهم وأموالهم وأولادهم ، وتقديم حب الله ورسوله على ذلك كله .

ويجب على المسلم الاعتقاد بما نطق به القرآن الكريم من أنهم خير أمة أخرجت للناس قال تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[٨٥] ، وقال رسول الله ﷺ بعثت في خير القرون »[٨٦] . وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[٨٧] . ومعنى « وسطا » أي عدولا[٨٨] .

---

(٨٤) قال ابن حجر : أصح ما وقفت عليه في تعريف الصحابي « أنه من لقى النبي ﷺ مؤمنا به ومات على الإسلام ، فيدخل فيه من طالت مجالسته له أو قصرت ، ومن روى عنه ، أو لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رآه رؤية بصر ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى (الإصابة ١ /٦) .

(٨٥) آل عمران آية : ١١٠ .

(٨٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ /٥٦٦ .

(٨٧) البقرة آية : ١٤٣ .

(٨٨) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري باب « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » من كتاب التفسير ٨ /١٧١ .

وقال تعالى في وصفهم - رضي الله عنهم - ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾(٨٩) .

وقال تعالى في مدحهم وذكر ما أعده لهم ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾(٩٠) .

وقد أوصى النبي ﷺ الأمة بأصحابه ، وأبان فضلهم ومنزلتهم كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية(٩١) فقال : « قام فينا رسول الله ﷺ ، مقامي فيكم فقال استوصوا بأصحابي خيرا ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »(٩٢) . وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : النجوم أمنة للسماء ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي ، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » رواه مسلم وأحمد(٩٣) .

---

(٨٩) سورة الفتح آية : ٢٩ . وقد انتزع الإمام مالك - رحمه الله - من هذه الآية - في رواية عنه - القول بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة . قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية (انظر تفسير ابن كثير ٧/٣٤٣) .

(٩٠) سورة التوبة آية : ١٠٠ .

(٩١) الجابية « قرية من قرى الشام تقع إلى جنوب دمشق بالقرب من نوى التي ينسب إليها الإمام النووي ، وإلى هذه القرية ينسب باب الجابية أحد أبواب دمشق (الساعاتي : الفتح الرباني ١٢ /١٦٨ » .

(٩٢) المسند بترتيب الساعاتي ٢٢ /١٦٨ .

(٩٣) مسلم بشرح النووي ١٦ /٨٣ والفتح الرباني بترتيب مسند أحمد ٢٢ /١٦٨ قال النووي في شرحه « الأمنة بفتح الهمزة والميم ، والأمن والأمان بمعنى . ومعنى الحديث أن النجوم مادامت باقية فالسماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة وهنت السماء فانفطرت وانشقت . وقوله : =

وفي تحريم سبهم قال ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »(٩٤) .

وروى الإمام أحمد ومسلم أن سبب هذا الحديث هو ما وقع من خلاف بين خالد بن الوليد ، وبين عبدالرحمن بن عوف ، فسبه خالد ، فلما بلغ ذلك لرسول الله ﷺ قال : لا تسبوا أصحابي .. الحديث(٩٥) .

فإذا كان هذا التفضيل في الإنفاق ، وهذا الزجر عن سب الصحابة رضوان الله عليهم – موجه إلى من تأخر إسلامه عمن تقدم فكيف بمن بعدهم ؟! إن ثواب التصدق بالمد من أحدهم يفضل ثواب التصدق بوزن جبل أحد ذهبا . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال القاضي عياض – رحمه الله تعالى –: « وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة ، وضيق الحال بخلاف غيرهم ، ولأن إنفاقهم كان في نصرته – ﷺ – وحمايته وذلك معدوم بعده ، وكذا جهادهم ، وقد قال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الدين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾(٩٦) .

وهذا كله مع ما كان في أنفسهم من الشفقة والتودد والخشوع والتواضع والإيثار والجهاد في الله حق جهاده ، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل ولا تنال درجتها بشيء ، والفضائل لا تؤخذ بالقياس »(٩٧) .

= وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون أي من الفتن والحروب واختلاف القلوب ، وارتداد من ارتد من العرب ، وغير ذلك مما أنذر به صريحا فوقع : وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون » معناه ظهور البدع والحوادث في الدين ، والفتن ، وطلوع قرن الشيطان ، وانتهاك المدينة ومكة .

(٩٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ /٩٢ .

(٩٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦ /٩٢ والفتح الرباني بترتيب المسند ٢٢ /١٦٨ .

(٩٦) سورة الحديد آية : ١٠ .

(٩٧) النووي بشرح مسلم ١٦ /٩٣ .

لقد تبين من النصوص التي ذكرناها من الكتاب والسنة حق أصحاب رسول الله ﷺ على الأمة الإسلامية ، وفضلهم وأنه يجب رعاية هذا الحق ، وأنه من الواجبات الشرعية التي يعزر من يخالفه .

قال الإمام النووي « واعلم أن سب الصحابة – رضي الله عنهم – حرام من فواحش المحرمات سواء من لابس الفتن منهم وغيره »(٩٨) .

وقال القاضي عياض : « وسب أحدهم من المعاصي الكبائر ، ومذهبنا ومذهب الجمهور أن من فعل ذلك يعزر »(٩٩) .

وقال بعض المالكية يقتل(١٠٠) .

وقال الإمام أحمد : « أنه يجب على السلطان تأديبه وعقوبته ، وليس له أن يعفو عنه ، بل يعاقبه ويستتيبه »(١٠١) .

وصحابة رسول الله ﷺ كلهم عدول بتعديل الله لهم ، وثنائه عليهم وثناء رسول الله ﷺ عليهم ..

قال الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية « باب ما جاء في تعديل الله ورسوله للصحابة وأنه لا يحتاج إلى سؤال عنهم ، وإنما يجب فيمن دونهم ، قال : كل حديث اتصل إسناده بين من رواه ، وبين النبي ﷺ لم يلزم العمل به إلا بعد ثبوت عدالة رجاله ، ويجب النظر في أحوالهم سوى الصحابي الذي رفعه إلى رسول الله ﷺ لأن عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم ، وإخباره عن طهارتهم واختياره لهم في نص القرآن »(١٠٢) .

ثم ساق جملة من الآيات الدالة على ذلك ، وقد سبق لنا ذكر بعضها ، وكذلك جملة من الأحاديث إلى أن قال : « والأخبار في هذا المعنى تتسع

---

(٩٨) النووي بشرح مسلم ١٩ /٩٣ .

(٩٩) النووي بشرح مسلم ١٦ /٩٣ .

(١٠٠) المصدر السابق .

(١٠١) رسالة السنة ص ٧٨ .

(١٠٢) الكفاية في علم الرواية ص ٩٣ .

وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن ، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم ، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له »(١٠٣) .

ثم قال : على أنه لو لم يرد من الله – عز وجل – ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة ، والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد ، والمناصحة في الدين ، وقوة الإيمان ، واليقين ، القطع على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم ، وأنهم أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين »(١٠٤) ، ثم حكى الإجماع على ذلك بقوله « هذا مذهب كافة العلماء ، ومن يعتد بقوله من الفقهاء »(١٠٤) وقال الإمام الذهبي « كما تقرر الكفّ عن كثير مما شجر بين الصحابة ، وقتالهم – رضي الله عنهم أجمعين ، ومازال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف ، وبعضه كذب ، وهذا فيما بأيدينا ، وبين علمائنا ، فينبغي طيه وإخفاؤه ، بل إعدامه لتصفو القلوب ، وتتوفر على حب الصحابة ، والترضي عنهم وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء ، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري من الهوى ، بشرط أن يستغفر لهم ، كما علمنا الله تعالى حيث يقول ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءامنوا ﴾(١٠٥) فالقوم لهم سوابق ، وأعمال مكفرة لما وقع بينهم ، وجهاد محاء ، وعبادة ممحصة ، ولسنا ممن يغلو في أحد منهم ، ولا ندعي فيهم العصمة ، نقطع أن بعضهم أفضل من بعض ، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة ، ثم تتمة العشرة المشهود لهم بالجنة ، وحمزة وجعفر ومعاذ وزيد وأمهات المؤمنين ، وبنات نبينا ﷺ ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب ، ثم الأفضل بعدهم ، مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي وابن عمر وسائر أهل بيعة

---

(١٠٣) الكفاية في علم الرواية ص ٩٦ .
(١٠٤) الكفاية في علم الرواية ص ٩٦ .
(١٠٥) سورة الحشر آية ١٠ .

الرضوان الذين رضى الله عنهم بنص آية سورة الفتح ، ثم عموم المهاجرين والأنصار كخالد بن الوليد والعباس وعبدالله بن عمرو وهذه الحلبة ، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه ، أو حج معه ، أو سمع منه ، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانىء الهاشمية وسائر الصحابيات ، فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك ، فلا نعرج عليه ، ولا كرامة له ، فأكثره باطل وكذب وافتراء فدأب الروافض رواية الأباطيل ، أورد ما في الصحاح والمسانيد ، ومتى إفاقة من به سكران »[١٠٦] .

وقال ابن حجر « اتفق أهل السنة على أن الجميع عدول ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة »[١٠٧] .

والعدالة المرادة هنا ليس المقصود بها عدم الوقوع في الذنوب والخطايا ، فإن هذا لا يكون إلا لمعصوم ، وإنما نعني تجنب تعمد الكذب في الرواية وغيرها ، ولهذا قال ابن الأنباري : المراد من عدالة الصحابة قبول روايتهم من غير تكلف البحث عن أسباب العدالة ، وطلب التزكية »[١٠٨] .

وقال الشيخ الدهلوي « وبالتتبع وجدنا أن جميع الصحابة يعتقدون أن الكذب على رسول الله أشد الذنوب ، ويحترزون عنه غاية الاحتراز »[١٠٩] .

وهذا الذي ذكره العلماء في عدالة الصحابة ، وحرمة ثلبهم بما يشينهم هو مذهب أهل العدل والحق من أهل السنة ، وعلماء الأثر ، ولا عبرة بخلاف من خالف في ذلك من الطوائف المخذولة من أهل البدع والأهواء مثل الرافضة والشيعة والمعتزلة والزنادقة وغيرهم ، ولا من تابعهم في العصور الحديثة من طوائف الكفار « المستشرقين » الذين اعتنوا بالدراسات الإسلامية ، والبحث

---

(١٠٦) الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٠ /٩٢ ، ٩٣ .
(١٠٧) ابن حجر . الإصابة ١/ ١٠ .
(١٠٨) السيوطي : تدريب الراوي ٢ /٢١٥ « في الحاشية » .
(١٠٩) السيوطي : تدريب الراوي ٢ /٢١٥ .

فيها ، ومن قلدهم من أبناء المسلمين الواقعين في حرمات الله باسم حرية البحث العلمي القائلين بأن كل إنسان له أن يقول ما شاء ، حتى ولو كان في ذلك اعتداء على حرمات المؤمنين ، وتكذيب للقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين ، تحت ستار حرية الرأي والبحث ، وهذا الاتجاه مرفوض في مقياس العلماء المسلمين ، حيث أن للعلم قواعد وأصول وضوابط شرعية يلتزم بها المؤمن ، ويكون بحثه واجتهاده في نطاقها ، والحرية التي تلقاها « العلمانيون » « والتطوريون » عن الغرب ، وطبقوها بمفاهيمها الغربية ليست من سنن المؤمنين ولا سبيل المسلمين ، لذا جاءت نتائج أبحاثهم ودراساتهم مناقضة للقواعد الشرعية والأحكام الإسلامية .

روى الخطيب البغدادي بسنده إلى أبي زرعة الرازي[١١٠] قال : إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق والقرآن حق وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى وهم زنادقة »[١١١] .

---

(١١٠) تقدمت ترجمته في الفصل الثالث من هذا الباب ص ٩٥ .
(١١١) الكفاية في علم الرواية ص ٩٧ .

« موقف المسلم مما روى من الأخبار في قدح بعض الصحابة »

مذهب أهل السنة والجماعة في أصحاب رسول الله ﷺ وسط عدل بين طرفي الإفراط والتفريط ، وسط بين الغلاة الذين يرفعون من يعظمونه منهم إلى مالا يليق إلا بالله – سبحانه وتعالى ، أو برسله – عليهم السلام ، وبين الجفاة الذين ينتقصونهم ويسبونهم ولا يعرفون لهم قدرهم ، فأهل السنة وسط بين هؤلاء وأولئك يحبون أصحاب رسول الله ﷺ جميعا ، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالإنصاف والعدل ، فيعرفون للخلفاء الراشدين المهديين قدرهم ومنزلتهم ، ولبقية العشرة المبشرين بالجنة ، ولأهل بدر ولأهل بيعة الرضوان ، ولأهل بيعة العقبة ، ولمن أنفق قبل الفتح وقاتل ، ولمن أنفق من بعد وقاتل ، وأن الله وعد الكل بالحسنى وهي الجنة كما قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولٰئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾(١١٢) فلا يرفعونهم إلى مالا يستحقون ، ولا يقصرون بهم عما يليق بهم ، فألسنتهم رطبة بذكرهم الجميل اللائق بهم ، وقلوبهم عامرة بحبهم ، وما صح فيما جرى بينهم من خلاف فهم فيه مجتهدون ، إما مصيبون فلهم أجر الاجتهاد وأجر الإصابة ، وإما مخطئون فلهم أجر الاجتهاد ، وخطأهم مغفور ، وهم ليسوا معصومين بل هم بشر يصيبون ويخطئون ، ولكن ما أكثر صوابهم بالنسبة لصواب غيرهم ، وما أقل خطأهم إذا نسب إلى خطأ غيرهم ، وقد وعدوا من الله بالمغفرة والرضوان .

---

(١١٢) سورة الأنبياء آية ١٠١ و١٠٢ .

وكتب أهل السنة مملوءة ببيان هذه العقيدة الصافية النقية في حق هؤلاء الصفوة المختارة لصحبة خير البشر ﷺ .

قال إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – « ومن الحجة الواضحة البينة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين والكف عن ذكر مساوئهم والخلاف الذي شجر بينهم ، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحدا منهم أو تنقصه أو طعن عليهم أو عَرَّض بعيبهم أو عاب أحدا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث مخالف ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ، بل حبهم سنة ، والدعاء لهم قربة ، والاقتداء بهم وسيلة ، والأخذ بآثارهم فضيلة ، وأصحاب رسول الله هم خير الناس لا يجوز لأحد أن يذكر شيئا من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا نقص »(١١٣) .

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي(١١٤) في عقيدة أهل السنة والجماعة « ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نفرط في حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم ، ولا نذكرهم إلا بخير ، وحبهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان »(١١٥) .

وقال ابن أبي زيد القيرواني(١١٦) المالكي في مقدمة رسالته المشهورة « وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي – رضي الله عنهم أجمعين ،

---

(١١٣) رسالة السنة للإمام أحمد ص ٧٨ .

(١١٤) هو الإمام العلامة الحافظ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المصري الطحاوي ، ولد سنة ٢٣٧ هـ ورحل إلى الشام لطلب العلم ، وانتهت إليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر ، وصنف الكثير من التصانيف مثل كتاب معاني الآثار ، وله رسالة في العقيدة اعتنى بها العلماء وأثنوا عليها . مات سنة ٣٢١ هـ (انظر الذهبي ، تذكرة الحفاظ ٣ /٨٠٨) .

(١١٥) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٢٨ .

(١١٦) هو عبدالله بن أبي زيد عبدالرحمن أبو محمد الفقيه القيرواني شيخ المالكية بالمغرب ، جمع مذهب الإمام مالك حتى قيل عنه مالك الأصغر ، وكان واسع العلم كثير الحفظ ذا صلاح وعفة وعقيدة صحيحة توفى سنة ٣٨٦ هـ ، وقيل ٣٨٩ « انظر النجوم الزاهرة ٤ /٢٠٠ ، ومقدمة كتاب الجامع له من ١٥ – ٧٦ » .

وأن لا يذكر أحد من صحابة رسول الله ﷺ إلا بأحسن ذكر ، والإمساك عما شجر بينهم ، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب »(١١٧) .

وقال الإمام أبو عثمان الصابوني(١١٨) في كتاب عقيدة السلف وأصحاب الحديث « ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبا لهم ونقصا فيهم ، ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم »(١١٩) .

وقال شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية في كتاب العقيدة الواسطية التي شرح فيها عقيدة أهل السنة « ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله ﷺ كما وصفهم الله به في قوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين ءامنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾(١٢٠) وطاعة للنبي ﷺ في قوله « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »(١٢١) ، ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم(١٢٢) ، وبعد أن ذكر – رحمه الله – مراتبهم وطبقاتهم قال عن أهل السنة « ويتبرءون من طريقة الروافض(١٢٣) الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم » ، وطريقة النواصب الذين

---

(١١٧) مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني ص ٨ « طبع جامعة الإمام ١٣٩٦ هـ » .

(١١٨) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد أبو عثمان الصابوني الحافظ النيسابوري ، عالم مفسر محدث ، كان يلقب في نيسابور بشيخ الإسلام ، له رسالة في عقيدة أهل الحديث توفى سنة ٤٤٩ « ابن بدران – تهذيب تاريخ دمشق ٣ /٣٠ وما بعدها » .

(١١٩) انظر مجموعة الرسائل المنيرية ١ /١٢٩ .

(١٢٠) سورة الحشر آية : ١٠ .

(١٢١) متفق عليه وسبق تخريجه .

(١٢٢) العقيدة الواسطية بشرح الهراس ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(١٢٣) الروافض قوم اتخذوا حب علي وأهل بيته والغلو في ذلك شعارا لهم ، مع بغضهم مَن عداه من كبار الصحابة وسبهم ، بل وتكفيرهم ، وأول من سماهم بذلك هو زيد بن علي – رحمه الله – لما طلبوا منه أن =

يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ، ويمسكون « أي أهل السنة والجماعة » عما شجر بين الصحابة ويقولون : إن هذه الآثار المروية في مساوئهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيه ونقص وَغُيِّرَ عن وجهه ، والصحيح منه هم فيه معذورون ، إما مجتهدون مصيبون ، وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وصغائره ، بل يجوز عليهم الذنوب في الجملة ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما يصدر منهم إن صدر ، حتى إنهم يغفر لهم من السيئات مالا يغفر لمن بعدهم ، لأن لهم من الحسنات التي تمحو السيئات ما ليس لمن بعدهم . وقد ثبت بقول رسول الله ﷺ أنهم خير القرون ، وأن المد من أحدهم إذا تصدق به كان أفضل من جبل أحد ذهبا ممن بعدهم ، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون إما قد تاب منه ، أو أتى بحسنات تمحوه ، أو غفر له بسابقته أو بشفاعة محمد ﷺ الذي هم أحق الناس بشفاعته أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا في الذنوب المحققة ، فكيف الأمور التي هم فيها مجتهدون إن أصابوا فلهم أجران ، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد ، والخطأ مغفور ، ثم إن القدر الذي ينكر من فعل بعضهم قليل نزر مغفور في جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيله والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح ، ومن نظر في سيرة القوم بعلم وبصيرة وما من الله به عليهم من الفضائل علم يقينا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم الصفوة من قرون هذه الأمة التي هي خير الأمم وأكرمها على الله »(١٢٤) ، وقال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى « واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم ، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد ، وقد عفا

= يتبرأ من إمامة الشيخين أبي بكر وعمر حتى يبايعوه بالإمامة فأبى ذلك فتفرقوا عنه ، فقال رفضتموني ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة ، وهي فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك « انظر المصدر السابق ص ١٦٥ » .

(١٢٤) انظر المصدر السابق ص ١٦٤ – ١٦٧ .

الله تعالى عن المخطىء في الاجتهاد ، بل ثبت أنه يؤجر أجرا واحدا ، وأن المصيب يؤجر أجرين »[125] .

فهذه جملة صالحة من كلام أكابر علماء السلف يتبين منها الموقف الواجب على المسلم أن يقفه من الآثار المروية في قدح بعض الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين ، بسبب ما وقع بين بعضهم من شجار وخلاف ومقاتلة ، خاصة في حرب الجمل بين الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومن معه ، وبين أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومن معهم ، وأيضا في حرب صفين بين علي ومعاوية ، وهو صيانة القلم واللسان عن ذكر مساوئهم وإحسان الظن بهم والترضي عنهم أجمعين ، ومعرفة حقهم ومنزلتهم والتماس أحسن المخارج لما ثبت صدوره من بعضهم ، واعتقاد أنهم مجتهدون ، والمجتهد مغفور له خطؤه إن أخطأ ، وأن الأخبار المروية في ذلك منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيه أو نقص منه حتى تحرف عن أصله وتشوه ، ثم إنها لم توضع في سياقاتها الصحيحة .

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم مبينا سبب الحروب التي وقعت بين الصحابة : « واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة ، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام ، قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف ، وأن مخالفه باغ ، فوجب عليهم نصرته ، وقتال الباغي عليه ، فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده ، وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر ، فوجب عليهم مساعدته ، وقتال الباغي عليه ، وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية ، وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين ، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم ، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك »[126] .

---

(١٢٥) فتح الباري ١٣ /٣٤ .

(١٢٦) النووي – شرح صحيح مسلم ج ١٥ /١٤٩ .

فهذا هو التفسير الصحيح لمواقف الصحابة - رضي الله عنهم - في تلك الحروب وهو اللائق بحالهم .

ومعنى الإمساك عما شجر بينهم هو عدم الخوض فيما وقع بينهم من الحروب والخلافات على سبيل التوسع وتتبع التفصيلات ونشر ذلك بين العامة ،(١٢٧) ، أو التعرض لهم بالتنقص لفئة والانتصار لأخرى ، وقد ذكرنا آنفا قول الحافظ الذهبي « بأن كثيرا مما حدث بين الصحابة من شجار وخلاف ينبغي طيه وإخفاؤه بل إعدامه ، وأن كتمان ذلك متعين على العامة بل آحاد العلماء » لأنه لا مصلحة شرعية ولا علمية من وراء هذا النشر ، وبالأسلوب أو الهدف الذي ذكرنا ، أما في ظل الموازين العلمية المستقيمة المهتدية بالنصوص الشرعية فإن البحث في هذا الموضوع لا يمتنع إذا قصد به بيان الأحكام الشرعية ،(١٢٨) وما كان ذكر العلماء المعتبرين للحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة - رضي الله عنهم - إلا على هذا السبيل ، أو

---

(١٢٧) إن من أسوأ الأخطاء المنهجية والتربوية ، تدريس الحروب والخلافات التي وقعت بين الصحابة لتلاميذ المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، مع ما يصاحب ذلك من تشويه في العرض وتقصير في تعريف التلاميذ بمنزلة الصحابة وفضلهم وحقهم على الأمة ، حيث ينشأ عن ذلك تعارض في أذهانهم بين الصورة الفطرية التي تصوروها عن أصحاب رسول الله وما ينبغي أن يكونوا عليه من الاستقامة وبين الصورة التي تلقوها من المدرسة ، فلا يستطيعون معرفة الحق من ذلك ولا يستوعبونه نظرا لصغر سنهم ولقلة ثقافتهم ، حتى لو حاولت أن توضح لهم الصورة الصحيحة فإنهم لا يكادون يقتنعون لأن الشبهة التي أثيرت قد انقدحت في أذهانهم .

وهذه المسارعة في عرض مثل هذه المادة التاريخية على صغار التلاميذ أو عوام الناس مخالف للقواعد الأصولية مثل قاعدة « سد الذرائع » و « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » ومخالف أيضا للقواعد التربوية التي تقضي أن لا يعرض على الناس أكثر مما لا تحتمله عقولهم ، وقد جاء عن الصحابة - رضي الله عنهم - ما يؤيد هذه القاعدة فقال عبدالله ابن مسعود كما في مقدمة صحيح مسلم ١١/١ ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » ، وقد بوب البخاري في صحيحه (١٢٥/١ الفتح) باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا » (وأورد قول علي بن أبي طالب « حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » ، قال ابن حجر في فتح الباري ١ /٢٢٥ فيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة فهذه الآثار عن الصحابة - رضي الله عنهم - تدل على صحة هذه القاعدة التربوية ، وأنه لا ينبغي أن يُدَرَّسَ مثل هذا لتلاميذ المدارس لأنه مما لا تبلغه عقولهم ، ومما يؤدي إلى فتنة بعضهم واعتقاد مالا ينبغي اعتقاده في أصحاب رسول الله ﷺ .

(١٢٨) انظر حول هذا ، ابن تيمية ، مجموع الفتاوي ٤ /٤٣٤ .

لبيان المواقف الصحيحة وتصحيح الأغاليط التاريخية التي أثيرت حول مواقفهم في تلك الحروب ، ولهذا انتقد بعض العلماء(١٢٩) طريقة ابن عبدالبر في كتابه « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لذكره ما شجر بين الصحابة – رضي الله عنهم – من خلاف .

٦ – التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام :

وهذه قاعدة جليلة عظيمة . فمن رزقه الله تصورا صحيحا وفهما في علم الشريعة علم يقينا أنه لا شيء من أخطاء البشر مهما كانوا محسوب على الإسلام ، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقى من مصدرها الحق الكتاب والسنة ، لا من عمل الناس وسيرتهم – ما لم يكن إجماعا ممن ينعقد بهم الإجماع – ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفا لنصوص الشرع ، ولهذا قال الإمام مالك « ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك ، إلا النبي ﷺ »(١٣٠) وكثير من الناس يخطيء في هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادىء الإسلام ، أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي ، ويعتبر ذلك الحدوث حجة أو مسوغا للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي ، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي ، أو

---

(١٢٩) قال السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٦٤ « ورحم الله منقح المذهب المحيوي النووي – يقصد الإمام النووي – فإنه لما أثنى على فوائد الاستيعاب للحافظ الحجة ابن عبدالبر قال : لولا ما شانه من ذكر كثير مما شجر بين الصحابة وحكايته عن الإخباريين الغالب عليهم الإكثار والتخليط .

(١٣٠) ناصر الدين الألباني ، صفة صلاة النبي ص ٢٨ وقال : إن نسبة هذا القول إلى الإمام مالك هو المشهور عند المتأخرين ، وقد صححه عنه ابن عبدالهادي في « إرشاد السالك ١ /٢٢٧ ، ورواه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٩١ وابن حزم في أحكام الأحكام ٦ /١٤٥ و١٧٩ من قول الحكم بن عتيبة ومجاهد ، وأورده تقي الدين السبكي في « الفتاوى » ١ /١٤٨ من قول ابن عباس ثم قال (أي السبكي) وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهد . وأخذها منهما مالك – رضي الله عنه – واشتهرت عنه ، قال الألباني : ثم أخذها عنهم الإمام أحمد ، انظر مسائل الإمام أحمد لأبي داود ص ٢٧٦ .

كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله ، ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعا من الأفعال والتنظيمات وهي مناقضة تماما للأحكام الشرعية ، دون أن يوضحوا بأن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية ، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتابات المتأخرين(١٣١) ، فإنك تراهم يذكرون في الفنون الإسلامية مثلا أنواعا مما حرمه الله مثل فن الغناء ، وفن التصوير والنحت ، وفن بناء القباب على القبور ، وفي النظم المالية مثلا يذكرون نظام الضرائب والمكوس(١٣٢) التي تؤخذ من التجار المسلمين ، وغير ذلك مما نهى الشارع عنه ، فيعرضون مثل هذا على أنه تقدم حضاري ، ومن

---

(١٣١) انظر على سبيل المثال المؤلفات التالية :

أ – الدكتورة سعاد ماهر ، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . جزءان طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ، فقد استعرضت الأضرحة والقباب والمساجد المقامة على القبور ووصفتها وصفا معماريا ، وفي ١ /٤٤ حاولت أن تدلس على القارىء بأنها بحثت الموضوع بحثا شرعيا وذلك بنقلها بعض العبارات المجتزأة من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، ثم قررت أن شد الرحال لزيارة القبور عمل مندوب .!! ولم تتعرض لحكم بناء القباب والمشاهد على القبور ، ومن المعلوم أن شد الرحال لزيارة القبور منهى عنه وبناء القباب والمشاهد على القبور بدعة ، وإذا اقترن ذلك بتقديم شيء من أنواع العبادة وقع الشرك وتعين إزالتها .

ب – عطاء الحديثي وهناء عبدالخالق ، القباب المخروطية في العراق ، فقد قدمتا دراسة وصفية لهذا النوع من القباب المقامة على القبور في القطر العراقي ، ولم تتعرض الباحثة لحكم الإسلام في ذلك ، وهل هذا عمل مشروع أم لا ؟

جـ – توفيق أحمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة . قال في ٢ /٣٢٤ . وتفخر القاهرة بأن فيها مجموعة من هذه الأضرحة ، وفي ٢ /٣٢٧ قال مما يلاحظ في العمائر الدينية السلجوقية أنها لم تكن مقصورة على المساجد بل كثر بناء الأضرحة على شكل أبراج اسطوانية ، أو ذات أضلاع ، وقد نشأ هذا الطراز من الأضرحة في خراسان وانتشر منها إلى سائر الشرق الإسلامي ، ولم يذكر أي تعليق على حكم الشرع في مثل هذه البدع المحدثة .

د – أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها وهو دراسة وصفية حضارية كسابقه ، ففي ص ٢٨ درس المشاهد والقبور في القاهرة على سبيل الإعجاب والتقرير لها .

هـ – أرنست كونل الفن الإسلامي ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ، أورد في ص ٦٠ أبنية القبور « الطراز السلجوقي » ، وفي ص ٨٧ أبنية القبور « الطراز الفارسي المغولي » ولم يتعرض المترجم بالتعليق على ذلك ، كما هو واجبه كرجل مسلم .

(١٣٢) قال ﷺ « لا يدخل الجنة صاحب مكس » رواه أبو داود ٣ /١٣٢ ، وقال الخطابي في معالم السنن صاحب المكس هو الذي يعشر أموال المسلمين ويأخذ من التجار إذا مروا عليه مكسا باسم العشر ، وليس هو الساعي الذي يأخذ الصدقات » معالم السنن حاشية على مختصر أبي داود ٤ /١٩٧ .

نتاج الحضارة الإسلامية ، ويفاخرون به غيرهم ، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام ، والمفترض في الباحث أن يصطحب التصور الإسلامي الصحيح في كل دراساته وأحواله ، وأن يفرق بين أخطاء البشر وبين قيم الإسلام وموازينه ، لأن البشر يخطئون ويصيبون ويستقيمون على الطريق فترة وينحرفون فترات ، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي ، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾(١٣٣) .

والذي ينبغي التنبه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية(١٣٤) على الأشخاص والأحداث أن لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه ، مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب ، على حساب تشويه المنهج الإسلامي(١٣٥) . « لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج »(١٣٦) فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر ، وصيانته أولى وأحرى ، فالحق لا يعرف بالرجال ولا بكثرة من قاله ، إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة . فالجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ، كما قال عبدالله بن

---

(١٣٣) سورة الأنعام آية : ١١٥ .

(١٣٤) الحكم التاريخي هو ما يطلقه المؤرخ من نقد وحكم على أرباب الولايات من الحكام والقادة وكبار العلماء ، أو على عصر من العصور ، أو موقف من المواقف الجماعة أو الفردية ، ويجب أن يكون هذا الحكم لدى المؤرخ المسلم مبنيا على منهج معياري شرعي ، يزن به أعمال كل شخص من هؤلاء ، لأن المرء يذم بسبب تقصيره في شيء من الأمور الشرعية وما هو مسئول عنه . ويمدح بما قدم للإسلام من خدمات وأقام من عدل في ولايته وملكه ، فالمقياس الشرعي هو المنهج الذي يحاكم له الأشخاص في أعمالهم ومواقفهم ، وهذا الحكم التاريخي يختلف عن نقد الرواة عند علماء الحديث إذ لهؤلاء موازين خاصة معروفة ومفصلة في كتب المصطلح .

(١٣٥) هذا لا يعني أننا نسيء الأدب ولا نلتمس العذر لمن كان له عذر ، بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب ، وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير . والمحذور هو التعصب وتبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب .

(١٣٦) هذه العبارة قالها الكاتب الشهير سيد قطب « انظر في ظلال القرآن ١ /٥٣٣ » .

مسعود - رضي الله عنه[١٣٧] - والمنهج لابد أن يبقى مصونا ومحافظا عليه من التشويه والتحريف .

٧ - الإيمان بالسنن الربانية :

دراسة التاريخ بوعي وإدراك تساعد الدارس على معرفة السنن الربانية وتكشفها له ، مما يجعله يستفيد من دراسته ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السنن ، وسبق أن ذكرنا في الفصل الثاني من الباب الأول أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية ، وتناولنا بالبحث هناك معنى السنة الربانية وأنواع السنن وصفاتها .

والذي يهمنا في هذا الموضع هو بيان ارتباط الإيمان بالسنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي ، وذلك أن لله - سبحانه وتعالى - سننا ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون ، وهذه السنن كما عرفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والعدل والظلم ، وبقضايا السلوك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات البشرية .

والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم ، فهو الذي عرفنا بالخير وبالشر وحدد دلالة ذلك ، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك وبالحق والباطل والعدل والظلم ، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله ، قال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[١٣٨] وأن الظالم لابد أن ينال جزاءه ، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليل محبة الله له وإنما قد يكون من باب الاستدراج ، قال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[١٣٩] ، وقال تعالى ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾[١٤٠] ، ثم العاقبة ستكون للمؤمنين ، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا

---

(١٣٧) ابن القيم . إغاثة اللهفان ١ /٧٠ .
(١٣٨) سورة لقمان آية : ١٣ .
(١٣٩) سورة آل عمران آية : ١٧٨ .
(١٤٠) سورة الطارق آية : ١٧ .

من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص ، وهذا سنة من السنن الربانية ، وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا ءامنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(١٤١) ، وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب ﴾(١٤٢) ، وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾(١٤٣) ، وأنه للمؤمنين . متى وفوا بشرط الإيمان ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾(١٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾(١٤٥) ، ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين ءامنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(١٤٦) ، وأن الأيام دول بين الناس ، قال تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين ءامنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾(١٤٧) ، وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله ، كما قال تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾(١٤٨) ، وقال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾(١٤٩) ، وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك الهلاك وضنك الحياة المادي منها والنفسي قال تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة

(١٤١) سورة العنكبوت آية : ١ – ٢ .
(١٤٢) سورة البقرة آية : ٢١٤ .
(١٤٣) سورة آل عمران آية ١٢٦ .
(١٤٤) سورة الروم آية : ٤٧ .
(١٤٥) سورة المجادلة آية : ٢١ .
(١٤٦) سورة غافر آية : ٥١ .
(١٤٧) سورة آل عمران آية : ١٤٠ .
(١٤٨) سورة الجن آية : ١٦ .
(١٤٩) سورة الأعراف آية : ٩٦ .

ضنكا . ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(١٥٠) وما أشارت له الآية من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله ، واقع ملموس مشاهد ، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكا ماديا في رزقهم أو ضنكا نفسيا شعوريا ، أو هما جميعا ، لأن المعاصي تكون شؤما على أصحابها وفسادا في الأرض ، قال تعالى ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾(١٥١) ، وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد « وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه(١٥٢) .

وأن الجهاد سنة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا ،(١٥٣) قال تعالى ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾(١٥٤) فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال .

فهذه أمثلة من السنن الربانية التي ذكرها القرآن ، ولا يدركها إلا من قرأ القرآن وآمن به وصدقه ، ثم إذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية يجد مصداق ذلك فيزداد إيمانا على إيمانه ، ومعرفة وعلما بواقعه التاريخي الحاضر ، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به من أمراض وانحرافات ، حتى نتفادى الوقوع في شر السنة الربانية ونصيب من خيرها .

وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي والإيمان بالسنن الربانية في الكون ، كما دل عليها القرآن وكشفتها التجارب التاريخية .

وهذه السنن مرتبطة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله في حياة الناس كلها .

---

(١٥٠) سورة طه آية ١٢٤ .

(١٥١) سورة الروم آية : ٤١ .

(١٥٢) المسند ٥ /٢٧٧ وابن ماجه ٢ /١٣٣٤ .

(١٥٣) روى عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال « ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا » وقد جاء في الحديث « إذا تبايعتم بالعينة .. وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » (أبو داود ٣ /٢٧٥ وانظر صحيح الجامع الصغير ح رقم ٤١٦ .

(١٥٤) سورة البقرة آية : ٢٥١ .

قواعد في المصادر

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى ، لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أي بحث تاريخي ، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر ، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى ، فلا يغني فيه الخيال والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية ، كما يفعل الأديب والقصاص والشاعر والعالم الفزيائي ، ومادامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتني بها غاية الاعتناء ، وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة ، كدرجة الثبوت والثقة في المصدر ، وكالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني ، فيقدم ما هو أوثق ثبوتا كالنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك ، وتقدم رواية من كان ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته ، وهنا مجموعة من القواعد التي يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها وهي :

١ – اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر :

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد تكفل الله بحفظه من التحريف أو الزيادة والنقصان ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(١٥٥) والقرآن قطعي الثبوت ، آية آية وكلمة كلمة .

ويأتي بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوي الشريف ، فإن النبي ﷺ – كما أخبر عنه – لا ينطق عن الهوى . وقد حفظ الصحابة – رضي الله

---

(١٥٥) سورة الحجر آية : ٩ .

عنهم — أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأدوها إلى من بعدهم كما سمعوها .

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمي وأوثقه في تدوين السنة وفي نقد الرجال والمرويات ، وفي الكتاب والسنة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم ، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ ، مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية ، كما أنه قد جاء في الكتاب والسنة الإشارة إلى الأحداث المستقبلة ، سواء كان وقوعه في الحياة الدنيا أو في الآخرة ، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها ، ومثل أحداث اليوم الآخر ، فقد أخبر ﷺ بما تؤول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق(١٥٦) ، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد(١٥٧)، كما أخبر أنه سنقع أحداث كثيرة بين يدي الساعة(١٥٨) ، وهي أشراط الساعة التي اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها في مصنفاتهم ، بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة(١٥٩) .

---

(١٥٦) قال ﷺ «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة » رواه أبو داود وأحمد والدارمي والحاكم والآجري في الشريعة ، انظر تخريجاته والكلام عليه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني المجلد الأول حديث رقم ٢٠٤ .

(١٥٧) قال ﷺ « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » أخرجه أبو داود ٤ /١٠٩ والحاكم في المستدرك والبيهقي في المعرفة وهو صحيح . انظر صحيح الجامع الصغير ٢ /١٤٣ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ، المجلد الثاني حديث رقم ٥٩٩ .

(١٥٨) قال ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى » رواه البخاري ومسلم ، انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٣ /٣٠٥ ، وقد خرجت هذه النار كما أخبر ﷺ وكان خروجها من حرة المدينة في سنة ٦٥٤ هـ انظر تفصيل ذلك في ابن كثير ، البداية والنهاية ١٤ /١٨٧ .

كما أخبر ﷺ عن فتح المسلمين للقسطنطينية وروما عندما سئل أي المدينتين تفتح أولا قسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني القسطنطينية . وهو حديث صحيح انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني حديث رقم ٤ ، وأخبر أيضا بأنه لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر .. الحديث . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨ /٤٤ — ٤٥ .

(١٥٩) أفرد لها البخاري كتابا في صحيحه سماه كتاب الفتن ٨ /٨٦ — ١٠٤ ، ومسلم كتاب الفتن

وقد جاء في القرآن والسنة أيضا الإشارة إلى جملة من القوانين التاريخية والسنن الربانية ، مما يعطي الباحث أو الدارس سعة وشمولا في النظرة التاريخية ، وعمقا في التحليل للأحداث ، ومقدرة على تشخيص الداء ووصف الدواء .

أما الذين لا يعتمدون القرآن والسنة في مصادر دراساتهم وأبحاثهم ، فإنهم يحرمون هذه الفوائد من النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث ، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب ، فإنهم لا يستطيعون وصف العلاج الحقيقي للأمراض الاجتماعية والخلقية التي تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث وتوجيهها .

لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وعلاج مثل هذه الأمراض والأدواء لا يتلقى إلا من الشارع الحكيم ، ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع ، لذا فإنه لابد من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعا من الأوضاع الاجتماعية ، وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكيا واجتماعيا ، وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرة في دراسته .

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين :

الأول : لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار ، وذلك لصدق مصدرها وعلمه وهيمنته ، كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمي ، فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب للعلم القطعي في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف ، وصحيح السنة وصلنا بمنهج علمي دقيق هو أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية .

والثاني : هو لِمَا تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، مما يهيىء للباحث المقدرة على

وأشراط الساعة ٤ /٢٢٠٧ - ٢٢٧١ ، وأبو داود ، الفتن والملاحم ٤ /٦٤ - ١٢٦ ، والترمذي في جامعه ٤ /٤٤٦ - ٥٢٠ ، كما أفردها بعض العلماء بمصنفات مستقلة مثل ابن كثير النهاية في الفتن والملاحم ، وصديق حسن خان ، الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة ، والتويجري ، إتحاف الجماعة بأشراط الساعة .

اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية وارتباط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلبا وإيجابا .

والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها تفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها .

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السنن والروابط التي تربط الأحداث ، أو ما يسمونه « فلسفة التاريخ » ، غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة ، بل بلغ الجنوح بأكثرهم إلى القول بتفسيرات ومنظورات تاريخية تأخذ بالتفسير « الأحدى » لحركة تاريخ البشرية ، ولذلك ظهرت مدارس متعددة في تفسير التاريخ مثل المدرسة الاجتماعية ، والمدرسة النفسية ، والمدرسة المادية ، والمدرسة القومية والجغرافية واللاهوتية الكنسية وغيرها .

وهذه التفسيرات جميعها – باستثناء التفسير الكنسي(١٦٠) – تغفل دور الأنبياء والرسل – عليهم السلام – وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية ، ولا تعطي أية أهمية لما جاءوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ الشرك والأنداد ، وإقامة الحكم بين الناس بالقسط ، يقول أحد الكتاب المعاصرين مبيناً خطر الدراسات التي لا تعتمد المصادر الشرعية – وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها – « المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث ، وكانوا أساتذة للكثيرين من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوربا للتعمق في الدراسات الإسلامية – هكذا – وطرق البحث فيها ، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، وعادوا فكتبوا .. ونقرأ ما كتبوا فنلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان ، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية ، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر

---

(١٦٠) لم نستثن التفسير الكنسي باعتباره تفسيرا صالحا ، ولكن باعتبار أنه يحمل تصورات عن رسالة المسيح عيسى – عليه السلام ، ولكنها تصورات مشوشة وغلي سليمة ، فالمسيح في نظرهم هو ابن الله وإنه قد قدم نفسه قربانا تكفيرا عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم ... إلى آخره .

خطورة من كتابات المستشرقين أنفسهم ، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرأون للمستشرقين بحذر ، ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه »(١٦١) .

فكل دراسة للتاريخ الإسلامي لا تعتمد المصادر الشرعية لابد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامي ، لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية ، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ، ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها .

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعيه أتيحت الفرصة لعدد غير قليل – من الذين لم يتلقوا قدرا كافيا من علوم الشريعة – للكتابة في التاريخ الإسلامي ، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية ، وتحمل كثيرا من لوثة الانحراف الفكري والغزو الثقافي وتمثل الفهم المشوه للشريعة ، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجوم من هذه الآثار ، وذلك راجع إلى قلة البضاعة في الدراسة الشرعية ، وللمناهج التي تلقوا بها دراسة التاريخ .

إن الواجب يقضي بأن كل من يتصدر لدراسة التاريخ الإسلامي وتدريسه ، يجب عليه دراسة القرآن الكريم ومعرفة أسباب النزول ، وأصول علم التفسير ، وأصول علم الحديث ، ومعرفة الأحكام الشرعية ، وعقيدة أهل السنة والجماعة ، وعقائد الفرق المخالفة لها ، لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامي ، وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخي والمنهجية العلمية .

٢ – عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب السابقة على القرآن :

قال الله تعالى : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا ﴾(١٦٢) وقال تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما

---

(١٦١) أحمد شلبي . التاريخ والحضارة الإسلامية ١ /٥٨ .

(١٦٢) سورة النساء آية : ٤٦ .

يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[163] ، وقال : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾[164] ، وقال : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم ءاخرين لم يأتوك . يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[165] .

ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم ، والواقع يثبت هذا التحريف ، فإن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل ، وهي اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى ، وكذلك التوراة والتلمود ، دونها أحبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة ، واختلافاتها الكثيرة ، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله ، من أكبر الأدلة على تحريفها ، مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلا عن أن يكون من كلامه – سبحانه وتعالى .

فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة ، أما أخبارها وقصصها فهي مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ءامنا بالله وما أنزل إلينا .. »[166] الآية .

ومن المعلوم أن القصص الإسرائيلي من أوسع القصص تفصيلا لمعلومات تاريخية ولعهود وأزمان سحيقة ، لكن بسبب وقوع التحريف فإنه لا يمكن الاعتماد على شيء من ذلك في الأمور الشرعية ، أما الأخبار التاريخية مثل زيادة التفصيل لما ورد في القرآن أو السنة مجملا أو الذي يغطي به النقص والفجوات في الوقائع التاريخية ، ولا يترتب على ذلك تقرير حكم شرعي أو مخالفته ، فإنه

---

(١٦٣) سورة البقرة آية : ١٤٦ .

(١٦٤) سورة المائدة آية : ١٥ .

(١٦٥) سورة المائدة آية : ٤١ .

(١٦٦) رواه البخاري ، انظر شرحه فتح الباري ٨ /١٧٠ و١٣ /٣٣٣ .

لا بأس من ذكر ذلك على سبيل المعرفة والبيان لا الاعتماد والاعتقاد ، كما قرر ذلك كثير من العلماء المحققين من أمثال الإمام ابن تيمية(١٦٧) والحافظ بن كثير ،(١٦٨) فقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام وهي كما يلي :

- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .
- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذاك كذب .
- ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا فلا نصدق به ولا نكذبه .

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته لما ورد من الإباحة في ذلك ، وغالب هذا مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا كان بعض الصحابة – رضي الله عنهم – يسأل مسلمي أهل الكتاب كعبدالله بن سلام(١٦٩) وكعب الأحبار(١٧٠) عن بعض جزئيات الحوادث ، وتفصيل مجملات القصص في القرآن ، بقدر ما يرون أنه مبين للقصة ، وموضح لما أجمل فيها ، ولا يخرج عن دائرة الجواز التي حددها رسول الله ﷺ بقوله « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار »(١٧١) .

ومن هذا الباب أورد بعض الأئمة الكبار مثل هذه الأخبار والأحاديث الإسرائيلية في كتبهم وتفاسيرهم ، لا ليثبتوا بها حكما شرعيا أو يعتقدوا

---

(١٦٧) انظر رسالته مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٠ .
(١٦٨) انظر مقدمة تفسيره ١ /١٤ .
(١٦٩) هو عبدالله بن سلام (بالتخفيف) بن الحارث الإسرائيلي حليف بني عوف بن الخزرج ، أسلم عند قدوم النبي المدينة ، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابيه ، وتوفى سنة ٤٣ هـ انظر ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٥ /٢٤٩ .
(١٧٠) هو كعب بن ماتع الحميري المعروف بكعب الأحبار ، أدرك الجاهلية وأسلم في أيام أبي بكر ، وقيل في أيام عمر ، وروى عن النبي ﷺ مرسلا ، وكان من يهود اليمن ، ثم أسلم وقدم المدينة وخرج منها إلى الشام . روى له مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، ومات سنة ٣٢ وقد بلغ من العمر ١٠٤ سنين « التهذيب : ٨ /٤٣٨ .
(١٧١) رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء ، انظر شرحه فتح الباري ٦ /٤٩٦ .

صحتها ، وإنما على سبيل المعرفة والاستشهاد وحكاية الأقوال ، وهم مع ذلك ينبهون في الغالب على ما فيها من الخطأ إما تصريحا أو تلميحا ، وقد يسكتون أحيانا لوضوح الأمر .

يقول أبو العباس بن تيمية « علماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي – ﷺ ، لأنه واجب القبول ، وفيما ينقل عن الصحابة ، أما ما ينقل من الإسرائيليات ونحوها فهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلتها ، لأن أصلها غير معلوم ، وغايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب ، لما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ، فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأممهم ، فإن ذلك يجب تصديقه مع الاحتراز في نقلته »(١٧٢) .

ومن الغريب أن بعض الكتاب المعاصرين يعتمدون في مصادرهم التاريخية على التوراة والإنجيل وينقلون عنهما مباشرة ، ويعارضون بما فيهما الأحاديث الصحيحة في حين يعيبون على علماء التفسير وغيرهم رواية الإسرائيليات وإدخالها في تفسير بعض الإشارات المجملة في القرآن ، ولو فكروا لعلموا أن الأوائل رجعوا إلى نسخ أقدم ، وربما أوثق من النسخ التي رجعوا هم لها في العصر الحاضر .

بل إن بعضا من الكتاب المعاصرين يعتمد على التوراة ويعتبرها مصدراً تاريخياً(١٧٣) ، ويستبعد القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وهذا متابعة للمنهج الاستشراقي الماكر الذي لا يؤمن برسالة النبي محمد ﷺ ولا صدقه .

---

(١٧٢) ابن تيمية ، الرد على البكري ص ٢١ – ٢٢ .

(١٧٣) ذكر الدكتور جمال عبدالهادي في كتابه تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور نماذج من مؤلفاتهم عن التاريخ الإسرائيلي ، وتصريح بعضهم مثل الدكتور محمد أنور شكري بقوله « إن التوراة هي المصدر الوحيد الذي يتضمن هجرة الإسرائيليين إلى مصر وخروجهم منها ودخولهم الأرض الموعودة » ص ٣٤٨ ، في حين أن القرآن قد ذكر ذلك مفصلاً في كثير من الآيات كما نقل عن =

٣ – معرفة شروط المؤرخ المقبول :

المؤرخ المقبول الرواية يشترط له مجموعة من الصفات والشروط ، يجعلها بعضهم كشروط راوي الحديث النبوي ،(١٧٤) غير أن الأمر فيه تفصيل ، وذلك بحسب المروي وأهميته التشريعية ، فإذا كان المروي متعلقا بالنبي ﷺ أو بأحد من الصحابة – رضي الله عنهم – فإنه يجب التدقيق في رواته والاعتناء بنقدهم ، ويلحق بهذا ما إذا كان الأمر متعلقا بثلب أحد من العلماء والأئمة ثابتي العدالة ، لأن كل من ثبتت عدالته لا يقبل جرحه حتى يتبين ذلك عليه بأمر لا يحتمل غير جرحه(١٧٥) ، « أما إذا كان الخبر المروي لا يتعلق بشيء من ذلك فإنه وإن كان الواجب التثبت في الكل إلا أنه يتساهل فيه ، ولهذا قال الخطيب البغدادي « باب التشدد في أحاديث الأحكام والتجوز في فضائل الأعمال ، ثم روى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل أنه قال « إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال ومالا يضع حكما ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد »(١٧٦) ، ولا يعني هذا التساهل أنهم يروون عن الكذابين وساقطي العدالة ، لأن ساقط العدالة لا يحمل عنه أصلا ، إنما يقصدون ضعف

= كتاب حضارة مصر والشرق القديم الذي اشترك في تأليفه خمسة أساتذة ، أنهم قالوا عن العقائد الإسرائيلية بأننا لا نستطيع في دراستها أن نعتمد على وثائق معاصرة فهي قليلة نادرة لكننا نستطيع أن نعتمد على تحليل النظم الإسرائيلية والعقائد الإسرائيلية في العصور التاريخية » ص ٣٤٥ ولم يرجعوا للقرآن الكريم في إيضاح شيء من تلك العقائد .

كما نقل نصوصا من كتاب . س . موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة والذي ترجمه الدكتور يعقوب بكر وراجعه محمد القصاص ، فقد رجع إلى النقوس والقصص والتوراة والإنجيل وذلك لوصف الحياة الدينية في جزيرة العرب ولم يرجع للقرآن ، ولذلك لم يذكر في كتابه الرسالات السماوية لكل من هود وصالح وشعيب – عليهم السلام – لأنها لم ترد في التوراة ص ٣٩٣ – ٣٤٤ .

(١٧٤) انظر محمد بن سليمان الكافيجي ، المختصر في علم التاريخ عن ٣٣٦ ، حيث قال « وينبغي أن يشترط في المؤرخ ما يشترط في راوي الحديث من أربعة أمور : العقل ، والضبط ، والإسلام . والعدالة .

(١٧٥) انظر ابن حجر . تهذيب التهذيب ٧ /٢٧٣ في ترجمة عكرمة مولى ابن عباس .

(١٧٦) البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ص ٢١١ – ٢١٣ .

الضبط في الراوي ، مثل الغفلة وكثرة الغلط والتغير والاختلاط ونحو ذلك ، أو عدم اتصال السند كإرسال أو انقطاع .

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر ، مثل ما جاء مرويا عن طريق علماء الحديث كأخبار السيرة النبوية وخلافة الراشدين ، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة ، وإنما غالبها محمول عن الأخباريين وبأسانيد منقطعة ، ويكثر فيها المجاهيل ، بل إن بعضها يرد بدون إسناد ، أو حتى تبيين للمصادر التي حمل عنها المؤرخ ،(١٧٧) ومن أجل هذا فإنه قد يكون من العسير تطبيق المنهج النقدي عند علماء الحديث النبوي بكل خطواته على كل الأخبار التاريخية ، ولذا فرق جمهور العلماء بين الشروط المطلوبة في المؤرخ لكي تقبل روايته وبين الأمور المشترطة في راوي الحديث النبوي ، فتساهلوا في الأول(١٧٨) وتشددوا في الثاني ، وذلك للأهمية التشريعية

---

(١٧٧) ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامي إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم قد حفظ وخدم ، ودون في وثائق ، وتناقله الخلف عن السلف ، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر ، وبالروايات المشهورة ، ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث ، وهذا الوضوح التاريخي لا يوجد في تاريخ أمة من الأمم كما هو في التاريخ الإسلامي .

(١٧٨) هذا التفريق والتساهل نلحظه بوضوح في تصرف الحافظ ابن حجر العسقلاني في جمعه بين الروايات في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري ، فإنه في الوقت الذي يقرر فيه رفض رواية محمد بن إسحاق إذا عنعن ولم يصرح بالتحديث ، ورفض رواية الواقدي لأنه متروك عند علماء الجرح والتعديل ، فضلا عن غيرهما من الأخباريين الذين ليس لهم رواية في كتب السنة . من أمثال عوانة والمدائني ؛ فإنه يستشهد برواياتهم ويستدل بها على بعض التفصيلات ، ويحاول الجمع بينها وبين الروايات الأخرى التي هي أوثق إسنادا . وهذا دليل لقبوله لأخبارهم فيما تخصصوا فيه من العناية بالسير والأخبار ، وهذا منهج معتبر عند العلماء المحققين وإن لم يقبلوا رواياتهم في الأحكام الشرعية ، فنجد ابن حجر يقول في محمد بن إسحاق « إمام في المغازي صدوق يدلس » التقريب ١ /١٤٤ ويقول في الواقدي تقريب ٢ /١٩٤ . متروك مع سعة علمه . ويقول عنه في التهذيب ٩ /٣٦٣ » استقر الإجماع على تركه .

ونورد فيما يلي بعض النماذج من تصرف ابن حجر واعتباره لروايات الإخباريين :

١ - في أول كتاب المغازي ٧ /٢٧٩ ذكر عدد غزوات الرسول وعدد بعوثه وسراياه وعدد الغزوات التي وقع فيها قتال ، فاستشهد بأقوال أهل السير مثل ابن إسحاق والواقدي وابن سعد وذكر خلافهم =

لما يرويه ، فالسبب في التفريق راجع إلى موضوع الرواية ، وعليه فإنه يمكن القول بأن الرواية التاريخية إذا كانت تتعلق بموضوع شرعي كتحليل أو تحريم أو ما يدخل في باب سب المسلم وتنقصه أو تدليس حاله على الناس فإنه لابد من التثبت من رواتها ومعرفة نقلتها ، ولا يؤخذ في هذا الباب إلا عن العدول الضابطين الذين سلمت مروياتهم من المعارضة .

أما إذا كانت الرواية التاريخية لا يتعلق بها إثبات حكم شرعي أو نفيه كما هو الغالب على الروايات التاريخية ، فإن الأمر عندئذ يختلف ، ويقبل في هذا الباب من المرويات الضعيفة مالا يقبل في سابقه ، لا سيما وقد قال بعض الفقهاء بجواز العمل بالحديث الضعيف(١٧٩) في فضائل الأعمال والترغيب والترهيب .

والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان :
شروط تتعلق به ذاته ، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه ،
أما الشروط المتعلقة بذاته فهي :

- العدالة(١٨٠) .

= وجمع بين أقوالهم وأقوال من هم أوثق منهم ، من رواه الصحيح وفعل مثل هذا في ٢٩١/٧ عند حديثه عن عدد أهل بدر .

٢ - في ٧ /٢٩٦ جعل رواية ابن إسحاق جامعة بين الروايات رغم مخالفتها لما في الصحيح ، وذلك في قصة مقتل أبي جهل يوم بدر .

٣ - في ٧ /٣٣١ في قصة بني النضير ومتى كان حصارهم ، ذكر ابن إسحاق أنها كانت بعد أحد وبعد استشهاد القراء في بئر معونه ، والذي في البخاري عن عروة أنها كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر أي قبل أحد ، وقد مال ابن حجر إلى ترجيح رواية ابن إسحاق ، رغم إيراده سببا للغزوة غير ما ذكر ابن إسحاق وصححه .

٤ - في ١٣ /٦٥ استشهد برواية عوانة بن الحكم .

٥ - في ١٣ /٥٧ استشهد برواية للمدائني .

(١٧٩) تقدم قريبا قول الإمام أحمد بن حنبل ، وقد كان هو وعبدالرحمن بن مهدي وابن المبارك وأبو داود يرون العمل بالحديث الضعيف ، وهو عندهم مقدم على آراء الرجال ، ومن الذين منعو العمل به أبو بكر بن العربي . انظر تفصيل ذلك في السيوطي تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ١ /٢٦٨ وما بعدها ، واستكمالا لذلك ، انظر تعليق أحمد شاكر في الباعث الحثيث ص ٩١ .

(١٨٠) العدل ، هو المسلم البالغ العاقل الذي سلم من الفسق وخوارم المروءة (انظر أحمد شاكر الباعث الحثيث ص ٩٢) .

- القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات ، وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل ، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة ، وكيفية الجمع بينهما . يقول ابن تيمية : لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ، ليتكلم بعلم وعدل ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ، وإلا فيبقى في كذب وجهل وظلم في الكليات ، فيتولد فساد عظيم »(١٨١) .

- العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها ، وللإمام ابن تيمية كلام في غاية الأهمية حول هذا الشرط ذكره في مستهل جوابه عندما سئل عن حكم قتال التتار ، فذكر أن هناك أصلين ينبغي أن يستكملا قبل الفتوى « أحدهما : المعرفة بحالهم ، والثاني : معرفة حكم الله في أمثالهم »(١٨٢) وهذان الأصلان يقومان على العلم المنافي للجهل ، إذ الكلام في الناس لا يجوز بغير علم وبصيرة .

- مصاحبة الورع والتقوى ، بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف ، خوفا من الدخول تحت قوله ﷺ « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »(١٨٣) ، ومتى لم يكن ورعا فإنه وإن كان عالما فإنه لا يجد من الورع والتقى ما يحجزه ويوجب له الفحص والاجتهاد وترك المجازفة(١٨٤) .

- تجنب الغرض والهوى وهذا أمر يعز وجوده إلا في القلة النادرة ، ولكنه مع الشرط السابق ومع الشعور بالمسئولية والخوف من الله

---

(١٨١) الذهبي ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٣٢٠ .

(١٨٢) ابن تيميه ، مجموع الفتاوى ٢٨ /٥١٠ .

(١٨٣) رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه ٧ /٨٨ ومسلم في كتاب البر والصلة حديث رقم ٢٥٦٣ .

(١٨٤) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ ص ٧١ .

واستحضاره ذلك في الذهن يستطيع التخلص بحول الله من الهوى المضل .

- حسن التصور للموضوع الذي يكتب فيه ، وذلك بأن يفهم الموضوع الذي يبحثه فهما جيدا ويحيط به من كافة جوانبه .
- أن يكون جيد العبارة ، عف اللسان عن المنكر من القول(١٨٦) .

وبخصوص الشروط التي تتعلق بما يرويه المؤرخ ، فقد ذكر السبكي(١٨٧) في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين(١٨٨) وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي :

١ - اعتماد اللفظ دون المعنى ، وذلك بأن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعنى ، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة(١٨٩) ، وعبر عنها من عند نفسه .
٢ - أن يسمى المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف .
٣ - أن يكون نقله مضبوطا فلا يجوز أن يأخذ من الشيخ أثناء المذاكرة ثم

---

(١٨٥) هذا الشرط كما ذكرنا سابقا ، قد يتساهل فيه في بعض الأخبار التاريخية ، فيؤخذ عمن خف ضبطه أو كان كثير الغلط والغفلة ، وذلك لأنه شرط خارجي لا يتعلق بأمر قادح في العدالة والأمانة ، إلا أن علماء الحديث وضعوه للاحتياط لغرض الوصول إلى اللفظ النبوي .

(١٨٦) حول الشرطين الأخيرين ، انظر الصفدي ، الوافي بالوفيات ١ /٤٦ .

(١٨٧) هو الشيخ تاج الدين عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي ، ولد سنة ٧٢٧ هـ جَدَّ في طلب الحديث فكتب كثيرا وألف كثيرا ، وانتشرت مؤلفاته في حياته ، وتولَّى التدريس في غالب مدارس دمشق وخطابة الجامع الأموي ، وتولى رياسة القضاء وحصل له محن في ولايته أبان فيها عن شجاعة وقوة مناظرة وتوفى سنة ٧٧١ هـ « الشوكاني ، البدر الطالع ١ /٤١٠ » .

(١٨٨) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٢ /٢٢ ذكر ذلك في ترجمة أحمد ابن صالح المصري وقد طبعت هذه القاعدة مع قاعدة أخرى في الجرح والتعديل مستقلة بتحقيق عبدالفتاح أبو غدة .

(١٨٩) انظر الذهبي ، ميزان الاعتدال ٣ /٥٠٧ في ترجمة ابن حبان ، وانظر كذلك الميزان ١ /٢٧٤ و ٤ /٨ .

يدونه بعد ذلك ، لأنه في هذه الحالة ربما ينسى بعض الكلام فيقل الضبط .

٤ - زاد السخاوي شرطا آخر وهو « التحري فيما يراه من الوقائع التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة - رضي الله عنهم - لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم ، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة ، سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات »(١٩٠) ، وهذا الشرط مهم للغاية وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي ، وكان ما دون من مثل هذه الأخبار عونا للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامي ، حتى أخفو معالمه الأساسية وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء ، لا تزيد على كونها صراعا على السلطة وتكالبا على الشهوات ، وفسروا التاريخ الإسلامي كما يحلوا لهم تفسيرا ماديا ، أو قوميا أو علمانيا .

يقول السبكي « لايزال طالب العلم عندي نبيلا حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين ويقضي لبعضهم على بعض »(١٩١) .

ويقول الشوكاني(١٩٢) في جواب من سأله عن مذهب أهل الحق في شأن ما شجر بين الصحابة - رضي الله عنهم - في الخلافة . « إن كان هذا السائل طالبا للنجاة ، فليدع الاشتغال بهذه الأمور في هذا المضيق الذي تاهت فيه الأفكار ، فإن هؤلاء الذين تبحث عن حوادثهم وتتطلع لمعرفة ما شجر بينهم

---

(١٩٠) السخاوي ، الإعلان بالتوبيخ ص ٦٤ - ٦٥ .

(١٩١) السبكي ، قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين ص ٥٣ .

(١٩٢) هو العلامة محمد بن علي الشوكاني ، ولد بهجرة شوكان سنة ١١٧٣ ، ونشأ في مدينة صنعاء ، وطلب العلم على شيوخها ، ولم يرحل في طلب العلم لظروف ذكرها في ترجمته لنفسه ، وقد بلغ رتبة الاجتهاد وترك الالتزام بالمذهب الزيدي الذي تفقه به ، ومصنفاته في فنون العلم كثيرة في التفسير والحديث والفقه والعقائد والتراجم ، وتوفي بصنعاء سنة ١٢٥٠ « انظر البدر الطالع له ٢٠ /٢١٤ - ٢٢٥ .

قد صاروا تحت أطباق الثرى ولقو ربهم في المائة الأولى من البعثة وها نحن الآن في المائة الثالثة[١٩٣] عشر ، فما لنا والاشتغال بهذا الشأن الذي لا يعنينا ، « ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه »[١٩٤] ، وأي فائدة لنا في الدخول في الأمور التي فيها ريبة ، وقد أرشدنا إلى أن ندع ما يريبنا إلى مالا يريبنا[١٩٥] ، ويكفينا من تلك القلاقل والزلازل أن نعتقد أنهم خير القرون وأفضل الناس »[١٩٦] ، إلى أن قال « فرحم الله امرأ اشتغل بما أوجبه الله عليه وطلبه منه ، وترك مالا يعود عليه بنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل يعود عليه بالضر ، ومن ظن خلاف هذا فهو مغرور مخدوع قاصر الباع عن إدراك الحقائق ومعرفة الحق على وجهه كائنا من كان »[١٩٧] .

وما أحسن ما قال إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل[١٩٨] ، وقد سئل عن الفتن أيام الصحابة فما زاد أن تلا قول الله – عز وجل ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾[١٩٩] . وهذا الذي قرره الأئمة – رحمهم الله – هو الحق الذي تؤيده النصوص الشرعية وتقتضيه القواعد المنهجية ، قال تعالى زاجرا المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقوها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾[٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾[٢٠١] ، فقد أمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع

---

(١٩٣) أي عصر المؤلف .
(١٩٤) رواه مسلم في المقدمة ١ /١٠ .
(١٩٥) جزء من حديث رواه أحمد والترمذي والنسائي ، وسنده صحيح كما قال محقق المشكاة ٢ /٨٤٥ .
(١٩٦) إرشاد السائل إلى دلائل المسائل ص ٤٥ .
(١٩٧) نفس المصدر ص ٤٦ .
(١٩٨) حافظ حكمي ، معارج القبول ٢ /٤٩١ .
(١٩٩) سورة البقرة آية ١٣٤ و١٤١ .
(٢٠٠) سورة النور آية : ١٢ .
(٢٠١) سورة النور آية ١٦ .

السيئات ، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم ، ولا يعتبروا كلام أهل السوء الذي يناقضه ويقدح فيه . « وقد دلت الآيتان على قاعدة جليلة وهي الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق للخروج من الشبهات والتوهمات ، وقد يعبر عنها بأن الموهوم لا يدفع المعلوم وأن المجهول لا يعارض المحقق »(٢٠٢) ، وقد قال تعالى ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾(٢٠٣) ، وقال تعالى ﴿ يأيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا .. الآية ﴾(٢٠٤) ، وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾(٢٠٥) ، فقد أمر سبحانه بالتبين والتثبت في خبر الفاسق دون العدل والثقة ، حتى لا نصيب أحدا بجهالة وظلم وقالة سوء ، وقد جاء في الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »(٢٠٦) وقوله « كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع »(٢٠٧) .

لقد دلت هذه النصوص على القاعدة المنهجية التي يجب التمسك بها ، وهي الرجوع إلى الأمر المعلوم الثابت ، وأن هذا الأمر لا يدفع بالظنون والشبهات والأوهام ، وأنه لابد من الرجوع إلى المصادر الأصلية لمعرفة الحقيقة ،(٢٠٨) فلا يؤخذ من الكذابين والفاسقين ، لأن فسقهم يدفعهم إلى تصوير الأمر على خلاف ما هو عليه ، وأن المرء المسلم لابد له من التثبت والتحقق مما يسمع وأن لا يأخذ من كل من هب ودب ،(٢٠٩) ثم يرويه قبل

---

(٢٠٢) انظر عبدالرحمن بن ناصر السعدي . القواعد الحسان لتفسير القرآن ١٩٥ .

(٢٠٣) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .

(٢٠٤) سورة الحجرات آية : ١٢ .

(٢٠٥) سورة الحجرات آية : ٦ .

(٢٠٦) متفق عليه وسبق تخريجه .

(٢٠٧) رواه مسلم من حديث أبي هريرة ١ /١٠ .

(٢٠٨) قال تعالى ﴿ كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ آل عمران ٩٣ « فردهم إلى المصدر الأعلى ولم يصدقهم بمجرد الدعوى . انظر تفسيرها في ابن كثير ٢ /٦١ .

(٢٠٩) كان السلف – رضي الله عنهم – لا يحملون العلم إلا من الثقات العدول ، لذلك تجد في كتبهم مثل =

معرفته لحاله ثم بيان ذلك ، وإلا كان من الكذابين .

٤ – معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والمبتدعة :

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التي تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التي ضلت الطريق وفارقت الصراط المستقيم ، إما بدعوى تأويل غير سائغ ، أو استجابة لشهوة وهوى ، أو عن زندقة وكفر ، وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكي تعلم وتعرف ، حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبي الحسن الأشعري « ت ٣٣٠ » في مقالات الإسلاميين ، وأبي الحسين الملطي الشافعي « ت ٣٧٧ » في « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » ، وأبي محمد بن حزم « ت ٤٥٦ » في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ومثل أبي الفتح الشهرستاني « ٥٤٨ » في كتابه الملل والنحل كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم ، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ، ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدون الأخبار وصاغها وفقا لمعتقده الديني ومذهبه السياسي ، فأبرز مثالب خصومه وأخفى كثيرا من جهودهم وحسناتهم ، ولأجل هذا فإنه لابد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على مؤلف ما يرجع إليه من المصادر ، فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسي والمذهبي ، لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التي يوردها ذلك المؤرخ بما تَكَوَّن لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه ، ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى ، ومما عند الثقات العدول مس المسلمين .

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا ، هي بحسب موضوع الرواية :

= هذه الأبواب « نهي الرجل أن يأخذ العلم إلا ممن تقبل شهادته ، ويكون مشهورا بالطلب ، وباب صفة من لا يؤخذ عنه العلم » باب صفة من يؤخذ عنه العلم » انظر مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ص ٢٤٠ و٢٤٢ و٢٤٧ .

١ – فما كان متعلقا بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته ، فإن علماء أصول الحديث قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين :(٢١٠) فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض الذين يسبون أبا بكر وعمر ، ويكفرون الصحابة ، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعيلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة كالخرمية والحلولية والثنوية ، فهؤلاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة(٢١١) . والقسم الثاني المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة ، فمن كان منهم معروفا بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته ، وهذا شرط في كل راو مبتدعا أم غير مبتدع ، ومن كان مشهورا بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته ، حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيدا لبدعته ، واحتجوا لهذا بإخراج البخاري في صحيحه لعمران ابن حطان الخارجي مادح عبدالرحمن بن ملجم – قاتل علي رضي الله عنه – فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته ، ولكن لَمَّا عُرِفَ بالورع والتقوى وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه(٢١٢) .

٢ – وما كان متعلقا بالإخبار عن أهل السنة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية ، فهذا ينظر فيه إلى تعصب الراوي من عدمه ، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره ، لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة وكما قيل :

---

(٢١٠) هذا التقسيم هو الذي استقر العمل به عند المتأخرين من نقاد الحديث وعلماء الجرح والتعديل ، وقد رجحه ابن الصلاح والنووي والذهبي والعراقي وابن حجر العسقلاني ، أما المتقدمون فقد نقل عن جمع منهم أقوال تفيد رد رواية كل مبتدع ، دون تفريق بين الداعية وغيره ، نقل ذلك عن محمد بن سيرين كما في مقدمة صحيح مسلم ١ /١٥ وعن ابن المبارك (مقدمة صحيح مسلم ١ /١٦ وعن الإمام مالك كما في الكفاية للخطيب البغدادي ص ١٩٤ .

(٢١١) راجع الذهبي ، ميزان الاعتدال ١ /٤ في ترجمة أبان بن تغلب ، فقد فصل في ذلك وبين بيانا شافيا .

(٢١٢) انظر الحافظ بن كثير ، اختصار علوم الحديث ص ١٠٠ ، السيوطي تدريب الراوي ١ /٣٢٤ – ٣٢٩ . ويلاحظ أن البخاري لم يخرج في صحيحه إلا حديثاً واحداً في المتابعات كما قال الحافظ في مقدمة الفتح ص ٤٣٣ ومعلوم أن المتابعات يتساهل فيها ما لم يتساهل عنه في الأصول .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلا في ذاته فيسبر خبره ، ويقارن بغيره من الأخبار ، وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي .

٣ – والزاوية الثالثة في النظر هي روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذهبهم ، وهذا كالإقرار منهم ، فهو حجة عليهم ، خاصة حكاية أقوالهم ومذاهبهم ، فهم أعرف ببعضهم بعضا وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية ، وكما قيل في المثل « من فمك أدينك » .

وها هنا مسألة يجدر التنبيه عليها ، وهي أن بعض الباحثين المعاصرين يطلقون القول بأنه لا تقبل أقوال أهل المذاهب والأديان والفرق المتخالفة بعضهم في بعض ، فلا يقبل مثلا قول اليهود في النصارى ، ولا قول النصارى في المسلمين ، ولا قول المسلمين في النصارى واليهود ، ولا قول الشيعة في السنة ، ولا قول السنة في الشيعة والمعتزلة[٢١٣] . وهذا القول فيه خطأ منهجي علمي من عدة وجوه : فأولا أقوال أهل الفرق وشهادة بعضهم على بعض ليست مرفوضة بإطلاق ، إنما كل قول ظهر أن الحامل عليه هو التعصب فهو الذي يرفض ، أما ما عدا ذلك فمن الممكن قبوله وفق معايير معينة سبقت الإشارة إلى بعضها .

---

(٢١٣) انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام ص . د من مقدمة الجزء الثالث .
وانظر كذلك زهدي جار الله ، المعتزلة ص ك ل من المقدمة « ط القاهرة ١٣٦٦ هـ » وانظر الشيخ جمال الدين القاسمي ، تاريخ الجهمية والمعتزلة . فقد أشار إلى هذا من طرف خفي ، وبناء كتابه يدل على ذلك ، وانظر على وجه الخصوص الصفحات ١٦ ، ٤٣ ، ٦٩ ، ١٠٣ . وانظر : خالد العسلي جهم ابن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي (ط – بغداد ١٩٦٥ م) الصفحات ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، حيث اتهم كلا من الإمام أحمد وابن قتيبة والدارمي وابن القيم بالتحيز والتعصب على الجهمي وإبراز مساوئهم ، وفي ص ٢٠ و٢٠٧ ذكر أن الأحاديث النبوية الواردة في الصحاح لا تعبر إلا عن وجهة نظر بعض المسلمين ، وخاصة المحدثين ، وأنهم أثبتوا هذه الأحاديث لكي يفهموا المسلمين أن آراء جهم مناهضة للإسلام !!
وانظر أيضاً محمد أبو زهرة . الإمام زيد بن علي ص ٢٣٤ حيث ذهب إلى عدم قبول تخريج أهل السنة في علماء ورواة الفرق الأخرى بسبب الاختلاف في العقيدة !!

ثانياً أقوال العدول الثقات – ولا عدالة مع غير الإسلام – التي إذا سبرت وتتبعت وجدت مطابقة للحق والواقع مقبولة بإطلاق .

وليس من العدل والإنصاف أن نساوي بين المسلمين والكافرين والحق والباطل ، قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾[٢١٤] ، لأن المسلم هو الوحيد الذي يقوم على رعاية الحق وحراسته والعمل بمقتضاه بموجب تكليف رباني ، لذلك فهو الشاهد على البشرية بما عملت ، قال تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[٢١٥] فإذا ألغينا شهادته – كما يرى هؤلاء الكتاب – فمن يقم بالحق ويشهد به ..؟ أيكون الملحدون والعلمانيون والمتحررون من الأديان أولى بالشهادة وقول الحق من المسلم ؟ إن هذا لا يقول به عاقل ، وذلك أن المسلم لديه من الموانع عن الكذب ما ليس لدى غيره ، يقول العلامة الشيخ عبدالرحمن المعلمي « ت ١٣٨٦ » « وأما كتاب العصر فإنهم مقتدون بكتاب الإفرنج الذين يتعاطون النظر في الإسلاميات ونحوها ، وهم مع ما في نفوسهم من الهوى والعداء للإسلام إنما يعرفون الدواعي إلى الكذب ولا يعرفون معظم الموانع منه » .

فمن الموانع التدين والخوف من رب العالمين الذي بيده ملكوت الدنيا والآخرة ، وقد قال سبحانه ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾[٢١٦] ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ « علامة المنافق ثلاث ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا وعد أخلف »[٢١٧] ، وإخلاف الوعد أغلب ما يكون إذا كان الوعد كذبا ، والخيانة تعتمد الكذب كما لا يخفى ، وقال أبو بكر الصديق « الكذب مجانب للإيمان » .

---

(٢١٤) سورة القلم آية : ٣٥ – ٣٦ .

(٢١٥) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢١٦) سورة النحل آية : ١٠٥ .

(٢١٧) رواه البخاري ١ /١٤ . ومسلم ١ /٧٨ .

وأولئك الكتاب لا يعرفون هذا المانع لأنهم لا يجدونه في أنفسهم ، ولا يجدون فيمن يخالطونه من تقهقرهم سيرته على اعتقاد اتصافه بهذا المانع ، لضعف الإيمان في غالب الناس ورقة التدين ، ولا يعرفون من أحوال سلف المسلمين ما يقهرهم على العلم باتصافهم بذلك المانع ، لأنهم إنما يطالعون التواريخ وكتب الأدب كالأغاني ونحوها ، وهذه الكتب يكثر فيها الكذب والحكايات الفاجرة ، كان فجرة الإخباريين يضعون تلك الحكايات لأغراض منها دفع الملامة عن أنفسهم وترويج الفجور والدعاية إليه ، وترغيب الأمراء والأغنياء في الفجور وتشجيعهم عليه ، والتقرب إلى الأمراء والأغنياء بالحكايات الفاجرة التي يلذ لهم سماعها إلى غير ذلك ، وما في هذه الكتب من الصدق إنما يصور طائفة مخصوصة كالأمراء والشعراء والأدباء . ولو عكف أولئك الكتاب على كتب السنة ورجالها وأخبارهم لعلموا أن هذه الطائفة كان ذلك المانع غالبا فيهم .

ومن الموانع من الكذب خوف الضرر الدنيوي ، وأولئك الكتاب يعرفون شرط هذا المانع وهو لحوق الضرر المادي ، أما شطره المعنوي فإن أولئك الكتاب لا يقدرون قدره .

وقد كان العرب يحبون الشرف ويرون أن الكذب أفحش العيوب المسقطة للرجل ، كما في قصة أبي سفيان بن حرب مع هرقل الروم ، عندما سأله عن النبي ﷺ وطلب من أصحابه أن إذا كذب أن يكذبوه ، قال أبو سفيان : « فوالله لولا الحياء أن يأثروا عليَّ كذبا لكذبت عليه »(٢١٨) ولا شك أن أبا سفيان كان واثقا أن أصحابه لن يكذبوه أمام هرقل ، ولكنه أنف من الكذب وخاف أن يعير به فيما بعد .

---

(٢١٨) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل ١ /٢٧ – ٢٨ . وقصة أبي سفيان رواها البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي .

٥ - معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين :

عرفنا في القاعدة السابقة أنه يتوجب على المؤرخ عندما يرجع إلى أي مصدر أو مرجع أن يتعرف على مؤلفه واتجاهه الفكري والسياسي ، وعلى ضوء هذه المعرفة يستطيع أن يأخذ منه وفق ضوابط محددة ، وفي هذه القاعدة نحاول التعرف على الضوابط الواجب مراعاتها ، والالتزام بها عند الحاجة إلى الرجوع لمصدر مؤلفه غير مسلم .

وهذه الضوابط لابد منها ، لأن المسلم صاحب منهج مستقل في تصوره وغايته وطريقة عمله ، ومنهجه هذا رباني متلقي من الله بواسطة رسوله ﷺ ، ومن خصائصه الكمال والشمول ، ولذلك لا يحتاج إلى شيء من غيره . كما أن له الهيمنة والحكم على كافة المناهج ، قال تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله . الآية ﴾[٢١٩] .

والنظر إلى كتب غير المسلمين للأخذ منها يكون بحسب الموضوع .

فإذا كان الموضوع متعلقا بديانتهم وهي ديانة وثنية فإنه حينئذ لا بأس من الأخذ عنهم مع النظر والمقارنة ، أما إذا كانوا من أهل الكتاب وما يذكرونه عن ديانتهم ينسبونه إلى الله - سبحانه وتعالى - أو إلى رسولهم أو غيره من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - فإن هذا لا يقبل منهم ولا يؤخذ عنهم إلا وفقاً لضوابط رواية الإسرائيليات التي مرت في القاعدة الثانية من قواعد المصادر ، حتى لا ننسب إلى الله أو إلى رسول من رسله ما لم يقله .

وإذا كان الموضوع متعلقا بديننا من شرح ، أو تفسير ، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية ، أو على علم من علوم الإسلام ، أو نظام من النظم الإسلامية ، أو دراسة لسيرة النبي ﷺ ، فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه ، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال ، لأنهم ليسوا أهلا أن

---

(٢١٩) سورة المائدة آية : ٤٨ .

يؤخذ عنهم شيئ من دين الله ، ولأن من شروط البحث في هذه القضايا الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط ، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة !! بل يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم . إن القول في الأحكام الشرعية وفي النظم الإسلامية وفي تقدير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة ، أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولخلافه لو خالف(٢٢٠) .

أما إذا كان ما في كتبهم ليس له تعلق بشيء من الأنواع السابقة ، فإنه يخضع لموازين النقد العلمي وما ثبت منه لا شيء على من أخذ به ، ولاسيما إذا كان ذلك وصفا لحالهم وأوضاعهم ومعاشهم لأنهم بها أخبر ، ولها أدرى .

---

(٢٢٠) علماء الأصول يقسمون الخلاف في فروع الأحكام إلى خلاف معتبر ، وهو ما يكون بين الصحابة وعلماء الصدر الأول وأئمة المذاهب الأربعة والعلماء المجتهدين ، نظرا لوحدة المصدر ، واختلاف الفهم .
وخلاف غير معتبر ، مثل خلاف « الشيعة الإمامية وغيرهم من الطوائف الضالة ، لأن مصدر التلقي عندهم غير مصدر التلقي عند جمهور الأمة . ولذلك لا يعتد بخلافهم ولا يذكر في كتب الفقه . فكيف الحال بمن يذكر خلاف الكفار الأصليين ؟ .

قواعد في الأسلوب والعرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التي يعرض بواسطتها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتني به . ويراعى المستوى العلمي والوسط الاجتماعي الذي يكتب له ، بحيث يكون واضحا ومؤديا للأهداف العلمية التي قصدها من بحثه .

وبما أن دراسة التاريخ في حس المسلم مرتبطة بعقيدته ، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته ، فإنه يتوجب عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتابة وطريقة العرض والتي نوردها فيما يلي :

١ - جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه :

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعي للحادثة التاريخية ، مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها ، وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة .

وعليه أن يتابع تأثير العقيدة في الحوادث والوقائع وتوجيهها لها ، وعليه أن يعتني بعرض النتائج المترتبة عن الالتزام بالعقيدة ، من حصول النصر والتمكين(٢٢١) في الأرض وتدفق الخيرات(٢٢٢) ، وانتشار الأمن والطمأنينة في

---

(٢٢١) قال تعالى ﴿ وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا .. ﴾ النور ٥٥ .

(٢٢٢) قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض .. ﴾ الأعراف ٩٦ ، وقال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ سورة الجن آية ١٦ .

النفوس وانقطاع سبل الفساد ، وأيضا عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقيدي ، أو التقصير في ذلك .

قال تعالى : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم ءاية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾(٢٢٣) فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم ، فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل في المثل « تفرقوا أيدي سبأ » وهذه سنة الله في كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله .

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى هذه العقيدة وتمسكت بها حصل لها السعادة والتمكين في الأرض ، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الاجتماعية والخلقية ، وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء .

فالارتكاز على محور العقيدة والتذكير به في كل مناسبة ، وربط الحوادث به وبمقتضياته هو أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء – عليهم السلام – فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله ، ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم ، ويجعل القصص ونتائجه مرتبطاً بذلك .

٢ – التركيز في العرض على الأهداف والغايات :

المؤمن له في الحياة هدف وغاية عليا يسعى دائما لتحقيقها وهي عبادة الله وحده ، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث فإنه لا ينظر إلى هذه الدراسة إلا كوسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا ، فلا ينفق كل جهده في الوسيلة ويترك الغاية ، ولذلك ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة ، له وعن الاعتبار الذي يترك في النفس أثرا ، وإنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور

---

(٢٢٣) سورة سبأ ، الآيات : ١٥ – ١٧ .

لا طائل تحتها ولا تعود على البحث بفائدة . وليست من هدف المسلم ولا غايته في الحياة .

إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعي ، فلا بأس حينئذ من البحث عنه ومحاولة إثباته ، وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا في عدد أصحاب الكهف حيث قال تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب . ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل . فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم أحدا ﴾[٢٢٤] ، فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص منه أن الناس دائما يتعلقون بالأمور الجانبية التي لا فائدة ترجى من وراء معرفتها ، ويختلفون في ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ، ويتركون المقاصد والأمور المهمة ، وهي أخذ العبرة من وراء سياق القصة . وإنه ليستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر . فالعبرة في أمرهم حاصلة بالعدد القليل أو الكثير[٢٢٥] ، ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية ، فالذي يجب على المسلم هو التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها في كل مناسبة .

٣ – أن يكون العرض موحيا بتحبيب الخير وتبغيض الشر :

المؤرخ المسلم ليس ناقلا لما قيل وما حدث في الزمن الماضي فقط ، إنما هو صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية ، وميزانه في معرفة الخير والشر ليس عرف الناس ، ولا ما تواضع عليه أهل زمن ، أو قررته هيئة من الهيئات ، أو زعيم من الزعماء ، إنما ميزانه هو شرع الله ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة ، أو تاريخ شخصية من الشخصيات ، أو دولة من الدول ، وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر

---

(٢٢٤) سورة الكهف آية : ٢٢ .

(٢٢٥) حول تفسير الآية راجع تفسير ابن كثير ٥ /١٤٤ وسيد قطب في ظلال القرآن ٥ /٢٢٦٥ .

والمراجع ويتثبت غاية التثبت ، ثم عليه أن لا يظهر الباطل بمظهر الحق ، ولا يظهر الخير بمظهر الشر ، إنما يسمي الأشياء بأسمائها الشرعية ، فالحق حق مهما كان فاعله ، والباطل باطل مهما كان قائله ، والميزان هو شرع الله . فإذا رأى غدرة أو ظلمًا أو إهانة لأحد أو تعدياً لحدود الله فإنه لابد أن ينبه على أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله ، وإذا رأى عدلا وإحسانا وجهادا في سبيل الله وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر أشاد به ومدح صاحبه ، ليكون قدوة في هذا الفعل الطيب وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته .

٤ - إبراز دور الأنبياء وأثرهم في تاريخ البشرية :

الأنبياء - عليهم السلام - يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق في هذا الوجود بما علمهم الله وأنبأهم به من الوحي ، وقد جاءوا بعقيدة واحدة هي إفراد الله بالعبادة ، والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله .

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، وهو الدين الذي لا يقبل الله سواه ، قال تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٢٢٦) ، وقال ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾(٢٢٧) .

ودور الأنبياء وأتباعهم يمثل في تاريخ البشرية كلها خطا مستقلا ومرتبطا بعضه مع بعض ، من آدم إلى محمد ﷺ ، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف عصورها ، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزبا واحدا في مقابل أمة الإسلام ، ودعوة الحق ، وحزب الرحمن ، وأتباع الرسل والأنبياء .

والتاريخ البشري كله منذ أن خلق الله آدم - عليه السلام - وأسكنه الأرض وكلفه بالخلافة فيها وأنزل عليه الهدى ، يمثل صراعا بين الحق والباطل .

---

(٢٢٦) سورة آل عمران آية ١٩ .

(٢٢٧) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

بين أتباع الهدى وأتباع الضلال ، فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه ، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ آرائهم وأهواء طواغيتهم ، وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وينفذوا منهج الله نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار وتفيض فيها الخيرات ، وذلك أن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون . قال تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾(٢٢٨) ، وقال ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾(٢٢٩) .

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم – ولا أظلم من الشرك بالله – وتبتلى بالمصائب ،(٢٣٠) حتى إن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين . قال تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾(٢٣١) ، بل إن قطع دابر الظالمين من النعم التي تستوجب شكر الله وحمده ، قال تعالى : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(٢٣٢) ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب » (٢٣٣) ، فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا المقت والسخط .

ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذي قام به رسول الله – عليهم السلام – وخلفهم عليه أتباعهم ، وأن يتتبع آثاره في الحياة

---

(٢٢٨) سورة الأحقاف آية : ٣ .
(٢٢٩) سورة الجن آية : ١٦ .
(٢٣٠) الأمثلة الواقعية في التاريخ على كلتا الحالتين أكثر من أن تحصى ، وانظر على سبيل المثال أبو الحسن الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ فصل الإنسانية في الاحتضار ، وفصل رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام ، وفصل المجتمع المسلم ، وانظر كذلك سيد قطب ، خصائص التصور الإسلامي ، فصل تيه وركام .
(٢٣١) سورة الدخان آية : ٢٩ .
(٢٣٢) سورة الأنعام آية : ٤٥ .
(٢٣٣) طرف من حديث طويل رواه مسلم في كتاب الجنة ٤ /٢١٩٧ .

البشرية ، في عمارة الأرض ، وفي أخلاق الناس وفي آدابهم وثقافاتهم وأنظمتهم وفي أفكار دعاة الإصلاح وخططهم .

فإن كلمة الحق لا تضيع هباء ولابد أن تترك أثرا . ولقد امتن الله سبحانه وتعالى – على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم ءاياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾(٢٣٤) .

وقال : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم ءاياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾(٢٣٥) ، وفي آية سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾(٢٣٦) .

فهو الذي زكى أخلاقهم وعلمهم الكتاب والحكمة وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ورفعهم من الضلال المبين الذي كانوا فيه قبل بعثته إلى الهدى والنور والصراط المستقيم .

٥ – تحري استعمال المصطلحات الإسلامية :

لقد كان من تأثير الغزو الفكري الأوربي للمسلمين أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم ، حتى كادت أن تختفي المصطلحات الإسلامية ، ووقع في ذلك كثير من الكتاب الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي مع أن كثيرا منهم لا يتهمون في دين ولا صدق نية ، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلماني الوافد . الذي لم يعد يسلم منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية ، فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامي ليس في مجال التاريخ الإسلامي وحده ، وإنما في

---

(٢٣٤) سورة البقرة آية : ١٥١ .
(٢٣٥) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(٢٣٦) سورة الجمعة آية : ٢ .

أغلب كتب الثقافة الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نوع له بريق ومعاني مضللة ، مثل الوحدة العالمية ، الإخاء الإنساني ، السعي لخدمة البشرية ، السلام الدولي ، والتعاون العالمي ، المساواة ، الحرية ، زمالة الأديان ، التقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية .. الخ تلك العبارات الموهمة وغير المحددة الدلالة ، والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنّانة ويأخذه بريقها ، يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعي ويسأل نفسه ما هي أصول الوحدة التي ندعو لها بمثل هذه العبارات ، وما ركائزها ؟ وعلى أي أساس نقيم هذه الوحدة العالمية ؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة ، على أي منهاج تقام وما هو المفهوم والميزان الذي يحدد دلالة هذه الألفاظ ، وما ضوابط ذلك ؟ ثم هذا التقارب بين الأديان وهذه الزمالة والتعاون ضد الإلحاد على أي منهج يقوم ؟

إن هناك منهجا ربانيا واحدا ومئات من المناهج والمفاهيم الجاهلية ، فهل المقصود هو إقامة البشرية على المنهج الرباني والعبودية لله وحده وتحكيم شريعته ؟ أم المقصود إقامة خليط من هذه المناهج والمفاهيم المتضادة ؟! يجب أن يكون واضحا في تصور المسلم وعقيدته أنه لا التقاء بين الحق والباطل ، ولا بين الهدى والضلال ، ولا بين الإسلام والكفر ، وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه وتعددت طرقه وتباينت درجاته فإنه ملة واحدة ، سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مشركين وثنيين أو شيوعيين .. وليعلم أن منهج الرسل – عليهم السلام – في إقامة الدين الحق لم يكن على شئ من هذا الخليط ، إنما قام على البراءة من الشرك والمشركين وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام .

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوربية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكتاب المسلمين ، وهي ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية ، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعي والظروف التاريخية والثقافية التي لابست نشوء هذا المصطلح أو ذاك ، مثال ذلك مصطلح الديمقراطية ، والاشتراكية ، والثيوقراطية ، والدكتاتورية ، والإمبراطورية واليمين ، واليسار ، والمحافظين ، والليبرالي ، والإمبريالي والأحرار ، والارستقراطية .. الخ ، فمثلا الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل كمرادف أو

بديل لمصطلح « الشورى » في المفهوم الإسلامي ، لأن الشورى في الإسلام مقيدة بالنصوص الشرعية ، بينما الديمقراطية تعني في أبسط معانيها « حكم الشعب بالشعب للشعب » أي أن الشعب هو مصدر التشريع .. ومثال آخر مصطلح الاشتراكية لا يمكن أن يكون بديلا لمعنى التكافل الإسلامي ؛ لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقي مع أهداف المذهب الاقتصادي الاشتراكي في طريق ولا منهج ، وقد تابعنا المستعمرين - مع الأسف - حتى في التوزيع الجغرافي والتوزيع التاريخي الذي استخدموه ، وتلقينا مصطلحاتهم في ذلك وسلمنا لهم ، ولو فَكَّرْناَ قليلاً لأدركنا المعاني الحقيقية لهذه المصطلحات وأنه لا ارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا ، فمثلا في التوزيع الجغرافي يقولون : الشرق الأدنى والشرق الأوسط . والشرق الأقصى . وذلك أن المستعمر الأوربي اعتبر نفسه في مركز الأرض فاطلق هذا التوزيع بالنسبة لموقعه ،(٢٣٧) وكذلك التوزيع التاريخي مثل العصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة ، وهذا التوزيع متميز بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوربا ، مما يجعل لكل فترة من هذه الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة ، تبعا للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التي عاشتها أوربا في كل حقبة من هذه الحقب ، بينما التاريخ الإسلامي بما فيه تاريخ الأنبياء يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظم السائدة والتي لا تتبدل تبعا لتبدل الزمان والدول والحكام ، لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل ، وإذا كان القصد من التوزيع إلى عصور لغرض التأليف - والدراسة ، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوربي ولا متابعتهم عليه ، لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره . ومما يبعث في النفس أسى وحسرة أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة في التاريخ ينبهرون من تقدمها فَيُضْفُونَ عليها روح التقدم والحضارة ، ويثنون عليها ثناء كثيرا ويفخرون بمنجزاتها وآثارها ، وتجدهم كذلك يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول

---

(٢٣٧) لما كان المسلمون في أوج عزهم وكانت بغداد هي عاصمة الأرض الإسلامية كلها كانت الدويلات التي قامت في ظل الخلافة العباسية شرق بغداد تسمى الدويلات المشرقية والتي غرب بغداد تسمى الدويلات المغربية . فجعلوا بغداد هي المركز .

الكافرة المعاصرة كقولهم العالم المتحضر ، والعالم المتقدم ، والدول العظمى ، في حين يسمون الدول الإسلامية ، بالبلدان النامية والعالم المتخلف أو دول العالم الثالث .

وكل هذا الانبهار والإعجاب من فقدانهم للميزان القرآني لمعنى التقدم والحضارة ، ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التي وجدت في هذه الدول ومن نسيانهم للسنة الربانية التي دل عليها قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(٢٣٨) .

ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله التي هي أوثق عرى الإيمان .

٦ - الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء :

ومما يلزم المؤرخ ملاحظته في عرضه أن لا يستعمل أسلوب التعميم ، وإنما تكون عباراته محددة الدلالة ، واضحة المعنى ، وأن لا يطلق حكما عاما على أهل بلد ، أو على أهل زمان ، أو على جنس من الأجناس ، أو ينفي حدوث واقعة معينة . قبل حصول الاستقراء التام .

فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وموقف أهل المدينة من ذلك ، لا يصح أن نقول إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته أو رغبوا في قتله . أو نقول كما تقول الطائفة المخذولة - الروافض - إن الصحابة أجمعوا على قتله ، وأنَّى لهم مثل ذلك !! بل نقول : إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة ، ولكنه - رضي الله عنه - منعهم من ذلك وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار ، لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله ، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله وفرح بالشهادة ، وتأول

---

(٢٣٨) سورة الأنعام آية : ٤٤ .

حديث رسول الله في تبشيره بالجنة على بلوى تصيبه[٢٣٩] . بهذا الأمر الذي وقع له من حصار الثوار .

ومثل ، أن نأتي إلى مجتمع من المجتمعات أو عصر من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى مائة من الشعراء الماجنين ، فنقول : إن ذلك العصر عصر مجون وتهتك وخلاعة .

فمن المعروف أن كل مجتمع يحوي عناصر مختلفة من الصالحين والطالحين ، والحكم يكون للغالب منهما ، كما أنه لا يجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف فنقول مثلا إن أسرة بني أمية أسرة ظالمة ، أو نقول إن فرقة المرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقون ، لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيرين أو العوام أو المجتهدين المتأولين ، غير أن الحكم كما قلنا يكون للغالب .

(٢٣٩) رواه البخاري ، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٧ / ٥٣٠ كما قد روى عن عثمان أنه رأى رسول الله في المنام أثناء حصار الثوار فسأله رسول الله ودعاه للإفطار معه ، مما شوقه - رضي الله عنه - للقاء الله فمنع الحرس وطلب منهم الخروج عنه والتخلية بينه وبين الثوار ، انظر ذلك مفصلاً في البداية والنهاية ٧ /١٨١ - ١٨٣ .

« الخاتمـــة »

- تعليقة موجزة عن الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي
- نتائج البحث

تعليقة عن الانحرافات الواقعة في كتابة التاريخ الإسلامي :

بعد الفتن والأحداث الداخلية التي وقعت في صدر الدولة الإسلامية ، والتي كان وراء إثارتها أيدي شريرة تعمل في الخفاء من اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم - الذين أخبر الله عن عداوتهم وكيدهم لهذا الدين - نشأت الفرق والأحزاب ، وظهرت الطوائف والأهواء المنحرفة عن السبيل السوي ، فأخذت كل فرقة تلبس ثوب الحق زورا ، وتدعى أنها تعمل لأجله ، وتضع من الأحاديث التي تنسبها إلى النبي ﷺ ما يؤيد مذهبها الذي ابتدعته ، وتؤول من آيات القرآن الكريم ما استطاعت - لأنها لا تستطيع أن تضع الآيات القرآنية أو تزيد فيها كما وضعت الأحاديث ، لأن القرآن محفوظ في الصدور ومدون بكامله في المصاحف[1] - وبهذا نشأ الوضع في الحديث النبوي ، كما شمل الوضع الأخبار والأحداث التاريخية ، مما جعل علماء المسلمين يطبقون في

---

(١) ورغم هذا فقد كذبت الشيعة الإمامية ، فادعت أن في القرآن نقصا وزيادة ، وأن عندهم مصحفا يسمونه مصحف فاطمة ، ما فيه مما في القرآن حرف واحد ، وأصدر علامتهم المفترى المسمى بالنوري كتابا سماه « فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب » اطلعت على نسخة مصورة لمخطوطته ، ولدي نسخة عنها .

المرويات مبدأ من أين لك هذا ؟ . فإذا جاء شخص برواية سئل عمن حدثه بها ، فسجلت الأخبار والأحداث بأسانيدها في غالب الأحيان ، غير أنها لم تلق من النقد والتمحيص ما لقى الحديث النبوي ، بل كان من مناهج العلماء التساهل في رواية الأخبار كما قدمنا ، ولقد دخل لميدان التاريخ من أتباع الفرق المنحرفة وأهل الأهواء العديد من الرواة والإخباريين والقصاص والمؤرخين ، فابتدعوا الروايات الكاذبة ونشروها ، مما أصاب تاريخ الصدر الأول بكثير من التشويه والتحريف .

وإن من أعظم الفرق أثرا في تحريف التاريخ الإسلامي الشيعة بمختلف طوائفها وفرقها ، فهم من أقدم الفرق ظهورا ، ولهم تنظيم سياسي وتصور عقائدي ، ومنهج فكري ، وهم أخلاط من اليهود والنصارى والمجوس والملاحدة والباطنية ، الذين اتخذوا سمة التشيع لآل بيت النبي ﷺ ستارا لبلوغ أغراضهم في هدم الدين الإسلامي وتحريف تعاليمه ،[٢] وهم أكثر الطوائف كذبا على خصومهم وهم يدينون بالتقية التي هي كذب في حقيقتها ، ويزعمون أن جعفر الصادق قال « التقية ديني ودين آبائي »[٣] ، وقد وصفهم شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله : « ولا يوجد في جميع الطوائف أكذب منهم ، ولا أظلم منهم ، ولا أجهل منهم ، وشيوخهم يقرون بألسنتهم يقولون : يا أهل السنة أنتم فيكم فتوة ولو قدرنا عليكم ما عاملناكم بما تعاملونا به عند القدرة علينا »[٤] ، ويقول الشيخ طاهر الجزائري أثناء محاورة جرت بينه وبين أحد علماء الشيعة هو الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء : « ... ونحن قد راقبنا سيرة أهل العلم والأدب في مختلف الطوائف ، فرأينا أكثر ما خولف به الحق تعصبا وتعنتا كان من ناحيتكم ، بل لاحظت أن كل أديب ومؤرخ منكم يرى فرضا عليه أن يخترع مالم يسبقه إليه سلفه من خبر موضوع أو قصة مخترعة

---

(٢) راجع أبو الحسين الملطي ، التنبيه والرد ص ١٨ – ٣٤ ، وإحسان إلهي ظهير الشيعة والسنة ص ٢٤ – ٣٩ ود /عبدالله محمد الغريب ، وجاء دور المجوس فصل ماذا وراء تشيع المجوس لأهل البيت ص ٥٦ وما بعدها .

(٣) الذهبي ، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٦٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٨٨ .

تشويها لسيرة السلف ، فإذا رجعنا إلى الكتب المتقدمة عليه لا نجد لذلك أثرا ، فكأن الواحد منهم يرى من زكاة تشيعه أن يخترع ما يشين سيرة خيار المسلمين ، ليتناقله الناس من بعده ويحسبه الجاهلون حقا »(٥) .

كما أنهم من أشد الناس خصومة للصحابة – رضي الله عنهم – وسب الصحابة وتكفيرهم(٦) من أساسيات معتقدهم وأركانه وخاصة الشيخين أبي بكر وعمر ويسمونهما الجبت والطاغوت(٧) .

وقد كان للشيعة أكبر عدد من الرواة والإخباريين الذين تولوا نشر أكاذيبهم ومفترياتهم ، وتدوينها في كتب ورسائل عن أحداث التاريخ الإسلامي ، خاصة الأحداث الداخلية .

كما كان للشعوبية والعصبية أثر في وضع الأخبار التاريخية والحكايات والقصص الرامية إلى تشويه التاريخ الإسلامي ، وإلى إعلاء طائفة على طائفة أو أهل بلد على آخر ، أو جنس على جنس ، وإبعاد الميزان الشرعي في التفاضل وهو ميزان التقوى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(٨) .

كما أن الفرق المنحرفة قد استغلت وضع القصاص وانتشارهم وجهل معظمهم وقلة علمهم بالسنة ، وانحراف طائفة منهم تبتغي العيش والكسب ، فنشروا بينهم أكاذيبهم وحكاياتهم وقصصهم الموضوعة ، فتلقفها هؤلاء القصاص دون وعي وإدراك ، ونشروها بين العامة ، لقد انتشر عن طريقهم مئات الأحاديث المكذوبة على النبي ﷺ ، وعدد لا يحصى من الأخبار والأقوال المكذوبة على الصحابة والتابعين وعلماء الإسلام ، مما يسيء لهم ويشوه تاريخهم وسيرتهم .

---

(٥) نفس المصدر في الحاشية ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٦) قالوا – أخزاهم الله – إن الصحابة قد كفروا بعد النبي ﷺ إلا خمسة هم علي وعمار والمقداد وسلمان وأبوذر .

(٧) انظر إحسان إلهي ظهير ، الشيعة والسنة ص ٣٢ وما بعدها ود/عبدالله الغريب وجاء دور المجوس ص ١٢٢ .

(٨) سورة الحجرات آية ١٣ .

وقد كان من فضل الله وتوفيقه أن قيض مجموعة من العلماء النقاد الذين قاموا بجهد في نقد الرواة والمرويات فبينوا الزائف من الصحيح ، ودافعوا عن عقيدة الأمة وتاريخها ، وجهد علماء السنة في بيان الأحاديث المكذوبة بالنص عليها ، وبيان الرواة الضعاف والمتهمين وأصحاب الأهواء وبرسم المنهج في نقد الروايات وقبولها جهد كبير وموفق .

ومن أبرز من تصدى لإيضاح المغالط التاريخية ورد زيوف الروايات المكذوبة القاضي ابن العربي في كتاب « العواصم من القواصم »(٩) ، والإمام ابن تيمية في كثير من كتبه ورسائله(١٠) ، خاصة كتابه القيم « منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » ، وكذا الحافظ الناقد الذهبي في كثير من مؤلفاته التاريخية مثل كتاب « سير أعلام النبلاء » و « تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام » ، و « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ، وأيضا الحافظ ابن كثير المفسر المؤرخ في كتابه « البداية والنهاية » ، وأيضا الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه « فتح الباري شرح صحيح البخاري » ، وكتاب « لسان الميزان » ، و « تهذيب التهذيب » و « الإصابة في معرفة الصحابة » .

أما الوسائل التي استخدمت لغرض تحريف الوقائع التاريخية ، وتشويه سير رجال الصدر الأول من الصحابة والتابعين فهي كثيرة ونذكر منها :

- الاختلاق والكذب انظر النص رقم ١ و٣ من ملحق النصوص .
- الإتيان لخبر أو حادثة صحيحة فيزيدون فيها وينقصون منها حتى تتشوه وتخرج عن أصلها ، انظر النص رقم ٢ من الملحق .
- وضع الخبر في غير سياقه ، حتى ينحرف عن معناه ومقصده .
- التأويل والتفسير الباطل للأحداث .

---

(٩) نشر هذا الكتاب في القاهرة ، وفي بيروت عدة طبعات بتعليقات ضافية للأستاذ محب الدين الخطيب ، كما قام محمود مهدي الاستانبولي بتخريج نصوصه الحديثية .

(١٠) من رسائل ابن تيمية التي تعرض فيها لبحث وتحقيق بعض القضايا التاريخية الرسائل الآتية : سؤال في معاوية ، سؤال في يزيد ، رأس الحسين ، الوصية الكبرى .

- إبراز المثالب والأخطاء وإخفاء الحقائق والصور المستقيمة .
- صناعة الأشعار وانتحالها لتأييد حوادث تاريخية مدعاة ، لأن الشعر العربي ينظر له كوثيقة تاريخية ومستند يساعد في توثيق الخبر وتأييده .
- وضع الكتب والرسائل المكذوبة ونحلها لعلماء وشخصيات مشهورة ، كما وضعت الرافضة كتاب نهج البلاغة[١١] ونحلته الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وكتاب الإمامة والسياسة[١٢] الذي نحلته أبا محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري لشهرته عند أهل السنة وثقتهم به .

وقد تلقف هذه الأكاذيب والتحريفات في القرن الماضي علماء الغرب وكتابه من المستشرقين والمنصرين - إبان غزوهم واستعمارهم للبلدان الإسلامية ، فوجدوا فيها ضالتهم ، وأخذوا يعملون على إبرازها والتركيز عليها ، مع ما زادوه من عندهم - بدافع من عصبيتهم وكرههم للمسلمين - من الكذب مثل اختراع حوادث لا أصل لها ، أو التفسير المغرض للحوادث التاريخية بقصد التشويه أو التفسير الخاطيء تبعا للتصور والاعتقاد الذي يدينون به . ثم شايع هؤلاء طائفة غير قليلة العدد من تلاميذ المستشرقين في البلاد العربية والإسلامية ، وأخذوا طرائقهم ومناهجهم في البحث ، وأفكارهم وتصوراتهم في الفهم والتحليل وتفسير التاريخ ، وحملوا الراية بعد رحيلهم عن بلاد المسلمين ، وكان ضررهم أشد وأنكى من ضرر أساتذتهم المستشرقين ،

---

(١١) الكتاب عبارة عن مجموعة من الخطب والحكم ، جمعها الشريف الرضى ، وهي لا تثبت كلها لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بل منها ما هو مقطوع بكذبه ، كما قام العالم الشيعي ابن أبي الحديد بشرح الكتاب وتوسع فيه حتى صار في مجلدات كثيرة . انظر عن كتاب نهج البلاغة لسان الميزان ٤/٢٢٣ .

(١٢) حول عدم صحة هذا الكتاب لابن قتيبة ، انظر رسالة الماجستير المقدمة لكلية الشريعة بجامعة أم القرى عام ١٤٠٠ هـ من الباحث علي نفيع العلياني بعنوان « موقف ابن قتيبة من عقيدة السلف » ص ١٠٦ - ١١٥ ، حيث أثبت بالعديد من الأدلة أن مؤلف كتاب الإمامة والسياسة من الرافضة ، وأن ما في هذا الكتاب يخالف عقيدة ابن قتيبة الثابتة في مؤلفاته الكثيرة .

ومن ضرر أسلافهم السابقين من فرق الكفر والضلال ، وذلك أنهم ادعوا – كأساتذتهم – اتباع الروح العلمية المتجردة ، والمنهج العلمي في البحث ، والحقيقة أن غالبهم لم يتجرد إلا من عقيدته ، أما التجرد بمعنى الإخلاص للحق وسلوك المنهج العلمي السليم في إثبات الواقعات التاريخية ، كالمقارنة بين الروايات ، ومعرفة قيمة المصادر التي يرجعون إليها ، ومدى أمانة الناقلين وضبطهم لما نقلوا ، وقياس الأخبار واعتبارها بأحوال العمران البشري وطبائعها ،(١٣) فلا أثر له عند القوم ، فلم يتقنوا من المنهج العلمي إلا الأمور الشكلية مثل الحواشي وترتيب المراجع وما شابهها ، وربما كان هذا هو مفهوم المنهج العلمي عندهم(١٤) .

يقول الأستاذ محب الدين الخطيب : « إن الذين تثقفوا بثقافة أجنبية عنا قد غلب عليهم الوهم بأنهم غرباء عن هذا الماضي ، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين ، بل لقد أوغل بعضهم في الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر التجرد عن كل آصرة بماضي العروبة والإسلام ، جريا وراء المستشرقين في ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة وميلهم مع الهوى ، عندما يدعوهم الحق إلى التثبت وفي إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون في أيديهم أشباه الدلائل عليه »(١٥) ، ثم يذكر أن من مواطن الضعف في كتابات هؤلاء « اشتباه الأدلة التاريخية على المؤرخين المعاصرين وحيرتهم بين جيدها وأجودها ، بل فيهم من لا يميز بين الجيد والرديء ، مع أن ذلك كان في

---

(١٣) حول النقطة الأخيرة ، انظر ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٧ .

(١٤) بل إننا نجد من بين تلاميذ المستشرقين من لا يعنى بشيء من ذلك كله ، رغم كثرة مؤلفاتهم وشهرتها ، فلا نجد مصادر للبحث ولا نقداً للروايات ، ولا موازنة بينها ، ولا تحريراً لها ، بل ميزان النقد لديهم هو العقل والهوى ، فما استحسنه أحدهم بعقله فهو الحسن ، ومالا يهواه ولا يعجبه يرده بكل سهولة ، حتى وإن كان حديثا ثابتا فى صحاح السنة ، انظر النص رقم ٦ من الملحق ، ويمثل هذا المنهج كتابات طه حسين ، ومحمود العقاد ، والشيخ الخضري ، ومحمد حسين هيكل ، وخالد محمد خالد ، وأحمد أمين ، وحسن إبراهيم حسن ، ومحمد عبدالله عنان إلا أن الثلاثة الأخيرين يمتازون بذكر مصادرهم وإن كانوا لا يحافظون على إيراد الأقوال بنصوصها ، وإنما يعبرون عنها من عندهم .

(١٥) محب الدين الخطيب ، المصادر الأولى لتاريخنا ، مجلة الأزهر سنة ٢٤ الجزء الثاني سنة ١٣٧٢ هـ .

متناول يده لو سبق له معرفة موازين رواتنا في النقد أو وقف على مناهجهم في التأليف ومصطلحاتهم في الرواية ومراميهم في الاستشهاد »[١٦] ، ولذلك لا نجد في كتاباتهم نقدا للأخبار والحوادث وفقا للأصول المتبعة عند العلماء ولا تحريراً للمسائل المختلف فيها ، بل لا نجد لديهم المحافظة على نقل النصوص كما هي ، إنما ينقل أحدهم فهمه لها وربما كان خاطئا في فهمه فيبني على ذلك الفهم استنتاجات وأحكاماً بعيدة عن معنى النص الأصلي ودلالته[١٧] .

ومن أهم الوسائل التي اتبعها المستشرقون وتلاميذهم في تشويه وتحريف حقائق التاريخ الإسلامي :

– التدخل بالتفسير الخاطيء للأحداث التاريخية على وفق مقتضيات أحوال عصرهم الذي يعيشون هم فيه ، وحسبما يجول بخواطرهم ، دون أن يحققوا أولا الواقعة التاريخية حتى تثبت ، ودون أن يراعوا ظروف العصر الذي وقعت فيه الحادثة وأحوال الناس وتوجهاتهم في ذلك الوقت ، والعقيدة التي تحكمهم ويدينون بها « انظر النص رقم ٦ ورقم ٧ » ، فإنه قبل تفسير الحادثة لابد من ثبوت وقوعها وليس وجودها في كتاب من الكتب كافيا لثبوتها[١٨] ، لأن مرحلة الثبوت مرحلة سابقة للبحث في تفسير الواقعة التاريخية ، كما ينبغي أن يكون التفسير متمشيا مع منطوق الخبر التاريخي موضوع البحث ، ومع

---

(١٦) المصدر السابق .

(١٧) انظر مثالا على ذلك أحمد أمين ، فجر الإسلام ص ٢٨٠ حيث جعل نواة فرقة المرجئة هم الصحابة الذين تركوا القتال في الفتنة ، كما جعلهم نواة لفرقة المعتزلة كما في ص ٢٩١ .

(١٨) ينبغي التنبه إلى أن ثقات المؤرخين مثل ابن خياط وابن شبة والطبري عندما دونوا الروايات الضعيفة والمنقطعة لم يقصدوا الاحتجاج بها ، وإنما دونوها بأسانيدها وأسماء رواتها لتعرف ، وكانوا على منهج علمي مرسوم يكفي فيه إيضاح السند لتعرف قيمة الرواية ، كما فعل علماء الحديث النبوي من ذكر كل ما بلغهم وإن كان رواته لا يحتج بهم ، وإنما يدونون مثل ذلك للمعرفة ولمرحلة الجمع التي يعقبها مرحلة التنقية والفرز لمعرفة الصحيح من المكذوب ، وإلى هذا أشار الحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٧٥/٣ فقال تعليقا على من انتقد الطبراني جمعه الأحاديث بالإفراد مع ما فيها من النكارة الشديدة والموضوعات ، وفي بعضها القدح في كثير من القدماء من الصحابة وغيرهم « إن هذا أمر لا يختص به الطبراني فلا معنى لإفراده اليوم ، بل أكثر المحدثين في الأعصار الماضية من سنة مائتين وهلم جرا إذا ساقوا الحديث بإسناده اعتقدوا أنهم برؤا من عهدته » .

الطابع العام للمجتمع أو العصر والبيئة التي حدثت فيها الواقعة ، كما يشترط أن لا يكون هذا التفسير متعارضا مع واقعة أو جملة وقائع أخرى ثابتة .

كما أنه لا ينبغي أن ينظر في التفسير إلى عامل واحد – كما هو ديدن كثير من المدارس التاريخية المعاصرة – وإنما ينظر فيه إلى جملة العوامل المؤثرة في الحدث ، وخاصة العوامل العقيدية والفكرية .. ثم إن التفسير التاريخي للحوادث بعد هذا كله لا يعدو كونه اجتهادا بشريا يحتمل الصواب والخطأ .. فإذا كان العلم في ميدان العلوم المعملية لا يعرف القطع والحسم فإن ذلك أولى في مجال الدراسات النظرية ، اللهم إلا إذا كان هناك نص شرعي موجب لهذا القطع ، ولقد أبرز البعض تاريخ الفرق الضالة وعمد إلى تضخيم أدوارها وتصويرها بصورة المصلح المظلوم ، وبأن المؤرخين المسلمين قد تحاملوا عليها ، فالقرامطة والإسماعيلية ، والرافضة الإمامية ، والفاطمية ، والزنج وإخوان الصفا ، والخوارج ، كلهم في نظرهم واعتبارهم دعاة إصلاح وعدالة وحرية ومساواة وثوراتهم كانت ثورات إصلاح للظلم والجور(١٩) .

فهذا الشغب والإرجاف على التاريخ الإسلامي ، ومزاحمة سير رجاله ودعاته بسير قادة الفرق الضالة أمر لا يستغرب من قوم لا يدينون بالإسلام ،

---

(١٩) طرح الفكرة طه حسين في كثير من كتبه كما في كتابه مرآة الإسلام ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ والذي هو آخر ما كتب من إسلامياته ، وقيل إنه أقوم كتبه عن الإسلام . وقام بتنفيذها بعض الكتاب المنحرفين المهووسين بالعلمانية والاشتراكية من أمثال الدكتور محمود إسماعيل في كتابه الحركات السرية في الإسلام . وهو من المعجبين بمنهج طه حسين في تفسير التاريخ الإسلامي تفسيرا علمانيا ، ولذلك خصه بفصل من كتابه الذي سماه « قضايا في التاريخ الإسلامي » وقال عنه : إن طه حسين المؤرخ بمنهجه ورؤيته للتاريخ الإسلامي كان له فضل السبق والريادة في وضع هذا التاريخ على الطريق القويم !! ومهد بذلك الطريق « لعلمنته » هذا الفرع من الدراسات الإنسانية الذي ظل لقرون طويلة حبيس سحب كثيفة من الخرافات والأساطير (ص ١٨٧) ، وهذا العمل على إبراز تاريخ الفرق المنحرفة وتحسين صورتها لدى ناشئة المسلمين كان مما قرره المؤتمر الصهيوني في بلتيمور بأمريكا عام ١٩٤٣ ، والذي حضره اليهودي ابن جوريون حيث قرر المؤتمر مضاعفة الجهود لتزييف التاريخ الإسلامي ، والتركيز على ثورات الزنج والقرامطة والباطنية وتصويرها على أنها حركات تقدمية تمثل العدل الاجتماعي ، بينما هي في الحقيقة قد استهدفت تدمير القيم الإسلامية في المجتمع وصولا إلى إسقاط الدولة الإسلامية .
« انظر أنور الجندي ، تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ص ١٥٤ » .

فهم من واقع عقيدتهم يكيدون له بكل جهد مستطاع ، ليلا ونهارا وسرا وجهارا ، ولا يتوقع من مطموسي الإيمان وملل الكفر إلا مناصرة إخوانهم في الضلال ، ولكن الأمر الذي قد يحدث استغرابا عند البعض أن يحمل راية التشويه والتحريف بعد سقوط دولة الاستشراق كتاب يحملون أسماء إسلامية ومن أبناء المسلمين ، ويقومون بنشر مثل هذه السموم على بني جلدتهم ليصرفوا بها الأغرار عن الصراط المستقيم .

ولقد عمد هؤلاء إلى التشبث بالروايات المشبوهة والضعيفة والساقطة ، يلتقطونها من كتب الأدب ، وقصص السمر ، والحكايات الشعبية ، والكتب المنحولة والضعيفة ، مثل كتاب الأغاني ، والبيان والتبيين ، والبخلاء ، وعيون الأخبار ، والكامل في الأدب ، وحياة الحيوان ، ونهج البلاغة وشرحه ، وغيرها ، فهذه الكتب هي مستنداتهم في الغالب مع ما يجدونه من الروايات المكذوبة في الطبري والمسعودي ، مع أنهم يعلمون أنها لا تعتبر مراجع علمية يعتمد عليها « انظر النص رقم ٨ » وهم يكفيهم إشارة هامشية لكي يبادروا إلى تضخيمها والتوسع في إعطاء الشروح والتفسيرات لها والبناء عليها ، وهكذا نراهم يعمدون إلى الأمر اليسير يجعلونه عظيما ويبنون عليه قضايا كبيرة ، « انظر النص رقم ٤ ورقم ٩ من الملحق » .

ولقد وقع الاعتداء على التاريخ الإسلامي – خاصة تاريخ الصدر الأول – بالتشويه عن طريق اختيار مواقف مختارة والتركيز عليها ، كالمعارك والحروب مع تصويرها على غير حقيقتها حتى تزول عنها صفة الجهاد في سبيل الله ، أو التركيز على الأحداث والفتن الداخلية ، بقصد إظهار خلافات الصحابة – رضي الله عنهم – وعرضها وكأنها نموذج للصراعات والمكائد السياسية في وقتنا الحاضر ، وبالتجهيل ؛ وهو إهمال كل ما هو مدعاة للاقتداء والأسوة الحسنة .

وبالتشكيك ، وهو توجيه السهام إلى التاريخ ورجاله وإلى المؤرخين المسلمين أنفسهم والتشكيك في معلوماتهم وصدقهم .

وبالتجزئة ، وهي محاولة تجزئة التاريخ الإسلامي إلى أوصال وأشتات وكأنها لا رابط بينها كالتوزيع الإقليمي والعرقي ونحوه .

فكل هذه الوسائل والحملات تسعى إلى تدمير تاريخنا الإسلامي ومحو معالمه النيرة وإبعاده عن مجال القدوة الحسنة والتربية الصحيحة لذا ينبغي على المؤرخ المسلم معرفة هذه الوسائل والتنبه لها ومعرفة الذين تابعوا المستشرقين في آرائهم ومناهجهم وعدم التلقي منهم إلا بحذر شديد . فإذا كان علماؤنا رحمهم الله – قد نقدوا كثيرا من الرواة وضعفوا روايتهم بسبب أخذهم عن أهل الكتاب ورواياتهم الإسرائيليات ، فإنه ينبغي لنا التوقف في قبول أقوال وتفسيرات من يتلقى من المستشرقين ، بل إسقاطها وعدم اعتبارها إلا بدليل وبرهان واضح .

نتائج البحث :

الحمد لله الذي هدانا وأعاننا على إخراج هذا البحث بالصورة التي يراها القاريء ، ولقد أوضحت هذه الدراسة :

– ضرورة الربط بين العلم والعمل به ، حتى يؤتى العلم ثماره ، ولكي يصح العمل ويستقيم السلوك ، وأن العلم إنما يتلقى لأجل العمل .

– بطلان المنهج القائم على طلب « العلم للعلم » و « الفن للفن » و « الأدب للأدب » ، لأن تلقي العلم في الإسلام محكوم بضوابط شرعية في منهجه وفي أهدافه وفي وسائله ، كما أنه مرتبط بالغاية الأساسية من خلق الإنسان ووظيفته في هذا الكون .

– أهمية علم التاريخ وفائدته في التعرف على السنن الربانية وملاحظتها من خلال الأحداث المتعاقبة ، ومعرفة المعالم المهمة في تاريخ البشرية ، والتأكيد على إثبات مجموعة من الحقائق الكبيرة في حياة الإنسان ، وأن دراسة التاريخ ليست قاصرة على سرد الحوادث ومعرفة سنى الوفيات ، وخاصة في عصرنا الحاضر الذي صار فيه التاريخ أحد الأسلحة التي تستخدم في مجال التوجيه وصياغة الأفكار ونشر المذاهب وتأييدها ، كما أنه قد أصبح يأخذ مكانته

ودوره في الصراع العقائدي بين الأمم ، فدراسة التاريخ وتفسيره مرتبطة بالعقائد والتصورات والأفكار التي يحملها الباحثون والكتاب .

ولأجل هذا الأثر الخطير الذي تؤديه الدراسات التاريخية فقد كان من أول ما اعتنى به الاستشراق ، كما كان من أقوى الأسلحة التي استخدمها الغزو الفكري الأوربي للبلاد الإسلامية وبث أفكاره وعقائده وأخلاقه وتثبيت دعائم استعماره .

– وجوب الالتزام بالمنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية ، وأن هذا الالتزام ضرورة علمية ووظيفة شرعية وحاجة إنسانية ، الإخلال بها إخلال بموازين العلم الصحيحة وبالأحكام الشرعية ، ويسبب نقصا كبيرا في الدراسة وتشويها للوقائع التاريخية ، بل يسبب انحرافا خطيرا في التفسير والفهم والسلوك تجاه الأحداث التاريخية .

– بيان المصادر التي يستقى منها المنهج الإسلامي لكتابة التاريخ وأنها تنقسم إلى قسمين :

١ – مصادر طرق إثبات الحقائق ، وقد رسم العلماء المسلمون لذلك مناهج غاية في الدقة والإتقان ، خاصة مناهج علماء الحديث النبوي .

٢ – مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها وهذه متعلقة بالتصورات والعقائد ، فلابد من تلقيها من المصادر الشرعية ، لكي يستقيم منهج التفسير وتصح الأحكام التاريخية وأنه لا يجوز في هذا الجانب الاستقاء من أي مصدر آخر .

– بيان خصائص المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ ، ومن أهم هذه الخصائص التميز في التصور والمفاهيم ، وأن هذا التميز يوجب الاستغناء والاستقلال عن كافة المناهج البشرية ومفاهيمها الوضعية ، ومن أبرز المفاهيم في هذا المجال معرفة التصور الصحيح في الإسلام عن الإنسان ، والكون ، والحياة ، وارتباطها بالخالق جل وعلا ، لأن هذه العناصر هي إطار الحركة التاريخية ومجالها ، كما أن التصور الصحيح عنها هو مفرق الطريق وأس الخلاف

في النظرة إلى التاريخ بين المسلم وغير المسلم ، لأن التصور العقدي هو الذي يحكم مناهج البحث ويمدها بالمقاييس والموازين التي تضبطها ، فإذا كان التصور صحيحا كانت المقاييس صحيحة ، ذلك أن المناهج إنما هي أثر من آثار التصور العقيدي ، وتابعة له ومتأثرة به ، كما أنها وسيلة من وسائل تحقيقه في الواقع العملي .

وهذا المنهج له وسائل وغايات ترتبط كلها وتنبثق من الغاية الأساسية من خلق الإنسان ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾

– بيان جملة من القواعد المهمة التي يجب أن يراعيها المسلم في كتابة التاريخ الإسلامي وفي تدريسه ، ومن أهم هذه القواعد :

١ – معرفة الحكم الشرعي في المخلفات والآثار الحضارية عن الأمم السابقة .

٢ – معرفة حق الصحابة – رضي الله عنهم – والموقف من الفتن التي وقعت في عصرهم .

٣ – التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام .

٤ – اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر .

٥ – معرفة حدود الأخذ من كتب أهل الأهواء والزندقة .

٦ – معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين .

٧ – الالتزام بالعقيدة الإسلامية وأحكامها ، والتركيز في الدراسة على الأهداف والغايات .

٨ – إبراز دور الأنبياء – عليهم السلام – وأثر الوحي الذي جاءوا به في تاريخ البشرية .

٩ – تحري استعمال المصطلحات الإسلامية .

إلى غير ذلك من القواعد الموضحة في مواضعها . والحمد لله رب العالمين .

« ملحـــق النصـــوص »

النص رقم (١)

« وبلغ عثمان أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله ﷺ ويجتمع إليه الناس ، فيحدث بما فيه الطعن عليه ، وأنه وقف بباب المسجد فقال : أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري ، أنا جندب بن جنادة الربذي ، إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل ، والعترة الهادية من محمد ، إنه شرف شريفهم ، استحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة ، وكالكعبة المستورة ، أو كالقبلة المنصوبة ، أو كالشمس الضاحية ، أو كالقمر الساري ، أو كالنجوم الهادية ، أو كالشجرة الزيتونية ، أضاء زيتها ، وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم ، وما فضل به النبيون ، وعلي بن أبي طالب وصي محمد ، ووارث علمه .

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها : « أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله ، وأقررتم الولاية ، والوراثة في بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ، ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولي الله ولما طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم علم ذلك عندهم ، من كتاب الله وسنة نبيه ، فأما إذ فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »[١] تاريخ اليعقوبي ٢/١٧١ .

---

(١) هذه الخطبة المنسوبة لأبي ذر أوردها اليعقوبي – وهو شيعي جلد كما أوضحنا في ترجمته – دون إسناد ، وهذا كاف في ردها ، حيث لم يروها أحد من المؤرخين غيره ، وفيها أمور من عقائد الشيعة الفاسدة لم يقل بها أحد من الصحابة ولا علي – رضي الله عنه – أو أحد من أبنائه ، كما أن أسلوب الخطبة وعباراتها المتكلفة يدل على وضعها .

النص رقم (٢)

« وكانت أول صارخة ، صرخت في المدينة أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، كان دفع إليها قارورة فيها تربة ، وقال لها إن جبريل أعلمني أن أمتي تقتل الحسين ، وأعطاني هذه التربة ، وقال لي إذا صارت دما عبيطا فاعلمي أن الحسين قد قتل ، فلما حضر ذلك الوقت جعلت تنظر إلى القارورة في كل ساعة ، فلما رأتها صارت دما صاحت واحسيناه ، وابن رسول الله ، وتصارخت النساء من كل ناحية حتى ارتفعت المدينة بالرجة التي ما سمع بمثلها قط »[1] تاريخ اليعقوبي ٢/٢٤٦ .

(١) وهذا نوع من الأساطير التي روجها الشيعة ، وأدخلوها إلى التاريخ الإسلامي ، وقد ذكرها اليعقوبي دون إسناد ، وفيها من الكذب مالا يخفى . ولا يعترض على هذا بما في المسند ٦/٢٩٤ عن عائشة أو أم سلمة أن النبي ﷺ قال لأحدهما [لقد دخل على البيت ملك لم يدخل عليّ قبلها فقال لي إن ابنك هذا حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها قال فأخرج تربة حمراء » .
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/١٨٧ رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . فليس في الحديث القارورة المزعومة ولا أن التراب الذي فيها يتحول دما عبيطا . ولهذا علق الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٢٠٢ بعد سياقه بعض الأخبار في مقتل الحسين بن علي – رضي الله عنه – بقوله « وللشيعة والرافضة في صفة مصرع الحسين كذب كثير وأخبار باطلة ، وفيما ذكرنا كفاية ، وفي بعض ما أوردناه نظر ، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة ذكروه ما سقته وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى وقد كان شيعيا وهو ضعيف الحديث عند الأئمة » .

النص رقم (٣)

« نصر . عمرو بن شمر ، عن جابر ، عن أبي جعفر وزيد بن حسن قالا : طلب معاوية إلى عمرو بن العاص أن يسوي صفوف أهل الشام ، فقال له عمرو : على أن لي حكمي إن قتل الله بن أبي طالب واستوسقت لك البلاد ، قال أليس حكمك في مصر ؟ قال : وهل مصر تكون عوضا عن الجنة ، وقتل ابن أبي طالب ثمنا لعذاب النار الذي لا يفر عنهم وهم مبلسون ؟ فقال معاوية : إن لك حكمك أبا عبدالله إن قتل ابن أبي طالب ، رويدا ، لا يسمع الناس كلامك ، فقال لهم عمرو : يا معشر أهل الشام سووا صفوفكم .. »(١)

وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم ص ٢٣٧ .

---

(١) قلت : هذه رواية مسلسلة الإسناد بالروافض ، فنصر بن مزاحم رافضي جلد ، تركوه كما يقول الذهبي في الميزان ٢٥٣/٤ .

وعمرو بن شمر الجعفي الكوفي : زائغ كذاب ، رافضي يشتم الصحابة « ميزان الاعتدال ٢٦٨/٣ » .

وجابر بن يزيد الجعفي الكوفي : شيعي كذاب ، يقول بالرجعة ، ويسب الصحابة ، ميزان الاعتدال ٣٨٠/١ .

ومضمون الرواية ومتنها يشهد بهذا .

النص رقم (٤)

على أثر انتصار علي في موقعة الجمل انحصر النزاع بين حزبين اثنين

١ – حزب عثمان ، وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان أعظم قرابة عثمان شأنا والمطالب بدمه .

٢ – حزب علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين ورأس بني هاشم الذين كان العداء بينهم وبين بني أمية قديما ، منذ الجاهلية ، ولم يزده الإسلام إلا شدة ، فبنو حرب لم ينسوا ما كان من حمزة وما كان من علي يوم بدر ، كما أن بني هاشم لم ينسوا ما كان من هند يوم أحد ، وقد صورت أم الخير بنت الحريش البارقية الخلاف بين علي ومعاوية وذكرت أسبابه في تلك الخطبة التي ألقتها يوم صفين .. »[1]

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ٣٦٧/١ .

---

(١) فقد فسر المؤلف النزاع بين علي ومعاوية على أساس العصبية الجاهلية القديمة والتي زادها الإسلام قوة في زعمه !! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم . وقد كرر هذا القول أكثر من مرة في كتابه هذا ، انظر على سبيل المثال ٢٧٦/١ و٢٧٨ فهل الإسلام أتى ليؤجج العصبيات أم ليمحوها ويحل مكانها الأخوة في الله والتعاون على البر والتقوى والمحبة والتآلف ، قال تعالى ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ الأنفال ٦٣ .

النص رقم (٥)

« نظرا لمصاهرة علي بن أبي طالب للنبي ، ولكونه من أهل بيته ومن المقربين إليه ، والمضحين في سبيله ، كان من المرجح أن يكون خلفا له على إمارة المسلمين لذلك ، فلما قبض الرسول لقى العباس بن عبدالمطلب كلا من أبي بكر ثم عمر وسألهما إذا كان الرسول أوصاهما بشيء ، وإذ علم منهما أنه لم يُوصِ ، قال لعلي ابسط يدك أبايعك فيقال عم رسول الله بايع ابن عمه وبايعك أهل بيتك ، فقال له علي ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟.

وجواب علي هذا – كرم الله وجهه – يدل على مقدار سلامة قلبه وقلة حذره ، كما يدل على ابتعاده عن ألاعيب السياسة ، فهو قد أهمل مبادرة عمه العباس بعد وفاة النبي ، كما أهمل من قبل وصيته بأن يسأل النبي قبل موته إن كان الأمر لهم أو إن كان لغيرهم يوصي بهم خيرا ، وفي غضون ما كان علي مطمئن البال على الخلافة استنادا إلى اعتقاده أنه حقه للاعتبارات المذكورة ، كان الآخرون يفكرون فيها ويعقدون الاجتماعات للتشاور حولها ، وكل منهم يريدها لنفسه وفقا لناموس تنازع البقاء ، وكانت النتيجة صرفها عن علي خلافا لما كان يترقب هو وعامة المسلمين »[1] .

محمد جميل بيهم ، دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل ص ١٦٤ – ١٦٥ .

---

(١) ما ذكر المؤلف من خبر تاريخي لم يبين مصدره ليتم على ضوء ذلك نقده والتحقق من ثبوته ، أما تفسيره للحوادث التاريخية فمبني على قيم جاهلية ليس لها مستند شرعي ، وقد قال المشركون قبله فيما حكاه الله عنهم ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (٣١ الزخرف) ، كما أن حكايته عما في نفس علي بن أبي طالب هو تقول عليه ، بل هو كذب عليه وعلى الحقائق التاريخية ، لأن عامة المسلمين هم الذين بايعوا أبا بكر لما علموه من النصوص والإرشادات النبوية بتقديمه ، وأسلوب المؤلف كله اتهامات وإساءة الظن ببقية الصحابة – رضي الله عنهم – ويظهر أنه شيعي .

النص رقم (٦)

« ويقال إن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي ﷺ ، فهم رهطه الأدنون ، وهم أقرب إليه من تيم قوم أبي بكر ، ومن عدي قوم عمر ، ومن أمية قوم عثمان ، ولكنهم رأوا إجماع الناس على أبي بكر ، كما رأوا إجماع الناس على عمر ، ومن بعده على عثمان ، فكرهوا أن يثيروا الفتنة ، أو أن يحدثوا في الإسلام حدثا ، وأذعنوا لإجماع المسلمين ، ويقال كذلك : إن النبي قال لبعض أصحابه في مرضه الذي توفى فيه إيتوني بصحيفة أكتب لكم مالا تضلون بعده أبدا ، فاختلفوا وتنازعوا ، يقول بعضهم إن النبي قد اشتد عليه الوجع وعندنا كتاب الله ، ويقول بعضهم الآخر بل دعوا رسول الله يكتب ، فلما أكثروا قال لهم النبي ﷺ قوموا عني ، قالوا فكان ابن عباس يرى أن الرزية كل الرزية أنهم لم يخلوا بين رسول الله وبين ما أراد .

وأكاد أقطع أن هذا الحديث – مهما كان سنده – غير صحيح .. »[١]

طه حسين ، مرآة الإسلام ص ١٣٢ – ١٣٣ .

---

(١) أين المنهج العلمي في مثل هذه الكتابة وهذا الأسلوب ؟!! إثارة للشكوك وتوريع للتهم بهذا الأسلوب يقال ، وقيل ، ويروى ، وأكاد أقطع ، وأكبر الظن !! دون الرجوع للمصادر ، هذا بالإضافة إلى رده لصحاح الأخبار التي ثبتت بأعلى منهج علمي عرفته البشرية ، فالحديث الذي رده بمجرد التحكم العقلي والهوى ثابت في الصحيحين وقد رده وهو يعلم ذلك (انظر عن الحديث اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢/١٦٧) .

النص رقم (٧)

« من أجل الفصل في قضية طلحة والزبير من علي واختلاف هذا الموقف قبل بيعته وبعدها ، لابد أن نعود للتذكير بما أسلفنا من حديث عن أسباب النقمة على عثمان ، ولاسيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة ، بسبب توقف الفتوح واستئناف الأرستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري ، ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار ، حيث أثرى بعض رجالات قريش ثراء فاحشا ، وكنا قد ضربنا مثلا بما حصل عليه كل من طلحة والزبير من أموال ومتاع وعقار وعبيد جعلتهما من كبار رجال رأس المال ، الذين يهمهم جدا أن تكون أمور الدولة بيد رجل يقبل بأن تسير الأمور على هواهما .

وعليٌّ رجل جد واستقامة ودين ويعرفان سلفا أنه قد يقف حجر عثرة في طريق مصالحهما المادية ، ولو آلت الخلافة لواحد منهما على ما له من سابقة في الإسلام وعضوية في شورى عمر لضمنا لأنفسهما يسرا في الأمور لن يتحقق لهما في ظل خلافة شخص كعلي ...

وبعد أن يورد اعتراضا على هذه الفرضية كما يقول ويجيب عليه يعود فيقول « وعلي بن أبي طالب الذي استقطب ولاء غالبية الثائرين على عثمان ولا سيما رجال الأمصار والقبائل ، لابد آخذ بمطالب الثائرين ومن بينها القضايا الاقتصادية وإثراء البعض على حساب مجموع الأمة ، فخلافته خطر على مصالح طلحة والزبير ، ولابد من إيجاد وسيلة أو حجة يتستران بها لتبرير ثورتهما عليه ، فكان إعلانهما بأن الثائرين على عثمان غوغاء وعبيد وأعراب ، وفي هذا مبرر كاف للانقلاب على علي الذي ناصر هؤلاء الغوغاء والعبيد والأعراب ،

وقبل الخلافة منهم على حد زعم طلحة والزبير ... »[1]

د /نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ص ٢٣ و٢٧ - ٢٨ .

---

(١) وهذا الكلام أشبه بالبيانات الحزبية منه بالكتابة التاريخية وينبىء عن سوء التفسير للحوادث التاريخية وكيفية استغلالها ، وتوجيهها حسب المذهب الفكري والتوجيه السياسي الذي يعتقده الباحث ، دون النظر لواقع من تتحدث عنهم الأخبار وطبيعة مجتمعهم ومعتقداتهم ، وفي هذا الكتاب من السفاهة والسماجة وتهافت التحليل والافتراضات مالا يحصى ، ولولا أن الكتاب منشور في الأسواق وصاحبه يتربع على كراسي للتعليم بالجامعات لما ذكرته ، وما هو في الحقيقة إلا نموذج من الانحرافات التي أصابت تاريخنا الإسلامي ، فهو يمثل مجموعة من المهووسين بالأفكار العلمانية والبعثية والشيوعية .

النص رقم (٨)

قال أحمد أمين في تعليله لظاهرة الغناء بالحجاز :

« وقد يكون السبب أن الحجاز كان به أرستقراطية العرب وهم العنصر الفاتح ، وقد نال هؤلاء الأرستقراطيون خير الجواري وأرفعهن نسبا وأكثرهن تأدبا ، ومنهن من تربى ببيت الملوك والأمراء ، وتأدبن بآداب الحضارة ، فنقلن ذلك إلى الحجاز وصبغنه بالصبغة العربية ، وكان لهن الفضل في تأسيس مدرسة الغناء في الحجاز ، وقد يكون العلة أن البدو إذا تحضروا وبسط لهم في العيش أسرفوا في اللهو شأن كثير ممن غنى بعد الحرمان .

وربما كان السبب أن الأمويين تبوؤا الخلافة وحصروها فيهم ، بل في بيت من بيوتهم ، وضيقوا على من عداهم في بطون قريش ، وحجروا عليهم في التفكير في الشئون السياسية ، وكان الشام هو العنصر المؤيد لخلفاء بني أمية ، والعراق هو العنصر المعارض ، فانصرف فتيان الحجاز بما لهم من مال وفير وجاه عزيز عن الإمارة والخلافة والسياسة إلى اللهو ، فكان الظرف ، وكان الغناء ، وكان الشراب ، وكان المجون »(١) .

فجر الإسلام ص ١٧٩ .

---

(١) ونحن لا نعترض على صحة التعليل من عدمها ، ولا ندافع عن المنحرفين إذا صح ما ذكر ، لكن تصوير المجتمع في قاعدة الإسلام الأولى وموطن كبار الصحابة وأبنائهم بهذه الصورة من المجون والشراب والطرب من أجل بعض الشواذ من العبيد والجواري أمر لا يعقل ، بل إن المؤلف جعل للغناء مدرسة في الحجاز .

وكل أخباره في هذا الموضوع منقولة عن كتاب الأغاني وهو كتاب حكايات وسمر ، ومؤلفة ليس بعدل ولا ثقة ، وقد ذهب هذا المذهب من تضخيم دور المنحرفين في مجتمع الحجاز الدكتور شوقي ضيف في كتابه الذي سماه « الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية » وكل اعتماده فيما يورد من أخبار على كتاب الأغاني .

النص رقم (٩)

« والاشتراكية الإسلامية لا تقتضي إلغاء التملك إطلاقا كما تقتضيه الاشتراكية الغربية ، وقد أثبت الواقع في روسيا البلشفية وفي كل بلاد سادتها الاشتراكية أن إلغاء التملك إطلاقا أمر غير ممكن ، لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكا عاما مشاعا بين الناس جميعا ، وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام ، فكان من بين أصحاب النبي غلاة في الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله ملكا مشاعا ومرفقا عاما ، ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء لا يجوز تملك شيء منه ، وإنما يقع التملك على الثمرات ، ينال كل منها على قدر سعيه ومجهوده ، وكان منهم من لا يرون هذا الرأي ويقولون بجواز تملك الأرض ، ويعتبرونها من العروض التي يقع عليها التبادل ، على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقررة اليوم في أوربا ،!! تقضي بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته ...»[١]

محمد حسين هيكل ، حياة محمد ص ٥٤٢ — ٥٤٣ .

---

(١) لم يوضح سيادة المؤلف القدير مصدر معلوماته عندما وصف بعض أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم غلاة في الاشتراكية فهي من بنات أفكاره ، أو لعله قام بالتقاطها من أحد المستشرقين ، وقد صرح في مقدمة كتابه أنه لا يعتمد على كتاب السيرة ، لأنه يكتب كتابه وفقا للمنهج العلمي (الأوربي) الحديث !!

الفهــارس

فهــرس المصــادر والمراجــع

فهــرس الموضوعــات

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

القرآن الكريم

- ابن الأثير (علي بن محمد الشيباني ت ٦٣٠ هـ)

جامع الأصول من أحاديث الرسول (١١ جزء) تحقيق الأرناؤوط دمشق ١٣٩٠ هـ

الكامل في التاريخ (١٣ جزء) دار صادر ودار بيروت .

- الآمدي (علي بن أبي علي بن محمد ت ٦٣١ هـ)

الأحكام في أصول الأحكام . مكتبة صبيح بالقاهرة ١٣٨٧ هـ .

- البخارى (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦ هـ) .

الجامع الصحيح (٨ أجزاء) المكتبة الإسلامية بتركيا ١٩٧٩ م .

التاريخ الصغير تحقيق محمود إبراهيم زايد . دار التراث بالقاهرة .

- البغوي (الحسين بن مسعود ت ٥١٦ هـ)

شرح السنة (١٦ جزء) المكتب الإسلامي بيروت .

- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ)

فتوح البلدان . تحقيق صلاح الدين المنجد . مكتبة النهضة المصرية .

- البيهقي (أحمد بن الحسين ت ٤٥٨ هـ)

دلائل النبوة . تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان . المكتبة السلفية بالمدينة .

- التبريزي (محمد بن عبدالله الخطيب ت بعد ٧٣٧ هـ)

مشكاة المصابيح . تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي ببيروت .

● الترمذي (محمد بن عيسى ت ٢٧٩ هـ)
سنن الترمذي المسمى بالجامع الصحيح (٥ أجزاء) تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث .

● ابن تغري بردى (جمال الدين يوسف الأتابكي ت ٨٧٤ هـ)
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة (١٦ مجلد) المؤسسة المصرية للترجمة .

● ابن تيمية (أحمد بن عبدالحليم الحراني ت ٧٢٨ هـ)
مجموع الفتاوى الكبرى (٣٧ مجلدا) ط ٢ مكتبة ابن تيمية بالقاهرة .
العبودية . تحقيق عبدالرحمن الباني . المكتب الإسلامي ببيروت .
الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، دار الإفتاء بالرياض .
العقيدة الواسطية شرح محمد خليل هراس ، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة .
شرح حديث إنما الأعمال بالنيات . ضمن مجموعة الرسائل الكمالية مجلد ٢ مكتبة المعارف بالطائف .
درء تعارض العقل والنقل (١١ جزء) تحقيق محمد رشاد سالم ط جامعة الإمام محمد بن سعود .
رأس الحسين . تقديم محمد جميل غازي . المدني بالقاهرة .
مقدمة في أصول التفسير . تحقيق عدنان زرزور . دار القرآن الكويت .
الرد على البكري تحقيق رشيد رضا . المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٦ هـ .
منهاج السُّنة النبوية . مكتبة الرياض الحديثة .
معنى السُّنة في القرآن . ضمن جامع الرسائل . تحقيق محمد رشاد سالم . المدني بالقاهرة .

● ابن الجوزي (عبدالرحمن بن علي ت ٥٩٧ هـ)
مناقب عمر بن الخطاب . تحقيق زينب القاروط . دار الكتب العلمية بيروت .

● الجوهري (إسماعيل بن حماد ت ٣٩٨ هـ)
الصحاح . تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ط ٢ دار العلم للملايين بيروت .

● الحازمي (محمد بن موسى الهمداني ت ٥٨٤ هـ)
الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار . نشرة راتب حاكمي . حمص ١٣٨٦ هـ .

● الحاكم (أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت ٤٠٥ هـ
المستدرك على الصحيحين . دار الكتاب العربي .
معرفة علوم الحديث . تصحيح معظم حسين ، المكتب التجاري للطباعة بيروت .

● ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني ت ٨٥٢ هـ)
فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٤ مجلدا) المكتبة السلفية بالقاهرة .
الإصابة في معرفة الصحابة (٨ مجلدات) تحقيق علي البجاوي . دار نهضة مصر .
تقريب التهذيب . تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ، دار المعرفة بيروت .
تهذيب التهذيب . (١٢ مجلدا) مصورة عن طبعة المعارف العثمانية بالهند .

● ابن حزم (علي بن حزم الظاهري ت ٤٥٦ هـ)
الفصل في الملل والأهواء والنحل . مكتبة المثنى بغداد .
إحكام الأحكام . بيروت .

● ابن حنبل (أحمد بن حنبل الشيباني ت ٢٤١ هـ)
المسند (٦ أجزاء) طبع دار صادر بيروت .
السُّنة . تصحيح إسماعيل الأنصاري . طبعة دار الإفتاء بالرياض .

● أبو حنيفة الدينوري (أحمد بن داود ت ٢٨٢ هـ)
الأخبار الطوال . تحقيق عبدالمنعم عامر . وزارة الثقافة والإرشاد بمصر .

● الخطابي (أحمد بن محمد أبو سليمان ت ٣٨٨ هـ)
معالم السنن . مطبوع مع مختصر سنن أبي داود للمنذري ج بتحقيق أحمد شاكر .

● الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت ت ٤٦٣ هـ)
اقتضاء العلم العمل . تحقيق الشيخ الألباني . المكتب الإسلامي .
الكفاية في علم الرواية . طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

● ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ت ٨٠٨ هـ)
مقدمة ابن خلدون . دار إحياء التراث العربي . بيروت .

● خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)
التاريخ . تحقيق أكرم ضياء العمري . مؤسسة الرسالة ودار القلم بيروت .
الطبقات . تحقيق أكرم ضياء العمري دار طيبة الرياض .

● الخوارزمي « محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧ هـ)
مفاتيح العلوم . ط ٣ مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة .

● الخوانساري .
روضات الجنات في أحوال العلماء السادات . دار المعرفة بيروت .

● ابن أبي خيثمة (زهير بن حرب ت ٢٣٤ هـ)
كتاب العلم . تحقيق الشيخ الألباني . دار الأرقم الكويت .

● ابن خير (محمد بن خير الأشبيلي ت ٥٧٥ هـ)
فهرست ما رواه عن شيوخه . مكتبة المثنى بغداد .

● أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني ت ٢٧٥ هـ)
السنن . تحقيق محيي الدين عبدالحميد . دار الفكر بيروت .
مسائل الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق رشيد رضا . توزيع دار الباز مكة .

● الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ)
ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٤ مجلدات) تحقيق علي البجاوي . دار المعرفة بيروت .
معرفة القراء الكبار . تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة . القاهرة .
المنتقى من منهاج الاعتدال . تحقيق محب الدين الخطيب . دار البيان دمشق .
تذكرة الحفاظ . تصحيح عبدالرحمن المعلمي . دار إحياء التراث العربي .
سير أعلام النبلاء (صدر منه ٢٣ مجلدا) مؤسسة دار الرسالة بيروت .

● الرازي (عبدالرحمن بن أبي حاتم ت ٣٢٧ هـ)
الجرح والتعديل (٩ مجلدات) دار الكتب العلمية بيروت .

● الرازي (محمد بن أبي بكر ت ٦٦٦ هـ)
مختار الصحاح . دار الكتاب العربي ط الأولى .

● ابن رجب (عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي ت ٧٩٥ هـ)
جامع العلوم والحكم . دار المعرفة بيروت .

● الزبيدي (محمد بن محمد بن مرتضى) ت ١٢٠٥ هـ
تاج العروس شرح القاموس . طبع دار الحياة بيروت

- أبو زرعة الدمشقي (عبدالرحمن بن عمرو ت ٢٨١ هـ)
  تاريخ أبي زرعة . تحقيق شكر الله نعمة الله الفوجاني . طبع مجمع اللغة العربية بدمشق .
- الزركشي . (محمد بن عبدالله ت ٧٩٤ هـ)
  البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ط البابي الحلبي . القاهرة .
- ابن أبي زيد (عبدالله بن عبدالرحمن القيرواني ت ٣٨٦ هـ)
  رسالة بن أبي زيد . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- السبكي (عبدالوهاب بن علي ت ٧٧١ هـ)
  طبقات الشافعية الكبرى (١٠ مجلدات) تحقيق الطناحي والحلو . البابي الحلبي القاهرة .
  قاعدة في المؤرخين . تحقيق عبدالفتاح أبو غدة . دار الوعي حلب .
- السخاوي (محمد بن عبدالرحمن ت ٩٠٢ هـ)
  الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . طبعة حسام القدسي . دار الكتاب العربي بيروت .
- ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري ت ٢٣٠ هـ)
  الطبقات الكبرى (٩ مجلدات) طبعة بيروت .
- السفاريني (محمد بن أحمد ت ١١٨٨ هـ)
  لوامع الأنوار البهية . مؤسسة الخافقين . دمشق .
- سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب (ت ١٢٣٣ هـ)
  حكم موالاة أهل الإشراك . ضمن مجموعة التوحيد . طبع دار الإفتاء بالرياض .
- السمعاني . عبدالكريم بن محمد ت ٥٦٢هـ
  الأنساب . مصورة عن المخطوطة . مكتبة المثنى بغداد .

● السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ)
تدريب الراوي . تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف . دار الكتب الحديثة القاهرة .
الشماريخ في علم التاريخ . تحقيق محمد إبراهيم الشيباني . الدار السلفية الكويت .
حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . إحياء الكتب العربية القاهرة .

● الشاطبي (إبراهيم بن موسى الغرناطي ٧٩٠ هـ)
الموافقات (٤ مجلدات) بتعليق عبدالله دراز . المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة .

● الشوكاني (محمد بن علي ت ١٢٥٠ هـ)
إرشاد السائل إلى دلائل المسائل . ضمن مجموعة الرسائل السلفية للشوكاني . دار الباز بمكة .
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . دار الباز بمكة .

● ابن أبي شيبة (عبدالله بن محمد العبسي ت ٢٣٥ هـ)
كتاب الإيمان . تحقيق الشيخ الألباني . مطبوعات المدرسة السلفية .

● الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤ هـ)
الوافي بالوفيات . طبعة بيروت .

● ابن الصلاح (عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري ٦٤٣ هـ)
فتاوى ابن الصلاح . مجموعة الرسائل المنيرية المجلد الثاني مكتبة المؤيد . الطائف .

● الطبري (محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ)
تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف . القاهرة .

● ابن عبدالبر (يوسف بن عبدالله النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ)
جامع بيان العلم وفضله . دار الكتب الحديثة – القاهرة .

- ابن عبدالحكم (عبدالرحمن بن عبدالله ت ٢٥٧ هـ)
فتوح مصر والمغرب . القسم التاريخي . تحقيق عبدالمنعم عامر . لجنة البيان العربي القاهرة .

- عبدالرزاق الصنعاني . (ت ٢١١ هـ)
المصنف (١١) جزء ، دائرة المعارف العثمانية بالهند .

- عبدالقادر بدران الحنبلي (ت ١٣٤٦ هـ)
تهذيب تاريخ دمشق (صدر منه ٧ مجلدات) دار المسيرة بيروت .

- أبو عبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٤ هـ)
كتاب الإيمان . تحقيق الشيخ الألباني . دار الأرقم الكويت .

- ابن عدي (عبدالله بن عدي الجرجاني ت ٣٦٥ هـ)
مقدمة الكامل في ضعفاء الرجال . تحقيق صبحي السامرائي . مطبعة الأعظمي بغداد .

- العراقي (عبدالرحيم بن الحسين ت ٨٠٦ هـ)
التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح . تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان .

- ابن العربي (محمد بن عبدالله المعافري ت ٥٤٣ هـ
العواصم من القواصم . تحقيق محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية – القاهرة .

- ابن أبي العز (علي بن محمد الحنفي ت ٧٩٢ هـ)
شرح العقيدة الطحاوية . تحقيق الشيخ الألباني . طبع المكتب الإسلامي . بيروت .

- العز بن عبدالسلام السلمي (ت ٦٦٠ هـ)
قواعد الأحكام . دار الكتب العلمية .

- ابن العماد الحنبلي (عبدالحي بن أحمد ت ١٠٨٩ هـ)
شذرات الذهب . دار الآفاق الجديدة . بيروت .

● عياض بن موسى اليحصبي المعروف بالقاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ)
الإلماع إلى معرفة الرواية وتقييد السماع تحقيق سيد أحمد صقر . دار التراث .

● ابن القيم (محمد بن أبي بكر الزرعي ت ٧٥١ هـ)
المنار المنيف في معرفة الحديث الصحيح من الضعيف . تحقيق أبو غدة . مكتب المطبوعات . حلب
إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان . تحقيق محمد حامد الفقي . دار المعرفة بيروت .

● الكافيجي (محمد بن سليمان الحنفي ت ٨٧٩ هـ)
المختصر في علم التاريخ . طبعة روزنتال في كتاب التاريخ عند المسلمين . مكتبة المثنى بغداد .

● ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت ٧٧٤ هـ)
تفسير القرآن الكريم (٨ مجلدات) تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه . دار الشعب القاهرة .
البداية والنهاية . الطبعة الثالثة . مكتبة المعارف بيروت .
اختصار علوم الحديث . شرح أحمد شاكر . مكتبة صبيح بالقاهرة .

● ابن ماجه (محمد بن عبدالرحمن بن يزيد القزويني ت ٢٧٥ هـ)
سنن ابن ماجه . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي . البابي الحلبي . القاهرة .

● المباركفوري (محمد بن عبدالرحمن)
تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي (١٠ أجزاء) دار الفكر بيروت .

● ابن المديني (علي بن عبدالله السعدي ت ٢٣٤ هـ)
علل الحديث ومعرفة الرجال . تحقيق عبدالمعطي قلعجي . دار الوعي . حلب .

- الهيثمي (علي بن أبي بكر ت ٨٠٧ هـ)
  مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . دار الكتاب العربي بيروت .
- ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ت ٦٢٦ هـ
  معجم الأدباء . دار إحياء التراث العربي .

ثانياً : المراجع العربية :

- إحسان الهي ظهير

الشيعة والسنة . ط ١١ إدارة ترجمان السنة . باكستان .

- أحمد أمين .

فجر الإسلام . ط ١٠ دار الكتاب العربي بيروت .

ضحى الإسلام . ط ١١ دار الكتاب العربي بيروت .

- أحمد شلبي .

التاريخ والحضارة الإسلامية . مكتبة وهبة . القاهرة .

- أحمد فكري .

مساجد القاهرة ومدارسها . دار المعارف بمصر .

- أكرم ضياء العمري .

بحوث في تاريخ السنة المشرفة . مؤسسة الرسالة .

إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام . ضمن كتاب دراسات تاريخية .

- أنور الجندي .

تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ، دار الاعتصام ، القاهرة .

- البهي الخولي .

تذكرة الدعاة . دار القلم . بيروت

- توفيق أحمد عبدالجواد .

تاريخ العمارة . المطبعة الفنية الحديثة بالقاهرة .

- جلال محمد موسى .

منهج البحث العلمي عند العرب . دار الكتاب اللبناني .

- جمال عبدالهادي .

تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام منذ أقدم العصور . دار الشروق بجدة .

● حافظ أحمد حكمي .
معارج القبول . الطبعة الثانية . جماعة إحياء التراث . القاهرة .

● حسن إبراهيم حسن .
تاريخ الإسلام السياسي . مكتبة نهضة مصر .

● حسن عثمان .
منهج البحث التاريخي . دار المعارف .

● أبو الحسن الندوي .
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ ط ١٠ دار الأنصار القاهرة .

● حسين نصار .
نشأة التدوين التاريخي عند العرب . مكتبة النهضة المصرية .

● الزركلي (خير الدين) .
الإعلام . الطبعة الرابعة دار العلم للملايين بيروت .

● الساعاتي (عبدالرحمن البنا) .
الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني . دار الحديث بالقاهرة .

● سعاد ماهر .
مساجد القاهرة وأولياؤها الصالحون . طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة .

● السعدي (عبدالرحمن بن ناصر) .
القواعد الحسان لتفسير القرآن . مكتبة المعارف الرياض .

● سفر عبدالرحمن الحوالي .
العلمانية . نشأتها وتطورها ، طبع مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة .

● سيد قطب .
في ظلال القرآن . طبع دار الشروق بيروت .
معالم في الطريق . طبع دار الشروق بيروت .
الإسلام ومشكلات الحضارة . طبع دار الشروق بيروت .
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. طبع دار الشروق بيروت .
في التاريخ فكرة ومنهاج . الدار السعودية للنشر جدة .

● شاكر مصطفى .
دولة بني العباس . وكالة المطبوعات . الكويت .

● الشنقيطي (محمد الأمين الجكني)
مذكرة في أصول الفقه على روضة الناظر ، المكتبة السلفية ، المدينة .

● شوقي ضيف .
الشعر والغناء في المدينة ومكة . دار الثقافة بيروت .

● طه حسين .
مرآة الإسلام ، دار المعارف بمصر .

● عبدالحميد العبادي .
علم التاريخ عند العرب ، فصل ملحق بكتاب علم التاريخ لهرنشو . القاهرة .

● عبدالرحمن بدوي .
مناهج البحث العلمي . وكالة المطبوعات . الكويت .

● عبدالرحمن المعلمي اليماني .
التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل . تحقيق الشيخ الألباني . المطبعة العربية . لاهور .

● عبدالعزيز الدوري .
نشأة علم التاريخ عند العرب . المطبعة الكاثوليكية . بيروت .

- عبداللطيف شرارة .
  إيليا أبو ماضي ونماذج من شعره . دار صادر بيروت .
- عطاء الحديثي . وهناء عبدالخالق .
  القباب المخروطية في العراق . طبع وزارة الإعلام في العراق .
- عفت محمد الشرقاوي .
  أدب التاريخ عند العرب . دار العودة بيروت .
- علي بن نفيع العلياني .
  موقف ابن قتيبة من عقيدة السلف . رسالة ماجستير . جامعة أم القرى بمكة .
- عماد الدين خليل .
  تفسير التاريخ الإسلامي . دار العلم للملايين . بيروت .
- عمر عودة الخطيب .
  المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية . دار الرسالة بيروت .
- الكتاني (محمد بن جعفر ت ١٣٤٥ هـ)
  الرسالة المستطرفة . دار الفكر دمشق .
- محمد أبو زهرة .
  تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي القاهرة .
- محمد أمين المصري .
  المجتمع الإسلامي . دار الأرقم . الكويت .
  لمحات في التربية . دار الفكر بيروت. .
- محمد جميل بيهم .
  دراسة للعهد العربي الأصيل . دار الشروق بيروت .
- محمد حسين هيكل .
  حياة محمد . مكتبة النهضة المصرية .

● محمد زيان عمر .
البحث العلمي مناهجه وتقنياته . ط الأولى .

● محمد سعيد البوطي .
كبرى اليقينيات الكبرى . دار الفكر دمشق .

● محمد سعيد القحطاني .
الولاء والبراء في الإسلام . دار طيبة الرياض .

● محمد الطيب النجار .
الدولة الأموية فى الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء . الطبعة الثالثة .

● محمد عبدالله عنان .
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . مكتبة الخانجى بالقاهرة .

● محمد عبدالله الغريب .
وجاء دور المجوس . القاهرة دار الجيل ١٩٨١ هـ .

● محمد عجاج الخطيب .
السنة قبل التدوين . ط الأولى مكتبة وهبة .

● محمد فؤاد عبدالباقي .
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليها الشيخان . دار الباز مكة .

● محمد قطب .
الإنسان بين المادية والإسلام . بيروت ط ٤ .
التطور والثبات في حياة البشرية . مكتبة وهبة .
معركة التقاليد . دار الشروق بيروت .

● محمد محمد أبو زهو .
الحديث والمحدثون . مطبعة مصر ١٣٧٨ هـ .

- محمد محمد حسين .
  الإسلام والحضارة الغربية . المكتب الإسلامي بيروت .
- محمد محمود صبحي .
  في فلسفة التاريخ . مؤسسة الثقافة الجامعية .
- محمد محمود قاسم .
  المنطق الحديث ومناهج البحث العلمي . مكتبة الأنجلو المصرية .
- محمد مصطفى الأعظمي .
  دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه . طبعة جامعة الرياض .
- محمد ناصر الدين الألباني .
  سلسلة الأحاديث الصحيحة . المكتب الإسلامي .
  ضعيف الجامع الصغير . المكتب الإسلامي .
  صفة صلاة النبي ﷺ . المكتب الإسلامي .
- محمود الطحان .
  تيسير مصطلح الحديث . دار القرآن الكريم. ط٣، ١٣٩٩ هـ .
- مصطفى السباعي .
  السنة ومكانتها في التشريع . المكتب الإسلامي .
- الموسوعة العربية الميسرة دار الشعب بالقاهرة .
- نور الدين حاطوم وزملاؤه .
  المدخل إلى التاريخ .
- نور الدين عتر .
  منهج النقد في علوم الحديث .
- همام عبدالرحيم سعيد .
  العلل في الحديث . دار العدوي . عمان الأردن .

• يوسف خياط ونديم مرعشلي .
ملحق لسان العرب . دار لسان العرب بيروت .

ثالثاً : المراجع المترجمة :

- أرنولد توينبي .
  مختصر دراسة للتاريخ . ترجمة فؤاد محمد شبل . لجنة التأليف والترجمة القاهرة .
- أرنست كونل .
  الفن الإسلامي . ترجمة أحمد موسى . دار صادر بيروت .
- برتراند رسل .
  العقل والمادة . ترجمة إبراهيم الشريف .
- شاتليه . أ . ل .
  الغارة على العالم الإسلامي . ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي . العصر الحديث بيروت .
- عبدالحميد الصديقي .
  تفسير التاريخ . ترجمة كاظم الجواري . دار القلم . الكويت .
- فرانز روز نثال .
  علم التاريخ عند المسلمين . ترجمة أحمد صالح العلي . مكتبة المثنى بغداد .
  مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي . ترجمة فريحة ووليد عرفات . بيروت .
- كارل بروكلمان .
  تاريخ الأدب العربي . ترجمة عبدالحليم النجاز . دار المعارف بمصر .
- محمد أسد .
  الإسلام على مفترق الطرق . ترجمة عمر فروخ . دار العلم للملايين .

- لانجلوا وسينوبوس .
المدخل إلى الدراسات التاريخية . ترجمة عبدالرحمن بدوي . وكالة المطبوعات الكويت .
- ه . ج ويلز .
معالم تاريخ الإنسانية . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد . لجنة التأليف والترجمة – القاهرة .
- ول ديورانت .
قصة الفلسفة . ترجمة فتح الله المشعشع . مكتبة المعارف بيروت .
- يوسف هورفتش .
المغازي الأولى ومؤلفوها . ترجمة حسين نصار . عيسى البابي الحلبي . القاهرة .

رابعاً : المقالات والأبحاث

- جواد علي .

موارد تاريخ الطبري . مجلة المجمع العلمي العراقي العدد الأول سنة ١٩٥٠ م والثاني سنة ١٩٥١ م والثالث من سنة ١٩٥٤ م والثامن من سنة ١٩٦١ م .

- عبدالمحسن حمد العباد .

الرد على من كذب بالمهدي المنتظر . مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة العددين ٤٥ و٤٦ .

- محب الدين الخطيب .

المصادر الأولى لتاريخنا . مجلة الأزهر عدد ٢ مجلد ٢٤ عام ١٣٧٢ هـ .

- محمد عيسى فهيم .

الموضوعية في الدراسات النظرية حقيقة أم خيال ؟ جريدة الرياض في ١٤٠٢/١/٦ هـ .

- محمد المبارك .

النظرة الإسلامية إلى الكون والإنسان والحياة . بحث منشور في كتاب الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض . الحلقة الرابعة تحت عنوان « الإسلام والحضارة » .

- جريدة الجمهورية القاهرة تاريخ ١٩٧٤/١٢/١٨ م .
- مجلة المجتمع الكويتية عدد رقم ٢٣٢ محرم ١٣٩٥ هـ .
- مجلة المعرفة السورية [حكومية] ملحق خاص بعنوان كيف نكتب تاريخنا القومي ؟ دمشق ١٩٦٦ م .

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٣٣ / ٨٦

الترقيم الدولى ٩ – ٩٠ – ١٤٢٠ – ٩٧٧

دار الوفاء - المنصورة
ش ... محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة .

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

فرع المنصورة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ...... ص ب ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

فرع القاهرة : ٤١ ش شريف ت ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٥١٨ / ٣٩٣٤٦٠٦